المورد

مجلة تراثية نصف سنوية محكمة
المجلد الثالث والعشرون - العدد الثاني - ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م



١٩٩٥ | ٢

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الشؤون الثقافية العامة - جمهورية العراق

المورد

راثية نصف سنوية محكمة

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دار الشؤون الثقافية العامة

ـ بغداد ـ جمهورية العراق

المجلد الثالث والعشرون ـ العدد الثاني ـ ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م

الهيئة الاستشارية

عنوان المجلة

* دار الشؤون الثقافية العامة – الاعظمية – ص . ب ٤٠٣٢ – بغداد – جمهورية العراق
لا تعاد المواد لاصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

الاسعار

* العراق (٢٥) ديناراً ، البلدان العربية (٦) دولارات او ما يعادلها ، الدول الاجنبية (٧) دولارات او ما يعادلها .

الاشتراكات

* العراق (٨٠) ديناراً للافراد و(١٠٠) دينار للمؤسسات
الدول العربية (١٠) دولارات ، الدول الاجنبية (١٢) دولاراً .

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق (١٠٠) لسنة ١٩٩٥م

تصميم وتنفيذ : ميسون حامد نجم

«المورد»

أقوى من أية راجفة

مع العراقيين وقائدهم الصابر المقاتل المعتصم بحبل الله السيد الرئيس صدام حسين ، كانت هذه المجلة بمضمونها المترف تعمل على جديلة واحدة ، وتراقب طيش الأعداء وأطماعهم ، خلال حصارهم الوبيل .. بنيران تتأجج بين دفتيها ، لتسقط ذرائعهم بما تملك من تبكيت وتوبيخ ، ولتطرحها مع عقولهم الفاسدة في مزبلة مهجورة تحطمها بما تحملها من العمق والأذى .

واعتادت مجلتنا المجاهدة أن لا تحتاج لسؤال أولئك الأوغاد عن جذور حقدهم ، لأنها تعلم جيداً أن حقدهم جنس حتى حيواننا اللذوذ على غير علف ، فلا غرو إذا لم [illegible] ولم يجدع لها أنف .

وكان جزاؤها ، في هذه الأيام ، على هذا الموقف الباسل ، أن تأتي مصادرة الأعداء على مداخل [illegible] غلهم بموازرة العراقيين وقادتهم الصابرين ، على أن يغصوا بريقهم وهم يتحركون فوق جمر حار . لقد شاء هؤلاء الأعداء – طيلة أيام الحصار – أن يهلكوا الإرادة العراقية بريح صرصر ، ولكنهم بعد أن [illegible] من « بنجومه » الأسود .. أصبحوا يتخبطون في ليل غاب قمره ، وكفى بهم [illegible] أنهم لم يحصلوا بين العراقيين أعواناً وعملاء ، ولذلك خاشنوهم وناصبوهم .. وحرموا على أطفالهم الحليب [illegible] ، وعلى فقرائهم الحماية من أوخم العواقب بالغذاء الذي يحلمون به ، وعلى مرضاهم الدواء الذي يجود بالشفاء وينقذهم من موت عاجل .

وفي أثناء هذا الواقع الذباح .. قذفت بـ« المورد » [illegible] ، لأن عزّها ، مع عزّ العراق ، ثابت لا يعرف هزوياً ولا هزيمة ، ولأن أبناءها ، مع العراق الأبي ، [illegible] منتصرون والعاقبة لمن يملك الصبر الأجمل ، ويفتح نوافذه على أبهج غدٍ في أسعد مستقبل ، « وليس للإنسان إلا ما سعى » .
والله المستعان ، ومنه التوفيق .

رئيس التحرير

دراسة

في حصارات البصرة وصمودها

بقلم : باسم عبد الحميد حمودي

مجلة التراث الشعبي - بغداد

حملت البصرة دوماً قسطاً كبيراً من اعباء الدفاع عن امن العراق وعن شخصية ارض السواد التاريخية ووقفت ابداً عبر زمنها الممتد من تمصيرها عام ١٤ للهجرة ضد الغزوات الاجنبية الطامعة في ارض العراق . ولم تقاوم البصرة هجمات الجيران فقط بل عاشت في صراعات محاولة انفراد قوة كبرى (في القرن الخامس عشر وما تلاه) انذاك كالبرتغاليين والانكليز بالسيطرة على وجه الخليج العربي والوصول الى وسادة البر الحيوي الاكبر فيه . بر العراق من جهته الجنوبية . وخاضت بوصفها منطقة ادارية (ولاية) ومدينة تفاصيل تلك النزاعات متحملة فيها بايجابية حيناً ومراقبة وجلة لا تستطيع التأثير حيناً اخر كما سنرى .

من الثابت ان البصرة الجديدة ليست بصرايانا السريانية القديمة ولا بصرة عتبة بن غزوان فقد قامت على انقاض مدينة الموفقية التي بناها الموفق العباسي « لتكون مقراً لحركاته العسكرية » . والثابت ان البصرة بعد سقوط بغداد ٦٥٦ هـ وتفكك الدولة المركزية قد خضعت لنفوذ عدة قوى محلية واجنبية لا مجال لبحث تفاصيل هويتها بافاضة سوى ذكر ماهو معروف من ان العثمانيين قد انتزعوا حكم العراق من الصفويين اثر معركة جالديران ١٥١٤ م اثر فرار امراء الاق قوينلو امام الصفويين عام ١٥٠٨ .

« وكان لتقدم الفاتح العثماني في بلاد الدولة الصفوية صدى قوي في بغداد حيث اغتصب الحكم ذو الفقار الكردي الاصل واعلن ولاءه للسلطان العثماني ولكن الخيانة اعادت بغداد للحكم الصفوي سنة ١٥٣٠ . وزحف السلطان بجيوشه القوية على العراق ففتح بغداد سنة ١٥٣٤ »[1]

وكانت البصرة يومئذ بيد الشيخ راشد الطوال الذي خاف سطوة السلطان سليم « فشخص بنفسه الى بغداد وسلم اليه مفاتيحها فما كان من السلطان الا ان امّره على ملكه واعاده اليها سالماً آمناً ولكن راشداً طغى واستبد بعد بضعة اشهر فاضطرت حكومة بغداد ان ترسل قوة لطرده قائدها الوزير اياس باشا وظلت البصرة بيد الترك يتولاها امراؤهم او ولاتهم »[2] وان ظلت العشائر المجاورة تواجه الحكم العثماني في كثير من الحالات لكنها مواجهات غير حاسمة لا تشير الا الى حالة عدم ضبط اداري اتسم بها العثمانيون في ثغورهم .

أفراسياب

عجز حاكم البصرة التركي درويش علي باشا عن تسديد ارزاق جنده عام ١٠٠٥هـ - ١٥٩٦ للميلاد واتفق مع كاتبه افراسياب الديري السلجوقي على بيعه حكم المدينة بثمانية اكياس من الذهب على ان يخطب للسلطان العثماني في المنابر . فوافق افراسياب وتولى متسلمية البصرة .

ويقول مؤلف زاد المسافر « وكما ان الحامية كانت تركية وسكان البلد من العرب الذين لا يتحملون الاستعباد كان هؤلاء السكان في نزاع وكان النزاع كثيراً ما يؤدي الى الاصطدام مع الترك فيخف اذ ذاك عرب البادية لاسعاف السكان فيحاصرون الباشا في الحصن ومل الباشا واسمه « ايوب »[3] من الغزوات والتأديب فعزم على بيع حكومته الى احد اغنياء المدينة باربعين الف قرش وتمت الصفقة وجهز ذلك الغني المشتري اجناداً لتهدئة الناس وسمي هذا الرجل العظيم افراسياب باشا »[3]

ويقول لونكرك عن افراسياب : « فقد قيل - نقلاً عن زاد المسافر - ان اباه كان من دم سلجوقي قديم وان امه كانت امرأة عربية من الدير وكانت قدرته على جمع القوة تدل على مؤازرة القبائل له »[4]

والمهم ان افراسياب قد استطاع الحصول على لقب الباشوية من الباب العالي وان يظل على ارتباط اسمي بالاستانة وان يوطد دعائم الحكم والنظام خارج البصرة وضواحيها حتى شمل ذلك قبان والدورق . واستنجد به والي الحويزة منصور بن مطلب للعمل ضد الشاه . ولكن هذه المرحلة التي تميزت بالاستقرار لم تستمر طويلاً فقد تزايدت مشاكل العشائر المجاورة وان ظل افراسياب صامداً بوجهها وبعيداً عن منازعات البرتغاليين والهولنديين والانكليز في موانىء الخليج العربي الاخرى . وقد سبب وجود البرتغاليين في بندر عباس علاقة ضعيفة لهم افراسياب ازدادت تدريجياً وقويت تجارياً وسياسياً فاصدر الشاه في ١٦٢٤ اوامره الى خان شيراز (امام قلي خان) بمعالجة هذا الازعاج الذي اضعف حركة ميناء بندر عباس التجارية بشكل واضح .

وفي تلك السنة (١٦٢٤) التي ضعفت فيها حالة افراسياب الصحية تولى ولده علي باشا مهمة الدفاع عن البصرة بعد ان ادرك هو ووالده ان مطالب حاكم شيراز (امام قلي) له لا تحتمل الا الحرب . فقد طلب اليه هذا باسم الشاه عباس ان يتخلى عن تبعيته لتركيا العثمانية وان يتقبل التابعية الايرانية (وان يذكر اسمه في الصلاة ويتخذ الازياء الفارسية في الملبس ويكون في مقابل ذلك والياً وراثياً لا يقدم شيئاً من الجراية)[5]

وكان من الطبيعي ان يرفض افراسياب ذلك بدعم من البرتغاليين (حلفائه الذين يتاجر معهم) فتقدم جيش امام قلي من شيراز عن طريق تشتر فتصدت له البواخر البرتغالية في ميناء قبان (التي تتبع البصرة)

فصيته .

في خلال ذلك توفي افراسياب وخلفه ولده علي باشا وكان افراسياب قد حكم بين عامي ١٦١٢ ـ ١٦٢٤ ولكن ابنه علي كان يشاركه امر الحكم كما قلنا فطلب مساعدة استانبول معلناً ولاءه لها رغم امله الضعيف في ذلك . واسباب عدم تعويل علي باشا على نجدة العاصمة العثمانية يعود الى :

١ ـ ضعف سيطرة الولاة العثمانيين على بغداد اساساً .
٢ ـ بعد المسافة بين البصرة والعاصمة المركزية .
٣ ـ روح الاستقلال التي طبعت حكم اسرة افراسياب .
٤ ـ قيام الايرانيين بقطع طريق دجلة والفرات الامر الذي يكبد القوة المساندة من جهة الشمال ـ لو قدمت ـ الكثير من الجهد والانفس .

والظاهر ان امام قلي قد تحرك ليس نحو البصرة فقط بل دفع امامه قوة امير الحويزة التي انسحبت الى البصرة لتمنى جيش علي باشا على الصمود .

ويصف لونكرك ما حصل بعد ذلك منذ آذار ١٦٢٥ حيث يقول :

« كانت البصرة تنتظر هجوم الخان وهي عالمة بزحفه من الحويزة وكانت قوة علي باشا صغيرة حديثة فاعار البرتغاليون الباشا خمس سفن مسلحة بعد أن دفع لهم ما ارادوا ثم اعلن التجنيد العام في المدينة وكانت قد تعالت اصوات الوطنية فيها ، وجند اشراف البلد القوات المتطوعة فمشت الى معسكر الباشا وفي اعدادها الصابئة المسالمون ايضاً . وقسمت القوة البحرية فرافقت ثلاث سفن منها علي باشا الى القرنة حيث كان من المتوقع أن يحاول الايرانيون العبور وانحدرت اثنتان الى الجنوب لوقف اي تقدم قد يحدث من تلك الجهة »[٥] وهكذا استمد علي باشا بن افراسياب وقواته النظامية والمتطوعون الوطنيون من العشائر واهل المدينة لمقاومة الهجوم الايراني لكن القوة الايرانية انسحبت فجأة لسبب لم يعرف مباشرة وإن كانت الدلائل تشير الى ان اضطرابات حدثت في شيراز اضافة الى عدم مساندة امير الدولة (المشعشعية) (منصور) لامام قلي في عدوانه[٦] وقد عد البصريون انسحاب قوات قلي خان انتصاراً لهم ولصمودهم وقد عزز مكانة علي باشا وصول فرمان السلطان والخلعة والسيف في مايس ١٦٢٥ وبذلك استطاع هذا الحاكم العراقي المولد والنشأة ان يدير حكم ولايته بشكل ناجح وان يخضع القبائل المجاورة في منطقة الجزاير (الاهوار) ويصف الشيخ فتح الله الكعبي ايام حكم علي باشا التي استمرت ٤٥ عاماً بقوله « كانت شبيهة بايام هارون الرشيد في الرفاهية وطلب العلم والاداب والشعر وامن السبيل فهابته الملوك وانقادت له . وفتحت في ايامه الجزاير بعد ان عجز عنها عسكر السلطان وفتح كوت معمر من يدي حاكم بغداد » .

وقد ظل علي باشا بعد ذلك يحكم البصرة دون ان يتحرش به الشاه الصفوي وهو يحتل بغداد ، وعند عودة العثمانيين بدأ تحرشهم بحسين باشا الذي تولى الحكم بعد وفاة والده علي باشا عام ١٦٥٠ وسبّب هروب اخويه احمد وفتحي للسلطان مشكلات عديدة له فقد استطاعا اقناع والي بغداد مرتضى باشا سنة ١٦٥٣ بالهجوم على البصرة فهرب حسين باشا منها ملتجأ الى عربستان ولكن مرتضى لم يتبع سياسة حكيمة في البصرة اثر استيلاءه عليها فاعدم عدداً من الاشراف وشقيقي حسين (احمد وفتحي) مما سبب ثورة اهلها مع عشائر الاهوار والقرنة فانسحب مرتضى منها الى بغداد فعاد حسين باشا الى حكمها ليستولي على القطيف ويهاجم الاحساء ، وهنا بدأ هجوم العثمانيين الجديد على البصرة بقيادة ابراهيم الطويل (والي بغداد) في تشرين الثاني ١٦٦٥ فتقدم حسين الى القرنة ليدافع عن حاضرته لكن الجيش العثماني دخل البصرة من جانب آخر . ويصف لونكرك ما حدث بعد ذلك بقوله « في غياب حسين عن البصرة اضاعت له الفتن عاصمته بصورة وقتية فقد وجد ابراهيم باشا الوسائل لتوهين اخلاص البصريين الاقوياء وولائهم وحدث في اواخر حصار القرنة ان اضطر حسين من قلة الارزاق لاغتصاب سفن مشحونة بالمؤن من شط العرب ولم يعد الى اصحابها الا قشور سفن مهشمة فارغة فسارع هؤلاء بدافع الغيظ للانضمام الى الناقمين واجتمعوا فبعثوا بكتاب الى الباشا الطويل في خطوطه الحربية في القرنة يخبرونه بان البصرة اصبحت في فوضوية من الحكم ومعرضة للاضطراب ورجوه ان يرسل حاكماً عنه لينقذ الميناء من سيدهم فارسل سولاق حسين مندوباً عنه »[٨] وكان من الطبيعي أن يسعد سكان البصرة بوصول المتسلم العثماني لكنهم كانوا يدركون ابعاد اللعبة فكون الشيوخ والتجار « سلطة موحدة وفضلوا ان يحتفظوا هم بالحكم على ان يسلموا المدينة الى غريب لا سند له »[٩] فعرض محمد بن بوداق معتمد حسين باشا السابق أن يعيد المدينة الى سيطرته فوافق وهنا بدأ انصار ابن بوداق بمهاجمة مراكز الحكومة البصرية الموقتة فحاربه رجالها حتى قضوا عليه وطاف البصريون في شوارع المدينة فرحين بانتصارهم على حاكمها الذي اتعبهم كثيراً (حسين باشا) وعلى القوات العثمانية لكنهم نسوا حماية ابواب المدينة فدخلتها قوات حسين باشا مرة اخرى وقبضت على بعض الاشراف واعدمتهم فيما هرب الباقون وبذلك سقطت الحكومة البصرية المستقلة فيما استمر النزاع خارجها بين قوات حسين باشا والقوات العثمانية وانتهى الامر بالتفاوض بينهما و اتفاق على ان يتنازل حسين باشا عن الحكم الى ابنه افراسياب وان يعتذر للسلطان ويمضي الى مكة ، فوافق حسين على ذلك لكنها كانت موافقة إسمية لتطمين القوات القادمة فقد ارسل بعد ذلك كتب استرحام واكياس نقود الى السلطان بيد وزيره يحيى اغا وفي الاستانة قابل يحيى وفداً بصرياً جاء الى السلطان لرفض حكم حسين او اسرته فقرر السلطان تعيين يحيى بديلاً عن اي فرد من اسرة افراسياب التي بدأ الهجوم عليها وعلى البصرة من جديد في تشرين الثاني ١٦٦٧ .

وعانت البصرة في هذا العام كثيراً من احتراب المتحاربين وتركها حسين باشا ملتجأ الى قلعته في القرنة بعد أن خرب الكثير من معالمها وضاع مجد البصريين بقيام حكم آمن مستقل عن النفوذين العثماني والايراني نتيجة عدم [illegible] حاكم مثل حسين باشا لم يتبع مسيرة والده علي ولا جده افراسياب فيما نتجت الاهتمام بالبصرة وعمارها وتقدمها الحضاري دون شن حروب استعمارية على مايجاوره من امارات لا طاقة له على توحيدها او اخضاعها الى حكمه وهو مجرد حاكم لامارة صغيرة ، وقد تكررت تجربة حسين باشا على يد الحاكم الجديد الذي طرد الاتراك منها واعتصم جيشه المحلي بالقرنة دون نجاح فعاد رجاله الى البصرة لينتقموا من سكانها يتبعهم الجيش السلطاني بقيادة مصطفى باشا الذي حاصر المدينة ثم دخلها ليفر منها يحيى الى الهند سنة ١٦٧٠ .

حكومة ١٦٩٠

بعد استقرار غير كامل على يد الولاة العثمانيين وفي عام ١٦٩٠ (١١٠٢هـ) تفشى الطاعون في المدينة « واختلطت شوارعها المكتظة فقد كان الذي يموتون بمقدار خمسمائة في اليوم وتكدست الجثث في الازقة وبقيت غير مدفونة وعانت الويلات من وطأته جميع الطبقات غنيها وفقيرها حتى الحامية الاجنبية فيها فاغتنمت القبائل في الخارج فجمعت قبائل المنتفك والجزائر ثلاثة آلاف خيال تحدت بهم الحكومة واشرفت على المدينة فلم يكن في وسع احمد باشا الا جمع خمسمائة مقاتل قابل بهم القبائل الغازية وقاومها في حرب طويلة في موقعة الدير فافنوا - على ما يقول الكسندر هاملتن - الا القليل منهم وكان الباشا نفسه بين الموتى ولم يبق بين اسواق البصرة والعرب الفائزين شيء »[39] وهكذا خاضت البصرة حرب مهلكة اخرى وحصاراً آخر اوشكا على الانتهاء باختيار السكان - مضطرين على ما يبدو - حسن / نائب الوالي والياً جمع من كان قادراً على القتال ليقاوم هجوم العشائر من جديد ونظم مقاومة عنيفة انتهت بانتصاره وقتله هو ايضاً ليختار الاهالي رجلاً يدعى حسين جمال والياً عليها وظلت البصرة محور نزاع السلطة العثمانية مع القبائل المجاورة حتى ان امراء الحويزة طمعوا فيها وحكموها عدة اشهر حتى انتهى الامر بسيطرة والي بغداد مصطفى باشا عليها عام ١٧٠١ حيث « تجمعت الجيوش من كل الولايات واستخلصوا البصرة من الشيخ مانع »[40] .

تصدي البصرة لصادق وكريم خان الزند

من حوادث سنة ١٧٧٥ قيام صادق خان شقيق كريم خان الزندي الوصي على عرش ايران في تلك الايام بحصار البصرة بغية الاستيلاء عليها وكان حاكمها في تلك الايام المتسلم سليمان اغا قد طالب والي بغداد عمر باشا بالمساعدة وهو يحث الاهلين (على الدفاع وراعى لوازم الحصار ، اما الايرانيون فقد احاطوا بها من كل صوب وشرعوا بالحرب فطالت المحاصرة) كما يقول عباس العزاوي[41] الذي يضيف قائلاً : (فالوزير - يقصد الوالي - لم يستطع ارسال قسم « من جيشه » الى جهة الا انه كان يبعث الامل ويحرض على الدوام في القتال والمحاصرة) واتصل بالعاصمة بغداد يطلب النجدة دون استجابة وهذا اضطر المتسلم سليمان اغا دعوة العشائر لفك طوق الحصار فحضر « ثامر بن سعدون وثويني بن عبد الله اول المحاصرة فلما ضاق الخناق نجوا على النواجي اذ ملا من المصابرة »[42] كما يقول عثمان بن سند في (مطالع السعود) ويشير المحققان في الهامش (٨٢) الى ان ثامر بن سعدون « هو الذي تصدى للقوات الفارسية في موقعتي الفضيلية وابي حلانة واجبرهم على الانسحاب من البصرة بما الحقه بهم من خسائر كبيرة » فيما بعد ويشير (ابن سند) الى ان جملة من زعماء العشائر الذين ساندوا متسلم البصرة الشيخ سليمان (الغنام) والظاهر أن والي بغداد عمر باشا كان يشعر بقرب انتهاء ولايته فلم يتحرك لنصرة البصرة حتى قدم بغداد مصطفى باشا الذي تسلم الولاية دون مقاومة برغم ان عمر باشا لم يخرج منها بل بقي فيها عند المنطقة (المطيفية) فهجمت عليه قوة من انصار الوالي الجديد فحاربها ثم هرب سالكاً طريق الموصل وعند الكاظمية عثر به فرسه فمات فقطع احد الجنود رأسه ويقول عباس العزاوي نقلاً عن تقرير كتبه الحاج علي باشا والي طربزون وسماه (تاريخ جديد) او (يادكار تاريخ) في ٣ شوال سنة ١١٩٠ هـ (١٧٧٦ م) : « ان الدولة نشأت فيها احوال ناجمة عن قلة التدبير من اهمها ان بغداد كانت في حالة توتر بينها وبين ايران وأن اعتداء كريم خان الزندي كان صريحاً الا انه قيل أن ذلك متولد مما اتخذه عمر باشا والي بغداد من اوضاع ضد رعايا ايران من يد (مبغضوا) الوزير وبينوا انه لو عزل لما بقي ما يدعو للخلاف »[43] ويفي علي باشا - كاتب التقرير - ان يكون سبب هجوم كريم خان على البصرة غضبه من عمر باشا ويرى ان « كريم خان مدّ يد البغي ولم يكن مضطراً لما قام به »[44] .

هنا ارسلت الدولة العثمانية ثلاثة وزراء لحرب ايران هم مصطفى باشا واوزون عبد الله ومصطفى خليل باشا جراغي ، فاهتم هؤلاء بقتل عمر باشا واصبح مصطفى باشا والياً وارجع عسكر اوزون عبد الله باشا وعبدي باشا الموصلي من منطقة البصرة بدعوى انه تصالح مع ايران .

ويكشف عثمان بن سند عن تآمر مصطفى باشا مع كريم خان على دخول الاخير البصرة بخطة رسمها الاول بحيث سحب الجيوش العثمانية عنها وترك البصرة وحيدة باهلها وعشائرها ومتسلمها لتواجه قوات صادق خان ويقول ابن سند ما نصه ان الوالي « كتب الى متسلم البصرة سليمان أن المدد بعيد لكم من جهة السلطان فاما أن تصطلح مع العجم واما ان تسلم البصرة لهم لاجرم . وكتب الى الدولة بان صلحنا مع العجم انتظم وأن يدهم عن البصرة كفت »[45] ويقول لونكرك ان هدف مصطفى باشا من قتل عمر باشا كان الاستيلاء على ثروته وقد فعل وانه اردف ذلك « بالتضييق على اغنياء البلد »[46] بغية نهب ثرواتهم « وانه كتب الى استانبول بان البصرة اصبحت تابعة له وقد لاذ الايرانيون بالفرار منها »[47] في وقت كان الايرانيون فيه قد دخلوا البصرة وقد اعتمد مصطفى الاسبناخجي في ذلك - في زعمنا - على بعد المسافة وقلة مصادر معرفة المركز بما يدور في الاطراف الا انه عند انكشاف الامر عين السلطان عبدي باشا الذي دخل بغداد وفرمان عزل مصطفى بيده فهرب هذا الى الموصل حيث اعدمه القبوجي جزاء خيانته وتخاذله ، ثم اعلن السلطان بعد ذلك ان عبد الله باشا قد اصبح والياً على بغداد بدلاً من عبدي الذي حكمها اسبوعاً واحداً ، الا ان عبد الله لم ينفذ هذه المهمة لضعفه ولهوه فاختار السلطان سليم سري وارسله على بغداد وحين وصلها بدأ بمفاوضة ايران بتآمر عجم محمد ثم جرى تعيين سليم قائمقاماً في وقت انقسم فيه مماليك بغداد بين انفسهم على زعامة اسماعيل اغا او عجم محمد وظل النزاع مستمراً خمسة اشهر حتى عين حسن باشا والياً ودخل بغداد في الرابع من مايس ١٧٧٨ ليبدأ محاولة تصفية الفتن الداخلية .

اما البصرة فقد قاومت الحصار الذي فرض عليها من قبل قوات صادق خان في وقت كانت فيه قوات كسب تناور الطرفين حتى عزت البصرة منتصف شتاء ١٧٧٥ . وكان المتسلم (سليمان اغا) والقبطان ([48] القوات البريطانية البحرية) والوكيل (القنصل البريطاني) يجتمعون يومياً مع اشراف البلد لترتيب مهمات الدفاع وكان سليمان رجلاً شجاعاً واداريا جيداً استطاع ترميم السور ونصب المدافع وتدريب الجند حتى كان اليوم السادس عشر من اذار حيث وصل الايرانيون الى مصب نهر السويب طالبين دفع الدية (او الجزية هنا) فلم يرد عليهم احد . وعند

وصول اسطولهم وضع سليمان عدداً من الزوارق الكبيرة في صدر شهر العشار وربط بعضها بالسلاسل لمنع الاسطول من النفاذ فارتاح المدافعون لهذا العمل والتحق الشيخ ثامر السعدون بالبصرة وعهد للشيخ عبد الله بحماية الزبير .

وفي السادس عشر من نيسان بدأ الايرانيون الهجوم ومحاولة تسلق السور فيما « ابلى البصريون وخاصة المنتفكيين اتباع ثامر بلاء حسنا في الذب عن المدينة خاصة وكانوا يسمعون هلاهل نسائهم وصرخاتهن داعيات لهم بالتشجيع وضبط القبطان بكل قواه صدر النهر فخاب الهجوم وما طلع النهار حتى شوهدت رؤوس الايرانيين معلقة على ابواب السور »[١٨]

ورغم ان هذا الهجوم قد دفع الانكليز للتخلي عن المساعدة ومفاوضة صادق خان سراً ثم انسحاب اسطولهم فان امام عمان تعهد لمتسلم البصرة بالتجهيزات (ووعد بدفع الجراية له وامسكت سفنه الاجنبية عنان الشط وضبطته طول صيف ١٧٧٥ »[١٩] وهكذا اخذت المؤن والذخائر تصل البصرة عبر الشط من عمان ومن بني خالد والمنتفك عبر الطريق البري مما مكن البصرة من الصمود ولكن الضيق بالداخل اشتد وباع الاهالي كل ما يملكون للحصول على الطعام . وفي منتصف نيسان ١٧٧٦ نفدت المواد والذخائر داخل المدينة وهلك الكثيرون من الجياع ولم تتحرك استانبول للمساعدة الجدية ففاوض سليمان باشا صادق خان بعد حصار دام ١٤ شهراً فدخل صادق المدينة في آخر اربعاء من صفر ١١٩٠ (١٥ نيسان ١٧٧٦ م) وقد القى القبض على المتسلم والدفتري وصاحب الكمرك وسائر الوجوه والاعيان واستولى على اموالهم الظاهرة والخفية وارسلهم اسرى الى كريم خان في شيراز ثم انه اراد أن يأخذ الاموال الاخرى من البصرة فتعدى وتجاوز بظلم وعسف وسلب الاهلين من اعيان واداني فلم يذر احداً الا غرمه وانتهبه وصار اهل الثراء لا يستطيعون الحصول على قوت يومهم وانما كانوا يمدون يد الاستجداء »[٢٠] ثم عين علي محمد خان بديلاً عنه وغادر البصرة التي عانى سكانها انذاك « الطاعون المروع واهوال المجاعة واحتلال الجند الاجنبي للبيوت »[٢١] وفي وقت حافظت فيه الزبير على جو من الحرية القلقة لبضعة اشهر .

كان من نتائج الحصار ودخول قوات صادق المدينة ازدياد حوادث الخطف والسرقات وفقدان الامن فشن علي محمد خان (على البلد اجمع غارة هوجاء خلواً من الرحمة وحدث خلال المذبحة السهلة التي جرت في سكان البلد العزل عن الدفاع أن قتل جماعة من الشيخ المنتفكي »[٢٢] وهو امر دفع ثامر السعدون وصحبه للانتقام .

وفي الوقت الذي اندفع فيه محمد علي خان عدة اميال داخل اراضي المنتفك بستة آلاف رجل وثمانية عشر زورقاً تحمل المدافع اعتصم ثامر في منطقة الفضيلية على مبعدة من المرجة التي كان الايرانيون يتقدمون اليها وهم يعقبون قبائل المنتفك التي تظاهرت بالانسحاب . وما ان وقع الايرانيون في الفخ حتى شنت قوات ثامر وثويني هجومها عليهم فهلك منهم المئات سباحة وقتلت اعداداً اخرى بينها القائد علي محمد ذاته ولم ينج منهم سوى ثلاثة انفار على ما يذكر لونكرك في وقت يذكر فيه عثمان بن سند (ص ٨٨ وما تلاها) ان الهجوم الاخير قتل فيه علي محمد خان في ابي حلانة . والمهم هنا ان صادقاً عاد الى البصرة محاولا المفاوضة مع المنتفك للاذعان له دون جدوى واصبح احتلاله للبصرة مكلفاً بعد اربع سنوات من استمراره فغادر البصرة مع جيشه في منتصف اذار ١٧٧٩ بعد ان سلم امورها الى اعيان البلدة وقد وعدهم بفك اسر سليمان اغا الذي عاد ودخل البصرة بعد وفاة ثامر باسناد من صديقه ثويني العبد الله ولكنه اخذ يتطلع الى حكم بغداد وقد حكمها تحت اسم سليمان باشا الكبير .

انتفاضة ثويني في البصرة

في اوائل عام ١٧٨٦ ثار سليمان الشاوي قرب بغداد املاً في الحصول على منصب الوالي وطرد الاتراك منها ووقفت معه عشائر دون اخرى وفقد النظام في بغداد مدة من الوقت وعجز الوالي عن ضبطها حتى ضعف سليمان وهرب الى شيخ المنتفك ثويني .

وكان ثويني قد ساعد قبل هذا متسلم البصرة عام ١٧٨٤ و (اختبر في تلك الحملة مقدار ضعف الاتراك ومقدار اخلاص اتباعه له)[٢٣] فقرر الثورة والاستيلاء على البصرة وسانده في ذلك سليمان الشاوي بمشورته وحمد ال حمود شيخ الخزاعل فتقدمت قوات ثويني الى الزبير وقبضت على متسلمها ابراهيم بك مع حاشيته ثم (ارسل ثويني قسماً من خيالة المنتفك فدخلت البصرة واستولت على السراي ثم فرقت الحامية وشتت شملها ومع ذلك كله بقي البلد سالماً من الاضطراب الى ان دخل ثويني مع خمسة آلاف من رجاله في اليوم الثالث فغابت حكومة البصرة حكومة عربية)[٢٤] وحصل ثويني من سكان البصرة على تواقيعهم في عريضة مرفوعة للسلطان يطلبون فيها اعترافه بحاكمية ثويني عليهم ثم خرج ثويني من البصرة (بعد أن ارسل عريضته الى استانبول) وخيم خارجها منتظراً النتائج وقد وضع شقيقه نائباً عنه فيها وعند التقاء جيشي الوالي وثويني كان النصر لجيش الوالي فهرب ثويني الى البادية وظل خارج سيطرة العثمانيين حتى عام ١٧٩٢ حيث عفي عنه فعاد الى بغداد لتستخدمه الدولة بعد ذلك في حربها ضد الوهابيين .

ويعد

فقد خاضت البصرة عبر تاريخها الطويل حروباً متعددة ونشأت فيها امارات مختلفة استقلت تارة وعقدت تحالفات مع ما جاورها او بعد عنها ولكنها كانت دوماً اسيرة وضعها الجيو - سياسي بوصفها " مفتاح الخليج العربي والبر العراقي ومكان اصطدام القوى الكبرى (آنذاك) ببعضها اضافة الى كونها مثار اعجاب الثوار على العثمانيين والفرس ومكان لجوئهم اليها وحريتهم فيها .

ولا شك ان وثائق عديدة ما تزال بعيدة عن متناول اليد - لسبب او لاخر - ستكشف بصورة اكثر جلاء عن مدى مقاومة البصريين للغزو وللحصار وللاحتلال وعن مدى اسنادهم للامارات والدويلات العربية والعشائر المجاورة كالدولة المشعشعية وامارة الحويزة وقبان وامارات الجزائر ولو استطاع رجال كل مرحلة من المراحل التاريخية في هذه المنطقة الحيوية من ارض العراق والخليج ان يجتمعوا ويوحدوا قواهم ضد الغزو الفارسي او الاضطهاد العثماني لفعلوا الكثير لكن مشكلة التاريخ انه لا يعرف « لو » وان الاحداث مرهونة بظروفها وما قدمناه من اوراق لا يدل على مجرد غزاة اجانب وحكام لا يهتمون باصالة وحرية هذه المدينة

العربية الاسلامية بل يكشف عن صفحات نيرة من الصمود الشعبي البصري ايضاً في ظروف صعبة بالغة التعقيد والولاءات لم تتح للبطولة البصرية ان تسود بشكل واضح الا عند تيسر الظروف التي ما كانت كذلك دوماً بسبب قوة الاعداء وضغطهم المتواصل على هذه المدينة الشامخة بحضارتها وتاريخها العريق .

الهوامش

١ ـ د . عبد العزيز سليمان نوار ـ داود باشا والي بغداد ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة ـ ١٩٦٨ ـ ص ١٠ .
٢ ـ الحسني ـ م . س ـ ص ١٧٨ .
٣ ـ يسميه الحسني (علي باشا) ويميل جعفر خياط في ص ٩٩ من ترجمته لكتاب لونكريك الى تسميته بـ (ايوب) فيما يؤكد لونكريك أن اسمه (علي باشا) ! .
٤ ـ فتح الله الكعبي ـ زاد المسافر ـ بغداد ـ مطبعة الفرات ـ ١٩٢٤ ص ١٧ .
٥ ـ لونكريك ـ م . س . ص ٩٩ .
٦ ـ المصدر السابق ص ١٠٢ .
٧ ـ المصدر السابق ص ١٠٣ .
٨ ـ يتهم لونكريك منصور المشعشعي امير الحويزة بـ (الدسائس) على الايرانيين والواقع ان الرجل لم يكن يريد الحرب ضد البصرة واهلها ، الامر الذي دفع بحاكم شيراز الى غزو الحويزة وخلع منصور وتعيين محمد بن مبارك بديلاً عنه فلجأ منصور الى علي باشا بن افراسياب الذي رحب به ومنحه ارضاً مجاورة لحدود ملكه القديم ـ راجع الصفحات ٢٠ ـ ٢٨ من كتاب (امارة كعب العربية في القرن الثامن عشر) تأليف : د . علاء موسى كاظم نورس ـ د . عماد عبد السلام رؤوف ـ اصدار دار الرشيد ـ بغداد ١٩٨٢ .
٩ ـ لونكريك ـ ص ١١٢ .
١٠ ـ لونكريك ـ ص ١١٢ .
١١ ـ عباس العزاوي ـ تاريخ العراق بين احتلالين ـ الجزء الخامس ـ شركة التجارة والطباعة ـ بغداد ـ ١٩٥٣ ـ ص ١٤٤ .
١٢ ـ عباس العزاوي ـ المصدر السابق ـ الجزء السادس ـ ص ٥١ .
١٣ ـ عثمان بن سند الوائلي ـ مطالع السعود ـ تحقيق د . عماد عبد السلام رؤوف وسهيلة عبد المجيد القيسي ـ اصدار وزارة الثقافة والاعلام ـ الدار الوطنية للنشر ـ مطبعة دار الحكمة ـ الموصل ـ ١٩٩١ ـ ص ٨٢ .
١٤ ـ العزاوي ـ المصدر السابق ـ جـ ٦ ـ ص ٥٦ .
١٥ ـ العزاوي ـ المصدر السابق ـ جـ ٦ ـ ص ٥٧ .
١٦ ـ ابن سند ـ ص ٨٤ .
١٧ ـ لونكريك ـ ص ١٧٩ .
١٨ ـ لونكريك ـ ص ١٧٩ .
١٩ ـ لونكريك ـ ص ١٨٧ .
٢٠ ـ لونكريك ـ ص ١٨٨ .
٢١ ـ العزاوي ـ المصدر السابق ـ جـ ٦ ـ ص ٦٠ .
٢٢ ـ لونكريك ـ ص ١٨٩ .
٢٣ ـ العزاوي ـ المصدر السابق ـ ص ٩٨ .
٢٤ ـ ابن سند ـ ص ١٧٠ .

دراسة

(حصار بغداد في العصر العباسي)

(صمودها وانتصارها)

بقلم : د . حسين امين

اتحاد المؤرخين العرب ـ بغداد

واجهت بغداد مرات عديدة الحصار المضروب عليها بتحد كبير وصبر عظيم ، وهي في كل مرة تخرج من تلك البلاءمنتصرة شامخة عالية الرأس موفورة الكرامة ، وهي في كل مرة وبفضل رجالها الميامين الشجعان تضرب مثلاً عالياً للصمود والصبر والثبات في مواجهة الاعداء والطامعين .

وفي هذا البحث نقدم نماذج من المواقف الوطنية لخلفاء بني العباس ولاهل بغداد الذين كانوا يقفون في كل مرة متحدين الطغاة والمعتدين ، يدافعون عن مدينتهم الخالدة بغداد ويدفعون عنها كل شر وأذى ، ومن الامثلة الرائعة لمواقف البغداديين ، دفاعهم باستماتة عن مدينتهم بغداد عند فرار الخليفة العباسي المستعين بالله من سوء تصرفات الاتراك الذين استحوذوا على امور الخلافة ، فاستقبله اهل بغداد ، ولما علم الخليفة ان الاتراك سوف يجهزون جيشاً يخرج من سامراء لاحتلال بغداد قرر بناء سور يحمي الجانبين الشرقي والغربي من بغداد ، فخرج اهل بغداد يشمروا عن ساعد الجد وباشروا ببناء السور ليلاً ونهاراً ، واستكمل السور في مدة قصيرة وضم في الجانب الشرقي لمحلات بغداد الثلاث ، الشمالية والرصافة والمخرم ، وضم سور الجانب الغربي المحلات المهمة التي تحيط بالمدينة المدورة ، ولما وصل الاتراك الى بغداد وجدوا امامهم سوراً حصيناً وان أهل بغداد يقفون مع الخليفة المستعين بكامل عدتهم القتالية دفاعاً عن مدينتهم وكرامتهم وحماية خليفتهم ، كما وقف العيارون موقفاً مشرفاً وقاتلوا المعتدين قتالاً عنيفاً ، ولما وجد الاتراك صلابة وصمود وشجاعة البغداديين عادوا الى سامراءبعد ان حاصروا الجانبين الشرقي والغربي من بغداد لاكثر من سنة ، فكان ذلك نصراً كبيراً لبغداد وابنائها في الصمود والصبر والتحدي .

ووقعت بغداد فريسة بايدي البويهيين من سنة ٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ ٩٤٦ ـ ١٠٥٥ م ثم احتل السلاجقة بغداد ٤٤٧ هـ ـ ١٠٥٥ م وصاروا يتدخلون في شؤون الخلافة ويعملون على حرمان الخلفاء العباسيين من إمتيازاتهم والانتقاص من سلطاتهم فاخذ الخلفاء العباسيون يخططون من اجل التخلص من النفوذ الاجنبي المتمثل بالوجود السلجوقي ويمكننا القول ان الكفاح من اجل استرداد هيبة الخلافة والعمل على التخلص من الحكم السلجوقي بدأ في عهد الخليفة العباسي المسترشد بالله ، ويبدو ان لاستمرار الاضطرابات وشدة التدخل السلجوقي في شؤون الخلافة العباسية كانت من العوامل الاساسية في أن تحفز الخليفة المسترشد وتبعث فيه روح الثورة ضد تلك الاوضاع والعمل على استرداد الحقوق المسلوبة من الخلافة ومن اهمها الاستقلال والسيادة ، ومن الامور التي شجعت الخليفة المسترشد على النهوض ضد السلاجقة ، الانقسامات التي ابتليت بها السلطنة السلجوقية والمنازعات المستمرة بين السلاطين والامراء السلاجقة .

والخليفة المسترشد امتاز بانه كان مرهف الحس مدركاً للظروف كما كان على جانب من الفطنة والشجاعة والذكاء ، اقول انه مرهف الحس لانه كما اعتقد أحس بالظلم والالام الشديدة التي يعانيها الشعب من الحكم المضطرب والقلق المستبد ، كما احس بانحراف السلاجقة عن مقاصدهم الحسنة إن كانت لهم تلك المقاصد حين فوض العباسيون امورهم الى السلاجقة ، ومن مأثور قول الخليفة المسترشد بالله قوله : فوضنا امورنا الى آل سلجوق ، فبغوا علينا ، فطال عليهم الامد ، فقست قلوبهم ، وكثيراً منهم فاسقون [1] ، ان هذا النص دليل قوي على تفهم عميق وادراك بالغ لما وصلت إليه الامور من التحكم الاستبدادي والظلم والفساد .

أخذ الخليفة المسترشد يستعد لطوارىء الحرب التي قد تحصل بينه والسلاجقة ، وبدأ ببناء السور ، سور بغداد الشرقية ، الذي يعد من الاعمال الجليلة للخليفة المسترشد وسنرى ان هذا السور سيحمي مدينة بغداد من الغارات والاعتداءات .

في سنة ٥٢٥هـ / ١١٣١ م توفي السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه[2] ، وبدأت المنازعات في صفوف السلاجقة للاستحواذ على السلطة والنفوذ ، وتمكن السلطان مسعود من ان يجعل السلطنة له مستقرة في العراق [3] ، ثم وقعت الحرب بين السلطان مسعود وعمه

السلطان سنجر ، وحاول عماد الدين زنكي وحليفه دبيس بن صدقة ، احتلال بغداد ، فوقف الخليفة موقفاً حازماً وصد تلك المحاولة بشدة واوقع هزيمة بجيش صدقة ، كما تفرقت جماعة عماد الدين زنكي الذي ولى منهزماً [٤] . وفي سنة ٥٢٧ هـ ، ١١٣٢ م هاجم الخليفة المسترشد بالله مدينة الموصل ليثأر من عماد الدين زنكي على ما فعل ببغداد وحاصروها ثلاثة اشهر ، ثم توجه بعدها الى بغداد [٥] . وهنا نلاحظ لاول مرة بعد مدة طويلة . خروج خليفة عباسي على رأس جيش خارج دار ملكه ليحارب مناوئيه . وان دل هذا انما يدل على استعادة الخلافة لبعض حيويتها ونشاطها .

وفي سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م حدثت جفوة بين السلطان مسعود السلجوقي والخليفة العباسي المسترشد بالله ، واشتدت تلك الجفوة بينهما الى درجة ان سار الخليفة على رأس جيش كبير لمحاربة مسعود ، وكان في جيش الخليفة الكثير من امراء السلاجقة الذين شجعوا الخليفة على القيام بحملة حربية ضد مسعود السلجوقي ، كما تسلم الخليفة الكثير من المكاتبات من اصحاب الاطراف ، يبذلون فيها الطاعة والمساندة في حربه للسلطان مسعود ، ولكن مسعود هذا تمكن بدهائه من مصالحة الكثير من اولئك الامراء الخارجين عليه كما نجح في ان يجعلهم من اعوانه ، ولم يبق مع الخليفة المسترشد بالله إلا عدد قليل من الجيش بلغت عدته خمسة آلاف مقاتل [٦] ، وتقابل الخليفة وجيشه مع جيش مسعود في دايمرج [٧] . ونلمس من تلك الوقعة ضعف جيش الخليفة ومظاهر الخيانة والغدر ، فقد انضمت ميسرة الخليفة الى جيش العدو وقاتلت الميمنة قتالاً ضعيفاً ولكن الخليفة أبلى في تلك المعركة البلاء العظيم وكانت النتيجة ان وقع الخليفة اسيراً بايدي الاعداء [٨] .

وامر مسعود السلجوقي بنصب خيمة للخليفة وان تدق له طبول النوبة . وان ينزلون في احترام ووقار ويرتبوا له جميع وسائل المطعم والمشرب [٩] . وفي السابع عشر من ذي القعدة سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م هجم على خيمة الخليفة المسترشد بالله ، جماعة فقتلوا الخليفة ومن معه وقد اتهم مسعود السلجوقي و الباطنية في اقتراف تلك الجريمة [١٠] ، وبويع لولده ابن جعفر المنصور الذي لقب (الراشد بالله) بالخلافة ، وهكذا سقط المسترشد بالله شهيداً من اجل سيادة الخلافة واستقلالها من التحكم الاعجمي ، وصار المسترشد بالله خير مثل إحتذى به الخلفاء الذين ساروا على نهجه في مقاومة السلاجقة واضعاف نفوذهم .

ومنذ ان تولى الراشد بالله الخلافة بعد استشهاد والده المسترشد جعل جُلّ همه الثأر لوالده ونصب العداء الى الذين فتكوا به وصار يعمل على تكوين حلف قوي لمواجهة السلطان مسعود الذي عظم نفوذه بعد مقتل المسترشد بالله ، ووقف الخليفة الراشد أمام اطماع السلطان مسعود وامتنع بشدة عن دفع مال طالب به السلطان مسعود من الخلافة ، فتعاهد الخليفة ضد السلطان مع الملك داوود وعماد الدين زنكي صاحب الموصل كما انضم اليهم اطراف كثيرون ، وامر الخليفة بقطع خطبة مسعود في العراق [١١] ، فاتجه مسعود السلجوقي نحو بغداد ، فحدث اضطراب في عاصمة الخلافة ، ولما وصل مسعود الى اطراف بغداد قام بحصارها ، فثار العيارون في المدينة واحدثوا فيها الفوضى وافسدوا الامر على الخليفة وتنظيماته ، واخذ بعض حلفاء الخليفة . بالتفرق مما اضطر الخليفة الى مغادرة بغداد بصحبة عماد الدين زنكي الى الموصل [١٢] .

بعد مسيرة الخليفة الراشد مع عماد الدين زنكي الى الموصل ومن هناك سار الى اذربيجان ثم الى مراغة فاجتمع فيها بالملك داوود والامير منكوبرس صاحب فارس وبعض الامراء الاخرين واتفقوا على حرب مسعود . واشتبك جيش الخليفة مع جيش مسعود في معركة كان النصر فيها للخليفة ، واتجه جيش مسعود الى اذربيجان بينما قصد الملك داوود همدان وكانت الهزيمة قد الحقت بجيش مسعود وداوود ، وهذا من اعجب الاتفاق كما يقول ابن الاثير [١٣] . وبقي الخليفة الراشد وحده في جماعة من العساكر العجم فاتجه الى اصفهان ، وفي الخامس والعشرين من رمضان سنة ٥٣٢ هـ / ١١٢٧ م ، وثب على الخليفة الراشد نفر الخراسانيين من الذين كانوا في خدمته . فقتلوه . ويعتقد ابن الجوزي ان الذين اغتالوا الراشد كانوا من الباطنية [١٤] .

ان مقتل الخليفة الراشد بالله كان له اثر كبير في نفوس المسلمين بعامة والعراقيين بخاصة ، وان استشهاده من اجل تثبيت دعائم الخلافة العباسية ، حفز النفوس وايقظها ، بل وألهب الحماس الوطني والديني في صدور الخلفاء والامراء والعامة ، وكان له الاثر الكبير في دعم الخلافة وتقويتها وفي اضعاف السلاجقة وانهيارهم .

وبايع المتنفذون خليفة هو محمد بن المستظهر ولقب (المقتفي لامر الله) [١٥] وفي الحقيقة ان المقتفي لامر الله لم يكن إلّا نموذجاً حياً للتفكير السليم في انتهاج سياسة حكيمة وفي اتخاذ الخطوات الناجحة والتدابير المحكمة للتخلص من حكم السلاجقة . وهو أي الخليفة وان نصبه السلاجقة خليفة إلّا انه صار يدبر الامور بحكمة ودراية للإيقاع بالسلاجقة وصار يرقب الحوادث كما يرقب المنازعات والخصومات التي استمرت بين امراء السلاجقة وادت الى اضعافهم واضمحلالهم . إضافة الى كل هذا انه كان يحمل فكرة سيئة عن حكم السلاجقة وتحكمهم بامور الخلافة منهم الذين جردوه من كل ما يملك من الخيول والممتلكات ، كي يكون تحت رحمتهم واسيراً عندهم [١٦] . وكان موقف الخليفة المقتفي حازماً امام مطلب السلطان مسعود بمقدار من المال ، فاعتذر الخليفة بعدم توفر المال عنده وبيّن له ان السلاجقة سيطروا على كل شيء ولم يبق للخليفة من مرفق يدر عليه المال ليقدمه إليه .

ونتيجة لاعمال السلاجقة التعسفية ، فقد ضج اهل بغداد من غلاء الاسعار وفقدان العدل وانعدام النظام وتولي الامور رجال عرفوا بعدم النزاهة والاخلاص ، ففي سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م بلغ الكر الشعير اربعين ديناراً والحنطة ثمانين ديناراً ، ولكن الشحنة نادى في الاسواق ان لا تباع الكارة الدقيق إلّا بدينار فادى هذا الاجراء الارتجالي الى غلق الدكاكين وانعدام الخبز عن الاسواق اربعة ايام واستمر شهراً حتى عادت الاسعار تتراخى [١٧] .

ان ذلك من علائم الانهيار والاستياء العام ، واخذ الخليفة يعمل بفكره السليم ويدبر للامور تدبيرها المحكم ، فاخذ في تقوية مركز الخلافة وعمل على تقوية الجيش الذي كان يرعاه ويستعرضه في كل مناسبة ، وأمر بحفر الخنادق ببغداد ، كما نادى بلبس العوام السلاح ، أي يستعدوا للطوارىء ويكونوا قادرين على دفع العدوان عن انفسهم واموالهم [١٨] ، كما امر باصلاح السور ، ذلك ان السور حدثت به ثلم وخرج العوام بالالات فعمروه وحفروا خندقاً [١٩] . هذا جانب من الاستعدادات وصورة من تجاوب العامة في بغداد وتعاونهم مع خليفتهم الذي لمسوا فيه الاخلاص والهمة من اجل

انقاذ خلافتهم من حكم السيطرة السلجوقية.

ونتيجة للسياسة الحكيمة التي اتبعها الخليفة المقتفي لامر الله صار يستعيد الامتيازات التي فقدها الخلفاء العباسيون بحكم إنصياعهم وضعفهم، مستغلاً ضعف السلطان مسعود في اواخر أيام حكمه. وفي سنة ٥٤٧ هـ/ ١١٥٢م توفي السلطان مسعود وبذلك فقدت الدولة السلجوقية ركناً كبيراً واخذت تلك الدولة تتداعى وتمضي في خضم من المنازعات والفتن وقوي جانب الخليفة واصبح هو السيد المطاع في دولته وله الكلمة النافذة، وزادت هيبته وعلت كلمته. ومما قوى جانب الخلافة ان الخليفة اختار شخصية مهمة وقوية هي شخصية عون الدين بن هبيرة الذي وزر للخليفة المقتفي لامر الله سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م وقام بواجباته احسن قيام، وكانت له الخدمات الجليلة التي اضفت على الخلافة العباسية الخير والقوة وبقي في منصبه حتى توفي سنة ٥٦٠ هـ/ ١١٦٥ م.

واغتنم الخليفة المقتفي فرصة وفاة السلطان مسعود وضعف الدولة السلجوقية وتفرق كلمتهم في العالم الاسلامي، فاقتحم الخليفة دار الشحنة ببغداد (مسعود بن بلال) الذي هرب الى تكريت. كما قبض الخليفة على الكثير من اصحاب السلطان، ونجح الخليفة بالسيطرة على تكريت التي اتخذها مسعود بن بلال شحنة بغداد المنهزم قاعدة لتحركاته ضد الخلافة كما نجح الخليفة بانزال الهزيمة بجيش سلجوقي بقيادة سلاركرد الذي وجهه السلطان الجديد ملكشاه، فقاد الجيش العباسي الوزير ابن هبيرة الذي هزم جيش السلطان.

اغتاظ السلطان الجديد من تعاظم نفوذ الخليفة العباسي والذي اصبح خطراً على السلطنة السلجوقية، فتوجه السلطان محمد على رأس جيش كبير من ذي الحجة سنة ٥٥١ هـ/ ١١٥٦ م وحاصر بغداد، وصمد اهل بغداد الصمود العظيم ووقفوا موقفاً مشرفاً يدافعون عن مدينتهم الخالدة بغداد. واضطر السلطان محمد الى الانسحاب عندما علم ان اخاه ملكشاه وانصاره دخلوا همدان واستولوا عليها. وحاول عدة محاولات للدخول الى بغداد وخرق تحصيناتها ولكن فشل فشلاً ذريعاً في بلوغ مآربه، واخذ بالانسحاب يجر اذيال الخيبة والفشل وكان النصر المؤزر لبغداد بفضل استماتة اهلها وصبرهم العظيم في ذلك الحصار اللئيم.

ويصف ابن الاثير وصول جيش السلاجقة الى جانب الكرخ فنزل السلطان محمد شاه عند الرحلة (محلة من محلات بغداد في الجانب الغربي قريباً من محلة الجعيفر الحالية)، ولما أحس الخليفة بالخطر المحدق وزع الخليفة السلاح على الجند والعامة ونصب المنجنيقات والعرادات فلما كان في العشرين من المحرم سنة ٥٥٢ هـ/ ١١٥٧ م ركب عسكر محمد شاه وزين الدين علي ووقفوا عند الثلاثة (وهي محلة الشواكة الحالية) ورموا بالنشاب الى ناحية قصر التاج الذي يقيم فيه الخليفة، وهنا تظهر همة وشجاعة البغداديين فقام عدد كبير منهم وعبروا نهر دجلة واخذوا في قتال جيش السلاجقة ورموهم بالنفط وغيره، ودارت بين البغداديين والسلاجقة عدة حروب وفي الثالث من صفر عاودوا القتال واشتدت الحرب وعبر كثير من اهل بغداد سباحة وفي السفن، وكانت منازلة عظيمة سجلها التاريخ لاهل بغداد الذين وقفوا تلك المواقف المشرفة دفاعاً عن بغداد وسيادة الخلافة، وهكذا انتصرت ارادة الشعب الذي صبر وصمد امام الاعداء والطامعين ونجحت الخلافة في جميع تدابيرها ورجع العدو خائباً يجر اذيال المذلة والخذلان.

تلك هي صفحة مشرفة من صفحات الصبر والصمود التي توجت بالنصر المؤزر، نسأل الله تعالى ان يحقق لنا النصر على اعدائنا الذين فرضوا علينا هذا الحصار الظالم والذي سيتحطم بإذن الله بصمودنا وصبرنا ويتحقق لوطننا النصر ولشعبنا الفخر والعزة والكرامة.

الهوامش

١ – النظامي العروضي السمرقندي، جهار مقالة ص ٣١ ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب

٢ – ابن الجوزي / المنتظم جـ ١٠ ص ٣٠

٣ – ابن الاثير / الكامل في التاريخ حوادث سنة ٥٢٦

٤ – ابن الجوزي / جـ ١٠ ص ٢٦

٥ – ابن الاثير / حوادث سنة ٥٢٧ هـ

٦ – ابن الجوزي / المنتظم جـ ١٠ ص ٤٤ – ٥٠

٧ – دايمرج / موقع ماء بالقرب من همدان

٨ – ابن الاثير / حوادث سنة ٥٢٩ هـ

٩ – الراوندي / راحة الصدور ص ٢٣٠

١٠ – ابن الاثير / حوادث سنة ٥٢٩ هـ

العماد الاصفهاني / زبدة النصرة ص ١٧٧ – ١٧٨

١١ – ابن الاثير / حوادث سنة ٥٣٠ هـ

١٢ – المرجع السابق / حوادث سنة ٥٣٠ هـ

١٣ – ابن الاثير / حوادث سنة ٥٣٢ هـ

١٤ – ابن الجوزي / المنتظم جـ ١٠ ص ٧٢

١٥ – راحة الصدور ص ٢٣٢

المنتظم جـ ١٠ ص ٦٠

١٦ – ابن الجوزي / المنتظم جـ ١٠ ص ٦٦

١٧ – المرجع السابق جـ ١٠ ص ١٢٥

١٨ – المرجع السابق جـ ١٠ ص ١٣٣

١٩ – ابن الاثير / حوادث سنة ٥٤٣ هـ

دراسة

صبر العراقيين وثباتهم في حصار الكوت

بقلم: حميد مجيد هدو

الحصار سلعة الشيطان على الشعوب الخيرة ـ سلاح لئيم يمتلك ناصيته الطغاة لينالوا به مايريدون ـ ولا اظن ان بلداً قد عانى من ويلاته عبر العصور كما عانى العراق بكل مدنه وقصباته

والانكى ان تكابد مدينة من مدنه المعروفة من ويلات الحصار بسبب خلاف بين دولتين اجنبيتين لاتربطهما بتراب الوطن ثمة أصرة صغيرة او كبيرة ـ كما حصل لمدينة الكوت الباسلة التي نحن بصدد استذكار حصارها المفجع يوم وقعت فريسة بين فكي كماشة الانكليز الغزاة والاتراك المحتلين ـ ولنا في قصصهم عبرة . ولا ندعي باننا سنأتي بجديد عن حصار هذه المدينة الصابرة من مدن العراق التي ابتليت بالاطماع الاستعمارية على مدى التاريخ فقد كتبت عنها مصادر تاريخية كان منها العراقي والعربي والاجنبي كل رسم لنفسه خطاً مميزاً في التحدث عن مجريات الامور في هذا الحدث المهم الذي علمنا الصبر والمجاهدة والشموخ والاباء .

لقد كان لدخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الاولى والغاء خطة الحياد التي كانت قد اعلنتها في بداية الحرب حجة قوية بيد الانكليز لكي يحركوا قواتهم الرابضة في الهند وكأن بريطانيا كانت تريد لذلك ان يحدث فالعراق كان يمثل بالنسبة اليها عقبة تحول دون السيطرة المحكمة على الجبهة الشرقية للحرب كما ان اطماعها القديمة في استعمار هذا الجزء من العالم الشرقي قد توهجت واستفحلت وصارت ثمرة يانعة يجب ان تقطفها قبل ان تسقط في يد الالمان الذين كانت اطماعهم لا تقل شراسة عن اطماع الانكليز(١) .

لقد كان انور باشا وزير الحربية العثماني انذاك والذي كان يميل الى المانيا ويعجب بجيشها اعجاباً لا حد له قد وقع فريسة غبية بيد الالمان حيث اعتقد اعتقاداً جازماً بانه جيش لايغلب فلما اندلعت نيران الحرب في اوربا كان انور باشا واثقاً من ان النصر لابد ان يكون الى جانب المانيا في النهاية (٢) ولم يقد الحدس العسكري لانور باشا الى ان الانكليز اشد رغبة من الالمان في ان تعلن الدولة العثمانية الحرب عليها ـ اي على انكلترة ـ .

فبريطانيا وعبر قرون كانت ترصد التطورات السياسية والعسكرية للدولة العثمانية وتصغي دبة اماليها لتنتهز الفرصة المناسبة للانقضاض . وكان من العوامل التي ساعدت على ذلك انشغال روسيا القيصرية بقمع التحركات التي بدات تظهر في ارجائها والتي ادت في النهاية الى الثورة البلشفية عام ١٩١٧ مما جعل روسيا تنسحب ولو شكلياً من الميدان العسكري .

لقد تحركت الحملة البريطانية الى العراق بقيادة الجنرال ديلامين فاتجهت الى البحرين ورابطت فيها ثم صدرت الاوامر في اوائل تشرين ١٩١٤ بالاتجاه شمالاً فوصلت الى بر شط العرب في ١٩١٤/١١/١٦(٣) واستطاعت ان تستولي على الفاو ـ وفي اليوم نفسه اصدر بيرسي كوكس الذي كان يرافق الحملة ـ رئيساً للحكام السياسيين ـ بياناً اشار فيه الى اسف الحكومة البريطانية لانها قد اعلنت موقف العداء والحرب عليها و ابدت عدواناً لا مسوغ له (مشيراً الى قيام وحدة من الاسطول العثماني الذي كان تحت القيادة الالمانية بضرب الموانيء الروسية الواقعة على البحر الاسود)(٤) وقد طمأن هذا البيان السكان المحليين (كما هي عادة الانكليز) بان لا يخافوا من شيء لان القوات البريطانية سوف لا تتعرض لهم ولا لاموالهم اذا وقفوا موقفاً ودياً منهم وعلى الحياد من الجنود الاتراك . وفي ٢٣ / ١١ / ١٩٤١ وصل الجنرال باريت الى البصرة على رأس قواته ومعه بيرسي كوكس ورفع العلم البريطاني على السراي ثم تقدمت الجيوش البريطانية الى القرنة لتحتلها لانها كانت ذات موقع عسكري مهم فهي ملتقى دجلة والفرات وباحتلالها تكون قد حسمت جبهة البصرة . ومن هنا بدأت عمليات المجاهدين العراقيين الذين استنكروا هذا الاحتلال فتصدت القوات الشعبية العراقية للقوات الغازية واذاقتهم الويل والثبور متسلحة بالعقيدة والايمان بعدالة قضيتها ـ صابرة على البلاء الذي حل ببلادهم العزيزة فدخلوا في معارك غير متكافئة مع القوات البريطانية التي تفوقهم في السلاح والعتاد والتقنية والتدريب وعندما وصلت اخبار ذلك الاحتلال الى بعض المدن الجنوبية الاخرى ومنها الشطرة هجمت العشائر على سراي الحكومة وثكنة الجند فانتزعت الاسلحة من ايدي الجنود الاجانب وهرب الموظفون الاتراك من المدينة (٥) .

ولما توالت الهزائم للاتراك نشط العراقيون المجاهدون في تهديد الجيش البريطاني والدخول معه في معارك حامية خاصة في اثناء الليل وكانت حقاً بطولات خارقة كما وصفها اكثر من مؤرخ انكليزي وشهد بصبر العراقيين وجهادهم وثباتهم .

ثم تقدمت القوات الانكليزية شمالا نحو العمارة فاحتلتها بعد معارك دامية في ١٩١٥/٦/٢[6] وبذلك تكون القوات الغازية قد امنت إبعاد العثمانيين عن شط العرب والسيطرة على نهر دجلة والهيمنة على انابيب النفط في عربستان بصورة غير مباشرة وكانت القوات العثمانية اضعف من ان تقاوم تقدم الجيش الانكليزي [7] وهكذا استطاع البريطانيون ان يحتلوا ويسيطروا على المثلث الواقع بين البصرة والعمارة والناصرية وبذلك امنوا تطويق الخليج العربي وأبعدوا العثمانيين عنه[8].

تطويق الجيش العثماني للمدينة بعد أن احتلها الانكليز

تقدمت القوات البريطانية نحو الكوت وقد كان قرارها نقطة تحول خطيرة في الحرب حيث كانت الخطة تهدف الى ما هو اكبر من تحقيق خطوط دفاعية عن منابع النفط في عبادان وعن شط العرب وانما صارت تسعى الى اهداف توسعية استعمارية غايتها السيطرة على بغداد وطرد الاتراك واستعمار العراق استعمارا كاملا. اذ ان الاستيلاء على بغداد في نظرهم كان المفتاح الوحيد «التأثير في العالم الاسلامي والسيطرة على الموقف في الشرق الاوسط»[9].

اجتمعت الفرقة السادسة البريطانية في علي الغربي بتاريخ ١١ / ٩ / ١٩١٥ ووصلت في ١٦ / ٩ الى الصناعيات (حوالي ٨ اميال شرق الموقع التركي) وقد تقدمت القوات برا ولقيت صعوبات جمة بسبب ارتفاع حرارة الجو وعدم تجانس حيوانات نقلية الخط الثاني والتي كانت من الحمير والبغال في الوقت الذي كان فيه الاتراك يحكمون مواضعهم بجد ونشاط وقد وضع الجنرال الانكليزي طاونزند خطة للهجوم . وفي ١٥ ايلول حشدت القوة البريطانية في (الصناعيات)بالاضافة الى الاسطول النهري[10].

اما قوة الاتراك فبلغت ٧ آلاف بندقية و ٣١ مدفعا وكانت المعركة طاحنة بين الفريقين[11] تكبد كل منهما خسائر فادحة واحتاجت بريطانيا في هذه المعركة الى استخدام الخدع الحربية التي ادت الى تفوق القوات البريطانية وتمكنها من دخول مدينة الكوت واحتلالها وانسحاب الاتراك منها والتراجع نحو بغداد وكان ذلك في ١٩١٥/٩/٣٠ ثم تقدمت القوات البريطانية نحو بغداد حتى وصلت المدائن (سلمان باك) وهناك وقعت معركة كبيرة اندحرت فيها الجيوش البريطانية واضطرت الى التراجع امام هجمات الجيش التركي وبمساعدة العشائر العراقية والمجاهدين الابطال من عرب العراق وتخندق الانكليز داخل مدينة الكوت على امل ان تستطيع القوات البريطانية من نجدة القائد طاونزند وفك الحصار عنه[12].

الكوت في ظل الحصار

عاشت الكوت تلك المدينة الصغيرة بمساحتها وسكانها ؛ الكبيرة بمواقفها وصمودها وصبرها وجهادها ضد الانكليز المحتلين فقد لقنت الاجنبي دروسا مرة لم ينسوها ابدا كما جاء في اعترافات القادة الاجانب المحتلين.

كان سكان الكوت في خلال فترة الاحتلال البريطاني وفي اثناء الحصار لايتجاوز الـ (٥٠٠٠) نسمة وبعضهم حدد سكانها بـ (٦٠٠٠) نسمة[13] والمدينة تقع على ضفتي نهر دجلة على شكل حدوة الحصان اهلها عرب صناديد وقد كان القائد طاونزند يخشاهم ويرتاب منهم لانه اختبرهم فرآهم لا تلين لهم قناة امام جبروت المستعمر ولهذا كان هذا القائد يحسب لهم الف حساب وكان يعدهم من اشد الاخطار التي تهدد وجود قواته في المدينة فسعى الى تفتيش بيوتهم والبحث عن الاسلحة المخبأة فيها وكذلك سلب المؤونة المخزونة والاطعمة التي احتفظ بها المواطنون قوتا لهم[14] وإبقاء النزر اليسير منها لهم.

وقد اوصى طاونزند قواته المحاصرة داخل المدينة بمايلي (انني عازم على الدفاع عن الكوت وعلى عدم الانسحاب اكثر من ذلك)[15] وحث قواته المحاصرة على الدفاع والاستبسال امام هجمات القوات التركية وصد المحاولات الرامية الى خرق الدفاعات الانكليزية والتحصينات التي اقاموها حيث حشد اكثر من ٢٠ الف مقاتل من جيشه الذي تألف من عناصر انكليزية وهندية وكوركا.

اما الاتراك خارج الكوت فقد كانوا اكثر عددا وعدة لذلك اتخذت القوات البريطانية داخل الكوت اجراءات من اجل حماية نفسها ومقاومة الحصار المفروض عليها من خارج المدينة والذي استمر قرابة خمسة شهور من اوائل كانون الاول ١٩١٥ والى آخر نيسان ١٩١٦ ومن هذه الاجراءات اجلاء النساء والاطفال والشيوخ والمرضى والمسافرون من المدينة واخراجهم عبر النهر الى الضفة الاخرى خارج المدينة وكان عددهم يتراوح بين ٦٠٠ - ٧٠٠ شخصاً . وقد ذهب ضحية هذا العمل عدد كبير منهم عندما اطلق الجنود الاتراك النار عليهم حال خروجهم من الكوت او عندما ارادوا العبور الى الضفة الاخرى من النهر وعندما القي القبض على بعضهم حوكموا واصدر الحكم بالاعدام وفعلا اعدموا[16] ومن الاجراءات التي اتخذها الانكليز داخل الكوت هو مصادرة الحبوب من حنطة وشعير وذرة ورز وعدس وماش وبقليات اخرى كانت مخزونة في بيوت الاهالي مما زاد في مخزون الجيش البريطاني واطال من مدة الحصار فترة اطول. استطاع الاجنبي المحتل ان يقاوم الحصار[17] وبقي اهل الكوت ينظرون الى هذه الحالة بصبر وامتعاض معتبرين ذلك سلبا لاموالهم واعتداءا على ممتلكاتهم مما جعل معظم الاهالي يودون الانتقام من الانكليز نتيجة اجراءاتهم تلك وفعلا كانت المحاولات تجري في الظلام كل ليلة حيث الهجمات تتوالى على الجنود والحرس داخل المدينة لقتلهم او سلب اسلحتهم او نهب مخازن الميرة التابعة لهم.

فاشتد الغلاء اشتدادا هائلا حتى بيعت اوقية الخبز بليرة ذهبية [18] واضطر الاهلون الى تقنين الطعام والملبس . اما الانكليز ففعلوا الشيء نفسه اذ انهم قلصوا حصص جنودهم الى النصف من المواد الغذائية والدخان واللحوم فمثلا كان الجندي يستهلك رطلا من اللحم ورطلا من الخبز وثلاثة اونسات من البصل وهكذا بقية المواد كالسكر والشاي والملح والزبدة والجبن فكلها تناقصت الى دون النصف والى الغاء الكثير منها من قائمة المؤونة [19] حتى ان القائد طاونزند ناشد قواته الاقتصاد في الطعام والعتاد - الذي كان يعتقد انه يكفي لمعالجة ثلاث فرق فقط وفي كل شيء خوفاً من نفادها قبل ان تأتيهم النجدات والارزاق[20].

استمر حصار المدينة ١٤٧ يوما وفي رواية ١٤٣ يوما [21] وكانت

تجربة مريرة وقاسية وحالة صعبة عانى منها الاهلون والجنود شتى صنوف العذاب وانواع فكانت تجربة ولكنها مليئة بالعبر والعظات [٣٢] ابدى فيها المرابطون من عرب الكوت بسالة وصبرا نتيجة تحملهم ذلك الاستعمار القاسي الذي تجلى فيه بوضوح قوة ايمانهم وصلابة عقيدتهم وعمق صبرهم وحسن مجاهدتهم، وعدم المبالاة بالصعاب والتضحية بالغالي والنفيس في سبيل عزة انفسهم وعدم اراقة ماء وجوههم وتحمل الام الجوع والحرمان مقابل صرختهم المدوية ووقفتهم البطولية امام قوى الظلم والتحدي والاغتصاب. حقا انها ملحمة بطولية رائعة تجلت فيها وحدة الصف والشعور بالمسؤولية الوطنية والقومية من اجل حماية الوطن والارض من غزو الطامعين واحباط المخططات اللئيمة التي رسمها الاعداء الذين ارادوا بها شر هذا الوطن والنيل من كرامة اهله فكانت مخططاتهم خسرانا كبيراً لا يماثله خسران.

عاشت مدينة الكوت حالة غريبة في اثناء الحصار فقد سلب الاجانب المحتلون الطعام . كما ذكرنا ـ ولم يبقوا للاهالي الا النزر اليسير واستولوا على الماشية وذبحوها وحتى سقوف البيوت والخانات والدكاكين لم تسلم منهم حيث استعملها الجنود وقودا للتدفئة واختفت الابواب الخشبية الخارجية من البيوت ورفعت الكتائب الخشبية واخيرا تم اقتلاع جذور السوس من الارض لتصبح المصدر الوحيد للوقود الذي كانوا بأمس الحاجة اليه نتيجة البرد الشديد الذي اتسمت به بعض شهور الحصار في تلك السنة وبما ان تلكم الاخشاب كانت تحرق لاغراض الطبخ حتى ارائك المقاهي الخشبية لم تسلم من السلب للاغراض ذاتها مما اثار حنق السكان المحليين المذكور الذين اعتادوا الجلوس في تلك المقاهي[٣٣] وفي ظل الحصار كانت مدينة الكوت تعيش حالة بائسة حيث لادواء ولاطبيب ولاطعام يكفي ولا امن ولا حرية ولا عمل مما جعل ابدانهم لا تقوى على تحمل المرض او دفعه عنهم فاصيب معظم السكان بفقر الدم والتهاب الامعاء والبهارزي والحمى وغيرها من الامراض مما زاد حقد السكان على الانكليز وتحمسهم على انهاء احتلالهم لعودة الحياة الطبيعية الامنة لها.

ورغم الامكانات التي كانت متوفرة لدى الجيش البريطاني داخل المدينة الا ان معظم حساباتهم العسكرية باتت خاسرة تجاه الخطط العسكرية التركية التي رسمها الاتراك خارج الكوت والتهيؤ الكامل التام الذي اتخذه الاتراك من سلاح وعتاد وتموين ورجال حيث ظلوا يدبون نيران بنادقهم ومدافعهم على المدينة من الخارج والتسلل في الليل الى داخل حصون الانكليز مما جعل القوات البريطانية ترتبك وتضعف وبداخلهم شعور امام ضربات الاتراك القوية الهائلة[٣٤] وكان طاونزند يمني نفسه بانهاء الحصار ويقول: سوف نخرج من الحصار بحلول عيد الميلاد ولكن ذلك الامل لم يتحقق فالحصار مستمر والقصف يزداد ضراوة كل يوم وقد استهدف كل مكان حتى المستشفى لم تسلم منه واضحت بيوت الاهالي الامنين عرضة للقصف المدفعي الكثيف الذي كان يصبه الاتراك من خارج المدينة نهارا، كان ينهمر على رؤوس الجنود والاهالي[٣٥].

وكانت المجاعة وتناقص المواد الغذائية الرئيسة تنفد او تتناقص بسرعة شيئا فشيئا مما اضطر الجنود الانكليز الى ذبح الخيول والبغال والحمير واكل لحومها وحتى الكلاب والقطط لم تسلم من الذبح فكانوا يشوونها على النار ويأكلونها ، اما الاهالي فكانوا يصطادون العصافير والطيور والاسماك ويذبحونها ويأكلون الاعشاب ويقتاتون على التمر الذي كان غذاءهم الرئيس ، اما الخضراوات فلم تكن متوفرة للاهلين بل كانت تقدم للجنود على شكل معلبات ولكن اكثرها كان تالفاً غير صالح للاستعمال ومع هذا كان الجنود يتلاقفونه بنهم وشراهة من شدة الجوع وحتى البسكويت الذي ظهرت عليه اثار العفونة والتلف لم يتركوه دون ان يتناولوه.

اما موضوع ذبح البغال والخيول فكانت هناك مشكلة بين الجنود المحتلين فالجيش البريطاني كما ذكرنا كان يتكون من عناصر ثلاثة الانكليز والهنود والكوركا. فالانكليز اكلوا لحوم الخيول والبغال والكلاب والحمير اما الهنود فقد امتنعوا بادىء الامر من تناولها ولكنهم في الاخير اكلوها مضطرين وكذلك الكوركا.

حتى وصل الحال الى ان بعض الجنود كان يسرق اللحم من العربات اليدوية التي تنقل الارزاق في طريقها الطويل الممتد عبر نيران القناصة من الخارج ومع ذلك فقد صمدت الكوت اكثر مما صمد حصن (ليدي سمث)[٣٦].

وتعقب احد الضباط الانكليز زميلا له في خلال احيان من الخنادق وهو ينتظر ان ينقض على الاخير ليسلب منه عقب سيكارة وما ان عمل ذلك حتى انقض عليه ضابط اخر كان يريد قتله لان الحصول على سيكارة يدخنها الانسان كانت امنية للمدخن.

وحتى الماء اصبح عزيزا حيث لم يتوفر ماء الشرب ويروى ان جنديا خلع حذاءه وادلاه في نهر دجلة ثم سحبه الى ما فوق متراسه ثم شرب منه الماء وهو يقول: انه حلو المذاق ويفي ويروى ان جنديا اصابه الجوع الشديد فطبخ لحم بغل على نار تبعث الدخان وهو يردد « جيفة طيبة المذاق » من دون ان يضحك منه احد[٣٧].

ارتفعت الاسعار ارتفاعا لم يألفه الناس فرغيف الخبز اصبح بروبية والاوقية كما ذكرنا بليرة ذهبية ومثله الرز والتمر والخضراوات ـ ان وجدت ـ وكان العرب من اهل الكوت لا يقبلون التعامل بالعملة الورقية واذا كان لابد من ذلك فانهم يتقاضون عمولة عالية على ذلك.

ونتيجة لهذا الحصار فقد هوجم السوق الرئيس في المدينة من قبل جنود الاحتلال البريطاني ونهبت الدكاكين وافرغت المخازن من البضاعة التي يملكها الاهالي وكما قلنا قبلا ان البيوت نهبت وسرقت من قبل الجنود ولكن ارادة وصبر العراقيين واهل الكوت كانت اقوى من افعال الانكليز المحتلين فبالتعاون والتكافل والتشبع الذاتي استطاعوا ان يتقاسموا لقمة العيش وان يجبروا حالهم ويصمدوا أمام طغيان المحتل طيلة ايام الحصار ويفوتوا على الاجنبي الفرصة ويلقنوه درساً لن ينساه على مر التاريخ.

وفي ٢٩ / ٤ / ١٩١٦ استسلم القائد طاونزند الى الاتراك بعد ان اجبره الجوع والحصار وقوة ارادة المقاومة المحلية الى ان يرفع علم الاستسلام بعد ان يئس من النصر فسقطت الكوت بيد الاتراك ودخلها الاتراك واقتيد طاونزند وضباطه وجنوده للاسر بعد ان خسروا قرابة (١٦٠٨) قتيل وعدد كبير من الجرحى والمفقودين.وكان انتحاراً كبيراً له وقعه المؤلم في الاوساط البريطانية[٣٨] ودليل على قوة الارادة العراقية في الصبر والجهاد والكفاح.

الهوامش

(١)د. عبدالله الفياض/ الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠، ص ١٠١ وما بعدها، بغداد ط١، ١٩٦٣.
(٢)د. علي الوردي/ لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث،(٨:٤)، بغداد ١٩٧٤.
(٣)د. شكري محمود نديم/ حرب العراق عام ١٩١٤ ـ ١٩١٨، ص٢٢، بيروت (بدون تاريخ)
(٤) عبدالرحمن البزاز/ العراق من الاحتلال حتى الاستقلال، ص٦٧ وما بعدها، ط٣ بغداد ١٩٦٧.
(٥) د. علي الوردي لمحات اجتماعية المصدر السابق ٤: ٢٥٠.
(٦) العراق في التاريخ مجموعة من المؤلفين ص٦٦٣ بغداد ١٩٨٣.
(٧) محمود شكري نديم/ المصدر السابق ص٣٥
(٨) العراق في التاريخ ص٦٦٣.
(٩) محمود شكري نديم/ المصدر السابق ص٤٠.
(١٠) لونكريك العراق الحديث/ ترجمة سليم طه التكريتي جـ١، ص١٤٩، بغداد ١٩٨٨.
(١١) مذكرات الفريق طاونزند/ ط٢، ١٩٨٦ ص٤٣،٤٤.
(١٢) محمد طاهر العمري/ مقدرات العراق السياسية، بغداد ١٩٢٥،ص١١٣.
(١٣) برادون/ حصار الكوت، ترجمة سليم طه التكريتي وزميله، ١: ٢٨٢ بغداد ١٩٨٤، ومذكرات طاونزند مصدر سابق ص٢٦٠.
(١٤) مذكرات طاونزند(مصدر سابق) ص٤٩٣
(١٥) حصار الكوت ٢: ١٩٠(مصدر سابق).
(١٦) مذكرات طاونزند ص٥٣٦.
(١٧) مذكرات طاونزند ص٥٠٨.
(١٨) عبدالرزاق الحسني/ العراق في دوري الاحتلال والانتداب، ص٢٩. صيدا ١٩٣٥.
(١٩) حصار الكوت ٢: ٢٠٩.
(٢٠) مذكرات طاونزند ص١٩١.
(٢١)عبدالرحمن البزاز، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال (مصدر سابق) ص٧٢.
(٢٢) د. علي الوردي (مصدر سابق) ٤: ٢٥٢.
(٢٣) حصار الكوت ١: ٢٥٦.
(٢٤) حصار الكوت ٢: ٢٣٢
(٢٥) حصار الكوت ١: ٢٧٦.
(٢٦) المصدر السابق ٢: ٩١
(٢٧) مذكرات طاونزند ص٥٠٨
(٢٨) عبد الرحمن البزاز، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال ص٧٢

د. علي الوردي ٤: ٢٧٧.

• • •

دراسة

حصار النجف

بقلم : سالم الالوسي

اتحاد المؤرخين العرب ـ بغداد

تعرض العراق في تاريخه الطويل الواغل في القدم الى الكثير من الحروب والكوارث والحصار ، وكان يخرج في كل مرة ظافراً منتصراً ، سرعان ما يتغلب على اعدائه . وكان عبر ذلك التاريخ الطويل عرضة للفتوحات والحروب والغزو واجراءات الحصار لعدد من مدنه ، كل ذلك يعود الى ثرواته الطبيعية وخصب اراضيه وحيوية شعبه الذي شُيد العمران واقام الحضارات .

وقد تعرض في خلال تاريخه المعاصر والحديث الى عدد من الاعتداءات الخارجية . وعانت بعض مدنه مثل : بغداد ، الموصل ، البصرة / الكوت ، النجف من كوارث ونكبات وحصار من جراء الحروب. فقد فرض الانكليز الحصار على النجف اكثر من اربعين يوماً بسبب رفضها للاحتلال الاجنبي ونزعتها الى الحرية والاستقلال حفاظاً على وحدتها الوطنية وعزتها القومية .

ولو استعرضنا الاحداث التي تعرضت لها النجف ، هذه المدينة الباسلة والحصارات التي فرضت عليها لاحتاج ذلك الى مجلدات . ولكننا في هذه العجالة نذكر بايجاز بعضاً منها .

ففي عام ١٠٤١ هـ فتح النجف القائد العثماني خسرو باشا ، وكان قد جاء لفتح بغداد في الايام التي كانت تحت سيطرة الصفويين فحاصرها مرتين وامتنعت عليه فتركها عائداً الى الاستانة .

وتعرضت النجف لهجمات الوهابيين منذ مطلع القرن (١٣) للهجرة اذ هجموا على كربلاء والنجف . ومن الحوادث ((حاصر الروم ـ ويقصد بهم العثمانيون ـ ارض النجف في المشهد الغروي ايام السلطان سليم وذلك سنة ١٠٣٢ هـ ـ وتحصن اهلها داخل البلدة واغلقوا الابواب عليهم وقاوموا الاعداء مع قلة عددهم وعدتهم وكثرة المحاصرين واستمر الحصار طويلا ولم يظفروا بهم ».

وفي ايام السلطان مراد وقعت عدة مهاجمات بين عسكره وعسكر الشاه عباس الاول ودخل النجف (كنج عثمان) سنة ١٠٤٠ هـ .

وهاجم الوهابيون مرة اخرى مدينة النجف بقيادة سعود بن عبد العزيز واحاطوا بها واشتغل الرمي بالرصاص من الطرفين ، وقد دافع النجفيون دفاعاً مستميتاً عن مدينتهم المقدسة وبرزت المخدرات من خدورهن وسعين الحجائز يشجعن المقاتلين . واخيراً هزم المعتدون وشتت شملهم وكان ذلك عامي ١٢١٥ هـ ، ١٢١٧ هـ .

ولما بلغ اهالي النجف نبأ توجه الوهابيين الى النجف نهض الاهالي للدفاع عن مدينتهم المقدسة فاغلقوا الابواب وجعلوا خلفها الصخور والاحجار وعين لكل باب عدد من المقاتلين واحاط باقي المقاتلين بالسور من داخل البلدة . وقد تكررت حوادث هجوم الوهابيين على النجف وحصارها في ١٢٢١ هـ و ١٢٢٥ هـ واستمر الحال حتى الربع الاول من القرن العشرين ، وبقيت النجف صامدة بوجه اعدائها ورمزاً من رموز الوحدة الوطنية .

وكان البريطانيون بعد احتلالهم بغداد في ١١ / ٣ / ١٩١٧ وتقدم جيوشهم الى مناطق اخرى من العراق ، قد تركوا مدينة النجف وشأنها نظراً لمركزها الديني من ناحية ، وطبيعة أهاليها الميالين الى الاستقلال وكراهيتهم لكل اجنبي ، وقد قاوموا سياسة التسلط التركي وتوجهاته الطورانية اعتزازاً بوطنيتهم وافتخاراً بمشاعرهم العربية ونزعاتهم الاسلامية . ولهذه الاسباب وغيرها ترك البريطانيون النجف ، ولم يسيروا اليها جيشاً ، ولم يتدخلوا في شؤونها ، ولهذا اعتاد النجفيون على ممارسة نوع من الحكم الاهلي ، فبرزت بينهم زعامات محلية ، وقد اتسع نفوذ هؤلاء الزعماء فاغاظ ذلك بعض علماء الدين كما اغاظ الوطنيين من اهل البلدة لسوء تصرف بعض هؤلاء الزعماء وتغليب مصالحهم الشخصية على مصالح عامة الشعب . وقد اعتمد الانكليز على بعض الشخصيات من النجف ثم قلبوا لهم ظهر المجن ، مما اضطر السلطات البريطانية الى اختيار حميد خان بن اسدخان من الاسر الهندية المرموقة التي نفاها الانكليز من بلادهم الهند فاختاروا السكن والاقامة في العراق ولا سيما في الكاظمية وكربلاء . اختاروه ليكون معاوناً للحاكم السياسي الانكليزي في النجف الاشرف .

ولما رفض حميد خان هذا المنصب سعى الانكليز الى الزعيم الروحاني المنفرد السيد كاظم اليزدي الطباطبائي لحمله على تكليف حميد خان لقبول هذه الوظيفة ، فقبلها مضطراً وكان ذلك في حزيران من عام ١٩١٧ .

ولم يظهر النجفيون ارتياحهم من وجود حميد خان بالرغم من صلات عائلته الحسنة ، لانهم شعروا بسيطرة غريبة عليهم ، وكان الأجدر اختيار وجيه من وجهاء النجف يرتضيه الاهالي (٣) .

في اواخر تشرين الثاني من عام ١٩١٧ وصل من بادية الشام جماعة من العشائر من الموالين للانكليز يحملون رسالة توصية بعث بها الضابط الانكليزي المعروف الكولونيل ليجمان ، المسؤول عن حدود البادية الى حميد خان معاون الحاكم السياسي في النجف لمساعدة هذه العشائر في الامتيار وشراء حاجياتهم المعاشية . وبعد مدة اعقبهم (١٢٠٠) بعير لاحد الشيوخ من رؤساء هذه العشائر التي جاءت الى النجف للغاية نفسها .

وكانت المواد المعاشية والمخزون من الطعام شحيحاً جداً يومذاك فادى وصول هاتين القافلتين للاكتيال الى ارتفاع اسعار المواد ارتفاعاً فاحشاً .

ونجم عن ذلك قيام تظاهرات في النجف اشتركت فيها بعض النسوة يشتكين فقدان الارزاق والاقوات . وقد حدث اثر ذلك نزاع وشجار بين المتظاهرين وافراد هذه العشائر ادى الى قتل عدد من الابل ونهب بعض البندقيات . فلم يكن بوسع حميد خان ان يفعل شيئاً لعدم وجود قوة اجرائية لديه . وفضّل الاستقالة من منصبه . فما كان من الحاكم الملكي العام الانكليزي السر بيرسي كوكس الا ان يقترح على القائد العام للقوات العسكرية الانكليزية ضرورة الاشراف المباشر على منطقة الفرات الاوسط . وعلى هذا الاساس تم تعيين الكابتن (بلفور Balfour) حاكماً سياسياً للواء الشامية والنجف . وكان بلفور يتقن العربية لسبق اشتغاله في السودان [٣] . وان يعين حميد خان معاوناً له في النجف تساعده شرذمة من الشرطة المحلية . وقد زار النجف واجتمع ببعض رؤسائها وعاتبهم في وجوب فض النزاع الذي نشب بينهم وبين أفراد العشائر وكان بصحبته الميجر (بولي Pully) معاون الحاكم السياسي في كربلاء . ولكن بلفور وجد الوجوه مكفهرة وأوامر المصالحة مجمّدة لم يعتد بها . ولم يحضر من زعماء النجف الاربعة غير الحاج عطية ابو كلل رئيس محلة العمارة والشيخ كاظم صبي رئيس محلة المشراق فعاتبهما . وتحول العتاب الى شجار وأسمعهما بعض الكلام القارص والالفاظ النابية . فما كان من الحاج كاظم صبي والحاج عطية إلا ان ردا الاهانة . واوعز الحاج عطية الى جماعته بالتمرد فتكهرب الجو وقام انصاره بنهب سراي الحكومة وفتح باب السجن على مصراعيه ليخرج من فيه من السجناء . ففر المستر (بولي) الى كربلاء واقتيد الكابتن (بلفور) الى دار (الكليدار) للروضة الحيدرية السيد عباس الرفيعي تحت الحراسة المشددة واثر هذه الحادثة حصلت انتفاضة في (ابو صخير) والكوفة وقام الاهالي بالتظاهر ونهب اثاث الدوائر واشعلوا الحرائق في بعض الاماكن . فاضطر بلفور الى طلب مساعدة المرجع الديني الاعلى السيد محمد كاظم اليزدي لانقاذ الموقف . فطلب اليزدي من بلفور ناصحاً العفو عن الحاج عطية والشيخ كاظم صبي فاستجاب لذلك مرغماً .

وعلى اثر ذلك اضطرت حكومة بغداد الى الاعلان بعدم السماح باخراج اية كمية من الطعام من النجف وانها ستمون النجف والكوفة بمقادير من الحبوب من منطقة الحلة . ومن الاسباب التي اثارت النجفيين ومثلت مساً بكرامتهم وعزتهم هو السلوك الشائن الذي مارسه العديد من رجال السلطة العسكرية من الانكليز واتباعهم . حيث كانوا يتصرفون بغطرسة وكبرياء ومعاملة الاهالي بالقسوة والجبروت وكيل السباب الى بعض الوجهاء من المدينة مما اثر الحقد والكراهية على الانكليز وعملائهم . ودفعاً لهذه الاهانات والتصرفات الشاذة عزم لفيف من الوطنيين على تاسيس (جمعية النهضة الاسلامية) التي كان اول هدف من اهدافها الكفاح ضد السلطة المحتلة وتخليص البلاد من طغيان الانكليز وتأمين الاستقلال والحرية لشعب العراق . وكان من ابرز اعضائها رئيسها العلامة السيد محمد علي بحر العلوم والعلامة المجاهد الشيخ محمد جواد الجزائري والسيد محمد علي الدمشقي وعباس الخليلي وعدد كبير من المناضلين النجفيين امثال كاظم صبي والحاج نجم البقال . وعندئذ قرر عدد من الثوار من ابطال جمعية النهضة الاسلامية قتل الكابتن مارشال الحاكم السياسي لمدينة النجف . فاجتمعوا في دار الحاج نجم البقال الكائنة في محلة المشراق ـ احدى محلات النجف ـ على رأي . او في دار حميمة النداف الكائنة في محلة الحويش بالنجف على رأي آخر . فاجتمعوا يوم الثلاثاء الموافق ٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٣٦ هـ = ١٩ / ٣ / ١٩١٨ م وهم : [٤]

١ ـ الحاج نجم البقال
٢ ـ محسن البوغنيم
٣ ـ سعيد العامري
٤ ـ شمران العامري
٥ ـ عبد حميمة النداف
٦ ـ مجيد الحاج مهدي دعيبل
٧ ـ حميد عيسى حبيبان
٨ ـ عبد الحمامجي
٩ ـ السيد جاسم طبار الهوا
١٠ ـ صادق الاديب
١١ ـ حسن جوري
١٢ ـ خطار بن سلمان البديري
١٣ ـ جودي ناجي
١٤ ـ حبيب بن جاسم خضير
١٥ ـ حميد ابو السبزي
١٦ ـ السيد جعفر الصائغ
١٧ ـ علوان ابو دليهم
١٨ ـ السيد مجيد طبار الهوا

وقد حلفوا بالقرآن الكريم على تنفيذ ما اتفقوا عليه بالهجوم على مقر الحكومة وكان مجهزاً بالمدافع والرشاشات وانواع التجهيزات الحربية . وكان عدد الثوار المهاجمين خمسة عشر مقاتلاً . يتقدمهم الحاج نجم البقال . وتمهيداً لتنفيذ الخطة تزيا الجميع بزي حرس (الشبانة) الذين كانوا يعتمرون الكوفية البيضاء . ولبسوا لباسهم الرسمي وحملوا الخناجر والمسدسات والبنادق . وكان احدهم قد حمل كتاباً باسم الكابتن مارشال . ليحتال به على الحارس الهندي . وعند وصولهم الى باب السراي طلبوا من الحارس مواجهة الحاكم السياسي لتقديم الكتاب اليه . فامتنع الحارس من ان يفسح لهم مجال الدخول . فاستل احدهم خنجره وضربه وقتله في الحال . ثم دخلوا غرفة الحاكم . فلما رأى هؤلاء الثوار تقدموا نحوه حاول مارشال سحب مسدسه للدفاع عن نفسه . فعاجله احد الابطال بطلقة نارية اردته قتيلاً يسبح بدمه وجرحوا آخرين ممن كانوا في السراي كان منهم طبيب الكابتن مارشال [٥] . وكان الحاج نجم البقال قد اجهز على مارشال كما هو مشهور بين الناس . واكتفى بالجرح الذي اصاب زميله الايرلندي ولم يكن مميتاً [٦] .

وحين بلغ الكابتن (بلفور) خبر الواقعة اسرع متوجهاً الى النجف ومعه قوة كافية من الجنود وزّعها داخل البلدة وخارجها تحسباً للطوارىء . ثم ذهب الى بناية السراي القديم الذي يقع داخل السور . وارسل الى رؤساء البلدة طالباً تسليم قتلة الكابتن مارشال . ولما حضر الرؤساء اظهروا له استغرابهم مما وقع ونفوا ان يكون القائمون بها من اهل النجف وقد يكونون من خارجها . وقد اقتنع الكابتن بلفور بذلك اول الامر فخرج من السراي وهم بصحبته للتجول في البلدة . ولكنه لم يكد يسر قليلاً حتى سمع صوت طلقات نارية تنبعث من محلة المشراق . وبعد

قليل اخذ الرصاص ينهال عليه ولكنه نجا باعجوبة ثم جاءه احد رجاله واخبره بان اثنين من رجال الشرطة في سوق المشراق قد قتلا . فتوجه الى احد الوجهاء من الذين كانوا يتجولون معه موبخاً اياه قائلاً : انت تقوم بهذه الاعمال وتتظاهر بانك لا تدري ، فردّ هذا عليه بخشونة ثم انصرف عنه غاضباً .

بعد هذه الحادثة اتسعت الحركة الوطنية واخذ ابناء النجف يتجولون في طرقات النجف وألقوا القبض على عدد من افراد الشرطة واستحوذوا على اسلحتهم ثم احتجزوا بعضهم وأطلقوا سراح بعضهم الآخر.

ثم قاموا بالهجوم على السراي القديم وقلعوا ابوابه واشعلوا فيه النيران . وكان ذلك ايذاناً باعلان الحرب بين الانكليز والنجف وقيام الثورة ضد المحتل .

وقد تأزم الوضع فتدخل بعض العلماء والوجهاء بالتوسط بين الفريقين، الثوار والانكليز،فلم يجد توسطهم نفعاً . ومما زاد في الطين بلة كما يقول المثل . أن حدث ظهر يوم ٢١ / ٣ حدث كان له اثره البالغ في تقوية عزيمة النجفيين على الثورة . فقد اقتربت حينذاك من سور النجف كتيبة من خيالة الجيش الانكليزي فخرج اليها جمع من الثوار النجفيين ورموها بالرصاص وظلوا يطاردونها حتى عادت من حيث اتت [٧] .

لجا الانكليز الى سياسة (فرق تسد) لبث التفرقة في صفوف الوطنيين، ولكنهم فشلوا في ذلك فقد كانت جبهة الثوار والوطنيين اقوى من جبهة المتخاذلين والمتعاونين مع سلطات الاحتلال .

لم يلبث (بلفور) ان قابل بعض وجهاء النجف وقدم لهم كتاباً يتضمن الشروط الاتية : .

١ ـ تسليم الرجال الذين قتلوا مارشال ومن أشترك معهم في هذه الواقعة .

٢ ـ غرامة تتكون من الف بندقية (تفكة)

٣ ـ غرامة (٥٠ الف) روبية يجمعها الرؤساء المخلصون من المحلات التي كانت لها يد في الفتنة .

٤ ـ تسليم مائة شخص من المحلات الثائرة الى الحكومة لابعادهم عن النجف بصفة اسرى حرب .

وقال (بلفور) عند تقديمه لهذه الشروط ان النجف ستبقى تحت الحصار الشديد فيمنع عنها الطعام والماء الى ان تستجيب للشروط وتنفذها بحذافيرها . وفي الوقت نفسه بعث (بلفور) الى السيد كاظم اليزدي الرسالة التي ارسلها بيرسي كوكس تتضمن هذه الشروط وطلب تنفيذها ومساعدة السلطة الانكليزية على تهدئة الامور في النجف .

وحين انتشر خبر رسالة كوكس الى اليزدي شعر النجفيون ان ذلك بمنزلة التحدي لهم ولمشاعرهم الوطنية ، فصمموا على رفض الشروط ومواصلة الثورة فاتخذوا الاجراءات اللازمة مستعدين للمعركة فحفروا الخنادق وجمعوا السلاح للدفاع عن مدينتهم ، وعينوا الحراس على الخنادق يتناوبون عليها ليلاً ونهاراً بالاضافة الى الحراس الذين وضعوهم على سور النجف من جميع الجهات .

اما الانكليز فقد حشدوا قوات كبيرة في الكوفة وجعلوها تحت قيادة (الجنرال ساندرز Sanders)، وقد اشغلت تلك القوات شواطىء الكوفة وخاناتها ومعظم الدور المطلة على النهر . كما ان قوات كبيرة تمركزت في موقع (كميل بن زياد) الواقع على بعد كيلو مترين من سور النجف ونصبوا المدافع هناك ، وشرعت تلك القوات في حفر الخنادق واقامة المتاريس ونصب الاسلاك الشائكة حول النجف . وبذلك تمت حلقة الحصار على مدينة النجف فانقطع اي اتصال بينها وبين الخارج فلا يمكن ان يدخل اليها او يخرج منها احد [٨] .

وعمد الانكليز الى سد جدول (السنية) الذي يمون المنطقة المحاذية لسور النجف ، ويأخذ مياهه من نهر في (ابو صخير) .

وقد استمر الحصار مدة تزيد على الاربعين يوماً فاضطر السكان الى شرب مياه الابار المالحة التي لا تستساغ ، وارتفعت اسعار المواد الغذائية ارتفاعاً فاحشاً . وانقطعت الفواكه والخضروات نهائياً عن المدينة لانها كانت تأتي الى المدينة من البساتين الواقعة خارجها . وقد بلغ سعر رغيف الخبز المليء بالسحالة نصف ربية ، وسعر اوقية الدهن ليرتين ذهباً ، والبصلة قراناً ، ثم ارتفع الى اربعة قرانات ، وأن سعر القربة من الماء الصالح للشرب نصف ليرة . وقد هلكت اكثر الطيور والقطط ، واضطر الناس الى ذبح الحمير للاستفادة من لحومها ، وقد بيع لحم الحمير في السوق علانية وقد وصف شاهد عيان في تلك الايام الحال،قائلاً : « شاهدت القطط وهي تاكل التمر مع انها لم تكن معتادة على أكله في النجف من قبل . ولم انس منظرها المحزن وهي تتقلب في الطرقات وتموء باصوات كسيرة وتقلب نظراتها بين المارة وكأنها تستجدي العطف مما اصابها من آلام الجوع والعطش .

وكان العلامة الشيخ محمد رضا الشبيبي قد نشر وصفاً دقيقاً للصعوبات والمآزق التي عاناها النجفيون من جراء الحصار يوماً فيوماً ، وقد نشرت هذه المعلومات في مجلة الثقافة الجديدة بعنوان (ثورة النجف)[٩] ، كما نشر تفصيلات هذه الاحداث الاستاذ حسن الاسدي في كتابه (ثورة النجف) الصادر عام ١٩٧٥ .

قال الشيخ الشبيبي : « في ليلة الاثنين ١٢ جمادي الثانية ١٣٣٦ هـ = ٢٥ / ٣ / ١٩١٨ قتل وجرح جماعة [illegible] في طلب الماء من جهة (الثلمة) من جملتهم عبد الله الجصاني وأمرأته وابنه ، وثلاث آخرون ، وفي ١٨ جمادى الثانية = ٣١ / ٣ / ١٩١٨ مساءً امطرت السماء مدراراً ففرح الناس وراحوا يجمعون كل قطرة تقع من السماء ما استطاعوا . ولا ازال اتذكر منظر جميع افراد عائلتنا وهم يضعون كل ما لدينا من الصواني والقدور والاواني في باحة الدار ليفرغوها في الاحباب كلما امتلأت [١٠] .

وفي يوم ٢٥ / ٣ اجتمع في بيت السيد كاظم اليزدي كبار الملائية وكتبوا رسالة (عريضة)[١١] :

لحضرة القائد العام لجيوش بريطانيا العظمى .

نحن العلماء في النجف الاشرف ، نرفع الشكوى عنا وعن عامة الفقراء والمساكين والمجاورين في هذه البلدة المقدسة ، مستغيثين بمراحم هذه الدولة وعدالتها مسترحمين رفع هذا الاسر والحصار عن الابرياء والضعفاء الذين لا جناية لهم ولا تقصير ولا رضا . واشد البلاء قطع الماء فانه من العقوبات التي لا تُسوّغ في جميع الاديان البشرية ، فإن لم يكن رحمة للرجال فنسترحم الرأفة على النساء والاطفال ـــ وقد اشرفت النفوس على التلف والهلاك من الجوع والعطش وتعطيل الاسباب ، وهذه المعاملة ضربة على جملة العالم الاسلامي ، جارحة لعواطف عامة

المسلمين ، غير موافقة لما هو المعروف من سياستكم الحميلة في جلب عواطف عموم المسلمين ، فالمأمول إعمال التدابير الحازمة في رفع هذه الغائلة على وجه لا تهلك الضعفاء والابرياء باصدار العفو التام وتأمين البلاد ، وانتم اعرف بذلك .

– التواقيع –

وفي شهر نيسان نقل المستر بيرسي كوكس الى طهران وحلَّ محله (اي . تي ولسن Wilsom . وبالرغم من الرسائل المتبادلة والوفود من الوجهاء التي كانت تأمل من السلطات الانكليزية تخفيف الحصار عن النجف ، فان الادارة العسكرية الانكليزية امعنت في اجراءاتها القاسية . كما ان الثوار لم تضعف معنوياتهم بل زادوا اصراراً وعزيمة على مقاومة الاعداء الانكليز ، وقد احتدمت المعارك بين الفريقين واشتدت ضراوتها وابلى الثوار بلاءً حسناً . وكانت الحرب سجالاً بين كر وفر ، حتى يوم ٧ / ٤ / ١٩١٨ حيث تجمعت القوات الانكليزية وقامت بهجوم واسع النطاق فامطروا المدينة بوابل من القنابل والرصاص والقنابل اليدوية وتمكنوا من احتلال اجزاء من سور المدينة واخذوا يرمون كل من شاهدوه يمر في الطرقات او يتطلع من فوق بيت . كما اخذت الطائرات تحلق فوق النجف وترمي بالمنشورات تهدد بالويل والثبور . ثم اخذ الجيش المهاجم يهدم البيوت والاواوين والمباني الملاصقة للسور في محلة العمارة وكذلك بعض البيوت التي تقع خارج السور وهي بيوت صغيرة معظم سكانها من الفقراء . وبعد هدم البيوت قرر الانكليز هدم السور بواسطة قصفه بقنابل المدافع . وكانت هذه العمليات تهدف الى ارهاب الثوار .

وبعد ذلك هدأت الحالة إلا من بعض الحوادث العارضة وفي ١١ / ٤ / ١٩١٨ نادى المنادي في النجف على الثوار ان يسلموا انفسهم واسلحتهم ، وان كل من يخفي احداً منهم سوف يصلب ويهدم بيته . ثم توالت عمليات إلقاء القبض على الثوار واحداً واحداً . وكثير منهم تقدم بكل إباء وشمم وعزة نفس على تسليم نفسه الى قيادة الجيش ومنذ ١٢ / ٤ / ١٩١٨ بدأت السلطات العسكرية بالسماح لبعض الاسر والاشخاص بالخروج من النجف بعد الحصول على رخصة منهم . وفي ٤ / ٥ بدأ الانكليز برفع الاسلاك الشائكة من حول النجف وكان ذلك ايذاناً بفك الحصار عن هذه المدينة الباسلة .

وبدأت محاكمة الثوار الابطال في الكوفة يوم الاحد ٢٣ رجب ١٣٣٦ هـ الموافق ٥ / ٥ / ١٩١٨ وانتهت جلساتها يوم ٢٥ / ٥ / ١٩١٨ وجرت المحاكمة باللغة العربية ، وقد تألف المجلس العرفي العسكري من ثلاثة من الضباط الانكليز هم :

١ – الرئيس : ليجمان Leechmam
٢ – الكابتن ايدي Eadie
٣ – الكابتن روث Routh
٤ – الكابتن بلفور Balfour ممثلاً للادعاء العام .

فحكمت على (١٣) ثائراً بالاعدام شنقاً . وقد تمكن اثنان منهم من الهرب هما : عباس الخليلي الذي هرب الى ايران وشمران العامري الذي فرّ من سجنه مستغفلاً حارسه وعبر النهر سباحة . كما ابدل حكم الاعدام باحد المحكومين وهو عزيز الاعسم . كما قضت بحبس (٧) سبعة واجلاء (١٢٣) وطنياً الى الهند[١٢] .

اسماء الشهداء الابطال الذين اعدمتهم السلطة المحتلة في ١٨ شعبان ١٣٣٦ هـ = ٣٠ / ٥ / ١٩٢٠ م

١ – كاظم صبي
٢ – الحاج نجم البقال
٣ – كريم الحاج سعد
٤ – احمد الحاج سعد
٥ – محسن الحاج سعد
٦ – سعيد (مملوك الحاج سعد)
٧ – محسن ابو غنيم
٨ – عباس علي الرماحي
٩ – علوان علي الرماحي
١٠ – جودي ناجي
١١ – مجيد الحاج دعيبل

●

وكان الانكليز قد شنقوا قبل يومين في الموقع المعروف بـ (الثوية) خارج النجف كلاً من[١٣]

١ – كاظم بن الحاج مهدي
٢ – شعلان ناجية

وذلك لعلاقتهم بالانتفاضة التي قامت في (ابو صخير) ومن الشواهد على وحشية الانكليز ، انهم لم يشاؤا وضع الاغطية على وجوه من يجري اعدامه ، وهي تقليد متبع في مثل هذه الحالات في بلاد العالم كلها . بل جعلوها مكشوفة امعاناً في إلحاق الاذى والرعب في نفوس هؤلاء الابطال وهم مقبلون على الموت ، وكذلك ارهاب ابناء الشعب .

ونعود الى مصير رئيس جمعية النهضة الاسلامية السيد محمد علي بحر العلوم وبعض اعضائها كالعلامة المجاهد الشيخ محمد جواد الجزائري . فقد قرر الشيخ الجزائري تسليم نفسه في ٢٩ / ٤ / ١٩١٨ فنقل الى الكوفة ، ومنها نقل الى بغداد حيث اودع في معسكر الجيش البريطاني في ام العظام في كرادة مريم ، ثم نقل الى معسكر الشعيبة قرب البصرة تمهيداً لتسفيره الى الهند ، وقد توسط الشيخ خزعل امير المحمرة فطلبه للاقامة عنده وتحت مراقبته . فاقام في ضيافة الشيخ خزعل بضعة اشهر إلى ان صدر العفو عنه .

وفي ١٢ / ٥ / ١٩١٨ استدعى بلفور السيد محمد علي بحر العلوم رئيس الجمعية وبلغه انه مطلوب من قبل السلطات البريطانية في بغداد ، فارسله في سيارة اليها . وقام الانكليز في الوقت نفسه بتفتيش داره والاستحواذ على اوراقه وفي ٢١ / ٥ اعيد الى الكوفة وقدم الى المحكمة العسكرية وبعد انتهاء المحاكمة اعيد الى بغداد فاسكن في دار في محلة رأس القرية حيث مكث فيها نحو شهر تحت رقابة الجيش البريطاني ، ثم ارسل الى المحمرة بناء على طلب الشيخ خزعل على نحو ما طلب زميله الجزائري[١٤] .

● ●

قصيدة العلامة الشيخ محمد جواد الجزائري في وصف الواقعة نظمها يوم كان معتقلاً في بغداد قبل ان ينفى الى المحمرة .

مددنا بصائرنا لا العيونا ... وفـرنا غـداة عشقنا المنونا
عشقنا المنون وهمنا بها ... وعفنـا اباطحنا والحجونا
وقمنا بها عـزمات مضاة ... أبت ان نسيس الردى أو تلينا
هي الهمم الغر لم ترضَ يا ... لساكن مهما استفزت قرينا
رعينا بها سنة الهاشمي ... نبي الهدى والكتاب المبينا
وصنا كرامة شعب العراق ... وكنا لعلياه حصناً مصونا
وخضنا المعامع وهي الحمام ... ندافع عن حوزة المسلمينا
وجحفل اعدائنا الانكليز ... يملأ سهل الفلا والحزونا
يهاجم شعب بني يعرب ... ليشفي احقاده والضغونا
وسرب المناطيد ملء الفضا ... يصبُّ القنابل غيثاً هتونا
وقنف المدافع بين الجموع ... يهدُّ معالمها والحصونا
ورعد قذائف مكسيمها[١٥] ... يشيب لهول صداه الجنينا
ورمي البنادق رشاشة ... يحطم مجتمع الدارعينا

ولما ادلهمت علينا الخطوب ... وحققت الحادثات الظنونا

لقينا زعازع ريب المنون ... وهان على النفس ماقد لقينا
نعم خاننا الدهر في جسريه ... وهل يترك الدهر حراً ركينا ؟
غـداة أسرنا بايدي العدو ... ورحنا نكابد داءً دفينا
وضيم (الفريان) غاب العراق ... وفارق ليثُ العرين العرينا
وجزنا كما شاء تلك الحزون ... نتنظر الفتك حيناً فحينا
وارجلنا طوع قيد الحديد ... تسيل دماً يستفز الرصينا
ولم نلو للدهر جيد الذليل ... وان يكن الدهر حرباً زبوناً
وما ضامنا الاسر في موقف ... أطعنا عليه الرسول الامينا
وما ضامنا ثقل ذاك الحديد ... ونحن بحسن الثنا ظافرونا
ولم يزرِ بالحر غلُّ اليدين ... اذا ماقضى للعلاء الديونا
ولا غرو لو خان صرف الزمان ... حراً فما من طبعه ان يخونا

هذه أمة حصار مدينة النجف الاشرف وكان احد الشعراء ارخها بعبارة (حصار وغلا) ١٢٣٦هـ.

• • •

المصادر والمراجع

اعتمدنا في اعداد هذا البحث الموجز عن حصار النجف على عدد من المراجع نذكر منها :

١ ـ آل محبوبة (جعفر الشيخ باقر) ؛ ماضي النجف وحاضرها ، النجف ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٨

٢ ـ الاسدي (حسن) ؛ ثورة النجف ـ من مطبوعات وزارة الاعلام ـ بغداد ـ ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥

٣ ـ الحسني (عبد الرزاق) ؛ ثورة النجف ـ صيدا (لبنان) ـ ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م

٤ ـ الخليلي (جعفر) ؛ موسوعة العتبات المقدسة ـ النجف (القسم الاول) ، بيروت ـ ١٩٦٥

٥ ـ الوردي (د . علي) ؛ لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ـ الجزء الخامس ـ حول ثورة العشرين (القسم الثاني) ـ بغداد ـ ١٩٧٨

٦ ـ ولسن (السرارنولد) ؛ الثورة العراقية . ترجمة وتعليق جعفر الخياط ـ بيروت ١٩٧١

٧ ـ مجلة الثقافة الجديدة ـ بغداد ـ ١٩٦٩

١ ـ آل محبوبة (جعفر الشيخ باقر) ؛ ماضي النجف وحاضرها ، ص ٣٢٠ ـ ٣٤٠ .

٢ ـ الحسني (عبد الرزاق) ؛ ثورة النجف بعد مقتل حاكمها الكابتن مارشال . صيدا ـ ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م ص ١١ ـ ١٢ .

٣ ـ الحسني ، المصدر نفسه ص ١٢ .

٤ ـ الحسني ، ص ٢٦ ـ ٢٧ .

٥ ـ كمونة ، ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦ .

٦ ـ الحسني ص ٢٩ .

٧ ـ الحسني المصدر نفسه ص ٣١ .

٨ ـ الوردي (د . علي) ؛ لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث . الجزء الخامس ـ ثورة العشرين ـ القسم الثاني ، ص ٢٢٦ .

٩ ـ في العدد الصادر في تموز ١٩٦٩ .

١٠ ـ مجلة الثقافة ، ص ٣٠٣ .

١١ ـ الوردي ، المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ .

١٢ ـ تراجع : (١) ـ الحسني ، ص ٨٠ ـ ٨٨ .
(٢) ـ الوردي ، ص ٢٥٣ ـ ٢٦٩ .

١٣ ـ ثورة النجف للحسني ص ٧٨ ـ ٧٩ .

١٤ ـ الوردي المصدر نفسه ، ص ٢٤٩ .

١٥ ـ مكسيم Maxim نوع من المدافع الرشاشة من اسلحة الجيش الفرنسي كان إستخدمه الجيش التركي وهو معروف عند العراقيين في الحرب الاول .

دراسة

انماط من الحصار على العراق

(١١٥٦هـ ، ١٧٤٣ م)

بقلم الباحث

عبد الجبار محمود السامرائي

عضو اتحاد المؤرخين العرب - بغداد

حصار الموصل وما جاورها



نادر شاه

● خلال الفترة الممتدة بين السنوات (١٦٣٩ - ١٧٢٩ م) اضطربت أحوال الدولة الفارسية ، وتعرضت بلاد فارس الى غزو الافغان والروس ، كما شهدت صراعات داخلية خطيرة ، مهدت السبيل أمام العثمانيين ، لدفع التوسع العثماني الى أقصى مداه باتجاه الشرق[1] على أن هذا الوضع ، لم يستمر طويلا ، فقد استطاع قائد مغمور يدعى « نادر قلي » - الذي عرف فيما بعد بـ « نادر شاه » - أن يبعث الحياة في الدولة الفارسية الصفوية شبه الميتة ، كما نجح في دحر الافغانيين وطردهم من فارس ، وانطلق نحو إستعادة الممتلكات التي احتلّها الروس والعثمانيون[2].

● قد يكون أمراً طبيعياً أن يحاول حاكم الفرس الجديد « نادر شاه » رد الاعتبار للدولة الفارسية المنهارة ، وذلك ممكن عن طريق منازلة غرمائه العثمانيين في الاناضول مباشرة (كما فعل العثمانيون عندما دحروا الفرس في عقر دارهم في جالديران عام ١٥١٤ م ، ولكنّ الذي حصل هو أن « نادر شاه » بعد أن أبى الاعتراف بمعاهدة (١٧٣٢) التي وقعها الشاه (طهماسب) مع الدولة العثمانية[3] عمد الى غزو العراق ، ضمن سياسة عقيمة ، اتسمت بأبعادها التخريبية الواضحة .

لم تمض غير مدة قصيرة حتى كان « نادر شاه » على رأس جيش عرمرم في طريقه الى بغداد . كان ذلك في خريف ١١٤٥هـ/١٧٣٢ م . فقد بعث برسالة الى (أحمد باشا) - والي بغداد - يتوعده فيها وينذره بأنّه زاحف نحو بغداد لاحتلالها ! حيث خاطبه قائلاً : (نحن سائرون حالاً على رأس جيشنا المظفر لنتنسم هواء سهول بغداد العليل ولنستريح في ظل إسوارها) ! فاسرع أحمد باشا بتحصين مواقع الحدود في درنة ومندلي وبدرة ، وعزز حامياته في زهاب وقصر شيرين ، ثم أصلح مراكز

الدفاع القائمة في سور بغداد[٤] وأعد المؤن وجهز القادرين على حمل السلاح تجهيزاً كاملاً . كما أرسل الوالي أحمد باشا – الذي أوتي من القدرة والكفاءة قدراً عظيماً – يطلب الامدادات من والي الموصل (حسين باشا الجليلي) الذي أمده بألف من الرجال الانكشارية[٥]

● لقد واجهت القوات الايرانية التي كانت تقدر بمائة ألف جندي ، مقاومة عنيفة خلال توغلها في الأراضي العراقية أجبرتها على التقهقر في عدة مناطق . وكانت تلك القوات قد توزعت عند دخولها الأراضي العراقية ضمن عدة محاور ، فتقدم قسم منها باتجاه كركوك – أربيل ، وقسم باتجاه الموصل ، في حين كانت القوة الرئيسة تواصل زحفها نحو بغداد ، وقد اضطرت القوات الايرانية في محوري كركوك – أربيل والموصل الى التقهقر بعد أن تكبدت خسائر فادحة ، وقتل قائد القوات المهاجمة للموصل[٦] المدعو (نركز خان) وحمل المقاتلون الموصليون رأسه على رمح[٧] وبذلك استحقوا وصف السيد الرئيس القائد صدام حسين (حفظه الله ورعاه) بأهل الرماح[٨]



طهماسب

حصار بغداد

● في مطلع سنة ١٧٣٢ كانت القوات الفارسية ، بقيادة « نادر شاه » تطبق على العاصمة التاريخية (بغداد) ، غير أن القوات الغازية واجهت مقاومة باسلة في مناطق مختلفة من العراق ، كان أبرزها المقاومة الشجاعة في (تكريت) . يقول المؤرخ رسول الكركوكلي:

(عند وصول قوات نادر شاه الى تكريت ، تصدى لها مصطفى باشا بمشاركة السكان الغيارى على أعراضهم ودينهم)[٩]

● لقد بدأ (نادر شاه) بفرض حصاره على الجانب الشرقي من بغداد ، واستعان بمهندس أوربي كان يرافقه في حملته ، وفي إنشاء جسر عائم ، من جذوع النخيل ، على بعد عدة أميال من نهر دجلة ، وإزاء ذلك أمر (أحمد باشا) سكان جانب الكرخ بالانسحاب العام الى الرصافة ليكونوا في حماية سورها المنيع ، وفي غضون ذلك ، كانت ارتال من القوات الايرانية قد بعثها « نادر شاه » لاحتلال سامراء والحلة وكربلاء والنجف والحسكة[١٠]

● في أواخر رجب ١١٤٥هـ / كانون الاول ١٧٣٢ بدأ الحصار الفارسي لمدينة بغداد ، وفشلت محاولات عديدة لاقتحام المدينة ، وعمد « نادر شاه » الى قطع الطرق الموصلة بين بغداد والموصل وبين بغداد والشام ، وكذلك بين بغداد ومدن الفرات الأوسط . وواضح تماماً ان « نادر شاه » كان يرمي من وراء ذلك عزل مدينة بغداد وحاكمها المحاصر (أحمد باشا) عن قواعد التموين التقليدية . يقول كركوش الحلي :

(أنّ القوة الفارسية التي بعثها نادر شاه الى الحلة – جنوب بغداد – تمكنت من احتلال المدينة ، وقامت بقطع الطرق وقوافل الحبوب والاغذية عن مدينة بغداد . وبقيت القوة ترابط في المدينة وبضعة مواقع أخرى لحين توقيع الصلح بين الطرفين ، فانسحبت القوات الغازية وحلت محلها القوات العثمانية)[١١]

● لم يفت الحصار الشديد في عضد المدافعين ، وكانت معنويات البغداديين عالية . فقد كانوا مؤمنين بأن القتال فرض عليهم وليس لهم الا الدفاع والصبر . ومن آثار الضيق الذي أصبح عليه السكان في بغداد بسبب الحصار الذي فرض عليها ، أن أخذت ويلات المجاعة شكلاً مروعاً ، فأكل الناس لحوم الحمير والكلاب والقطط ، وانتشرت الاوبئة ، وبلغت الحالة – كما يصفها الشيخ عبد الرحمن السويدي – في أثناء خروجه من المسجد ، بعد انتهاء صلاة الجمعة ، أنه شاهد في طريقه امرأة منكبة على جيفة حمار وبيدها سكين تقطع من لحمه وتضعه في حجرها ، ورغم ذلك فإن القيادة الايرانية حين دعت بغداد للاستسلام ، تلقت خطاباً شديد اللهجة من وجهائها وعلمائها ، جاء فيه : (نحن لا نسلّم حجراً من أحجار بغداد حتى نُقبر في مكاننا هذا ، وان ذخيرتنا كافية ، وعندنا كثرة متواصلة المدد ، ولم يكن توقفنا عن مناوشتكم في بعض الايام دون حكمه ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)[١٢]

أما القوات العثمانية المحاصرة ، فانها كانت تتطلع لنجدات السلطان ، وحالهم في ذلك حال الأرض المعطش الى الماء[١٣]

● أحمد باشا (والي بغداد) حاول بذكائه الحاد ، إقناع « نادر شاه » بالانسحاب ، فقد دفع بقوة من المغاوير للقيام بهجوم فدائي ضد القوات الفارسية ، وقد أفلحت القوة في توجيه ضربات شديدة الى القوات الغازية ، ولكنها اضطرت الى اللوذ بأسوار المدينة المحاصرة ، بعد أن تكبدت خسائر مختلفة[١٤] .

● لقد كانت آمال « نادر شاه » بجدوى الحصار توازي آمال (أحمد باشا) بتجاوز هذه المحنة .

ونشط الخصمان المحاصِر والمحاصَر في امتحان قدرات بعضهما

للبعض الاخر ، وذلك في محاولات متشابهة لتحقيق نتائج حاسمة . ويروي أن الوالي المحاصر (أحمد باشا) كان يشيع بين قواته أخباراً تفيد بان الامدادات العثمانية أصبحت قاب قوسين أو أدنى[15]

● ومن طريف مايروي عن هذا الحصار ، ان والي بغداد استقبل وفداً من معسكر الفرس ، وان الوفد فوجيء بوجود كميات كبيرة من المؤونة معروضة على قارعة الطريق ، وقد أثر في حينه بان والي بغداد نجح في تضليل الفرس واقناعهم بان وقتاً طويلا سوف يمضي قبل أن يكون بمقدرتهم إجبار المدينة على الاستسلام[16].

● لقد اجتازت بغداد حالة الحرب والحصار والتجويع ، بفضل وعي السكان ومؤازرتهم للجهود المبذولة في سبيل الوطن . لقد كان الحصار امتحاناً للبغداديين جميعاً ، وقد أبلى في سبيل تجاوزه الغني والفقير على السواء[17] .

● في السادس من صفر ١١٤٦هـ/١٩ تموز ١٧٣٣ دارت معركة حامية بالقرب من (الدجيل) استمرت تسع ساعات متواصلة ، انتهت بهزيمة القوات الايرانية وتكبدها خسائر فادحة تقدر بثلاثين ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير ، إضافة الى فقدانهم لمدفعيتهم وذخائرهم ، وهرب قائدهم (نادر شاه) ومعه فلول قواته المنهزمة عن طريق (بهرز) باتجاه الاراضي الايرانية . وقيل بان الغنائم التي جمعت من المعركة ، كانت تكفي لتحصين وتسليح مدينة . أما بغداد التي مضى على حصارها سبعة شهور ، فإن حاميتها قامت عند وصول أنباء الانتصار بمهاجمة القوة الايرانية عند أسوارها ، فقتل معظم أفرادها وهرب الباقون[18] وزفت بشائر هذا النصر المؤزر في الموصل وكركوك والشام والاناضول .

الحصار الايراني في محور كركوك - اربيل

● بعد نحو ثلاثة شهور ، عاودت ايران عدوانها على الاراضي العراقية في محاولة يائسة أخرى ، لإزالة آثار الهزيمة التي لحقت بها في بغداد ، فعبرت قواتها الحدود العراقية ، وتقدمت أرتال منها باتجاه محور كركوك - أربيل ، وعند وصولها سهل (ليلان) جنوبي شرقي كركوك في الخامس عشر من جمادي الاولى ١١٤٦ هـ/ ٢٤ تشرين الاول ١٧٣٣ ، واجهت مقاومة عنيفة ، ثم دارت معركة حامية عند مضيق (آق دربند) ، أسفرت عن تكبد الطرفين خسائر فادحة . وقد اضطر (نادر شاه) الى طلب الصلح ، ولاسيما انه تلقى اخباراً عن تفاقم الاضطرابات في مختلف أنحاء إقليم فارس بثورة للاطاحة بحكمه . وبعد مفاوضات استمرت أكثر من اسبوع ، عقدت معاهدة صلح في الحادي عشر من رجب ١١٤٦هـ/ ١٩ كانون الاول ١٧٣٣ بين الدولتين .

● غير أن أطماع ايران لم تحل دونها أية معاهدة ، إذ عاودت عدوانها على العراق مرة أخرى ، وتركز في هذه المرة على البصرة . ففي نيسان ١٧٣٥ دخلت الى شط العرب ثلاث سفن ايرانية كبيرة من نوع (الغراب) وخمسون سفينة كبيرة من نوع (الترانكي) ، إضافة الى قوة ايرانية برية مؤلفة من ثمانين ألف جندي ، بدأت بالتقدم أعلى النهر ، وعند الجزء الضيق من شط العرب ، اسفل البصرة بخمسة عشر ميلاً ، دار قتال مرير لمدة ثلاثة أيام انتهى بانسحاب القوات المعتدية[19] .

عندما انتهى الحصار بهدنة مؤقتة

● ان المعاهدة التي توصل اليها العثمانيون والفرس في سنة ١٧٣٦ لم تكن غير هدنة مؤقتة ، ولذلك فإنه لم تمض سوى فترة قصيرة على توقيعها حتى اسرع الفرس الى خرقها ، كما بدأوا سنة ١٧٤٣ حملة جديدة على العراق (عرفت بحملة مابين النهرين) .

● لقد كانت العلاقات السياسية بين الدولتين ، العثمانية والفارسية ، تعبيراً أكيداً عن النيات العدوانية التي بيتتها الطرفان ، بعضهما للاخر ، على أن الانكى من ذلك هو قصور الفرس عن ادراك أبعاد سياستهم التكميرية تجاه العراق .

● على أية حال ، فقد أظهرت الرسائل المتبادلة بين (نادر شاه) و(أحمد باشا) الذي أعيد لولاية بغداد من أجل مواجهة الهجوم الفارسي الجديد بأن الشاه كان يحاول إغراء الوالي العثماني للانقلاب على العثمانيين .

● في هذا السياق ، ألح (نادر شاه) على (أحمد باشا) وأكد له بان وضع الوالي على رأس حكومة بغداد لن يتغير فيما إذا سلّم بغداد للفرس ، كما أكد له بانه لا ينوي السوء تجاه بغداد والبغداديين ! وان أحمد باشا بوسعه أن يكفل أمن الجميع بتسليمه البلاد[20] ولم تنطل خطة (نادر شاه) وخدعته على الوالي (أحمد باشا) بطبيعة الحال .

● وبرغم تضارب الروايات حول الرد الذي أرسله أحمد باشا الى الشاه[21] الا أننا نستطيع القول بان أحمد باشا كان يدرك الابعاد الوطنية لمقاومة بغداد بوصفها الطاقة الكامنة التي حفظت له مركزه السياسي بوصفه رجل سياسة ناجح وقائد محنك ، ولذلك فإن الذي نرجحه - وهو أمر يبدو واضحاً من سياق الاحداث - ان أحمد باشا استطاع أن يضلل نادر شاه ويجره الى مجابهة شاملة ، شنت فيها جيوش الشاه في العراق بأكمله[22] وكانت الموصل مسرحاً لهذه المجابهة الحاسمة .

من ذيول حصار الموصل

● في سنة ١١٥٦ هـ/١٧٤٣ شنت ايران هجوماً واسعاً على العراق . حيث عبرت قواتها بقيادة نادر شاه نفسه ، وكانت تقدر بمائة وسبعين ألف جندي ، عبرت الحدود من جهة مندلي وشهرزور ، وتقدمت باتجاه محور كركوك - أربيل . ولما كان هدف القوات الايرانية الاستيلاء على بغداد ، فإن خطتها كانت ترمي الى السيطرة على الموصل أولاً ، وذلك لقطع خطوط المواصلات بين القيادة العثمانية وبغداد ، مما يسهل احتلالها من قبلهم ، لذلك ، واصلت تلك القوات تقدمها نحو الموصل ، التي كانت قد تسربت إليها أنباء من القوات الايرانية نفسها عن الخطة المبيتة ، فاستعدت للدفاع عن حياضها بحماس شعبي منقطع النظير ، وهيأت الخنادق ، وأصلحت الاجزاء المتصدعة من سور المدينة ، وحصنت القلاع بالمدافع ، وتجهزت بالذخيرة اللازمة[23]

● في ١٤ رجب ١١٥٦هـ/١٢ أيلول ١٧٤٣ ، تقدمت قوات (نادر شاه) نحو مدينة أربيل فخربتها وفتكت باهلها فتكاً ذريعاً ودمرت قراها . وفي الوقت عينه ، حاول (نادر شاه) إرهاب أبناء الموصل بغزوه لاربيل ، مذكراً أياهم سوء العقاب الذي ينتظرهم أن هم رفضوا الانصياع ولم يستسلموا لقواته . وأوعز إلى « ملا باشي علي أكبر » رئيس ماكان يسمى بعلماء ايران أن يكتب لاهل الموصل ، يرغبهم بالاستسلام ويحذرهم من عاقبة المقاومة ، فكتب (ملا باشي) الى مفتي الموصل (يحيى افندي

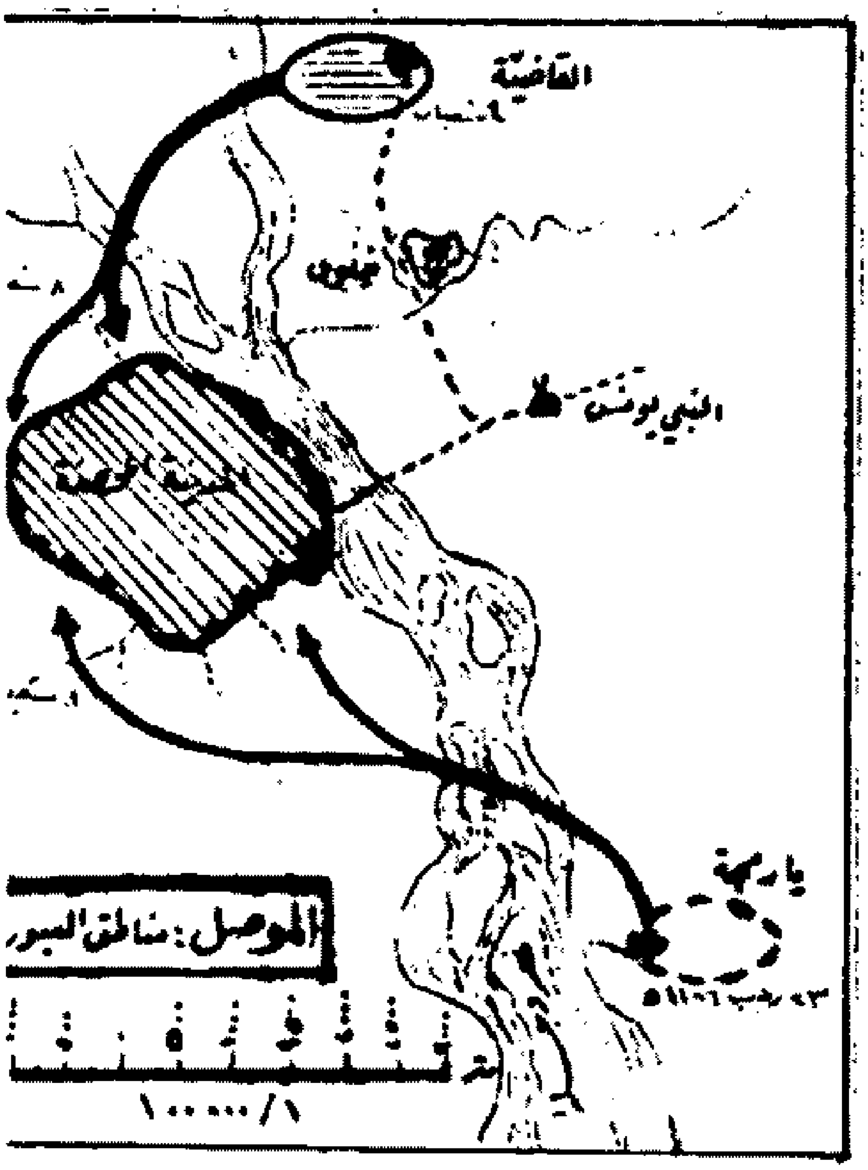
الفخري) :

(اعلموا أنّا جند الله ، خلقنا من رحمته وغضبه ، فالبشرى ثم البشرى لمن اتبعنا وهوانا ، والنذرى ثم النذرى لكل من خالفنا وعصانا ، أو ليس لكم من اثار الماضين تبصرة ومعتبر ؟ ألا فتذكروا أخبار الهند والسند والترك في النموذج الذي وصل إليكم من وقائعهم وملاحمهم ، وحقائق جيرانكم من أهل كركوك وما والاها ، كيف تمنّتوا فندموا ، ثم أطاعوا فنجوا ، منهم ذوو الحظ في جلباب أمن وأمان . وشفقة ودعة وامتنان « ولا تلقوا بايديكم في التهلكة » ... لا تقدرون على اندفاع ... فلا تعرضوا أعماركم للانقطاع . وليبلغ الشاهد منكم المستمع لكتابنا الغائب . والسلام) .

● بعد اطلاع (حسن باشا الجليلي) والي الموصل على عنجهية (نادرشاه) نصب خيمة في ظاهر المدينة ، قرب الجامع المجاهدي على دجلة ، ودعا الناس للاجتماع ، لاطلاعهم على تلك الرسالة الفارسية المشحونة بالتهديد والوعيد ، وطلب منهم إبداء الرأي والمشورة واتخاذ القرار . فصاحت الجموع المتحشدة بصوت واحد ، معلنة استعدادها التام للذود عن حمى الوطن ، والوقوف بوجه الطاغية الغازي « نادرشاه » بكل عزم وثبات ، وإنْ أحب نادرشاه الموت فليهلكم . ثم طلب والي الموصل من المفتي (يحيى الفخري) أن يكتب لنادرشاه على لسانه ولسان أبناء الموصل خطاباً شديد اللهجة ، بلغة عربية فصيحة تعبيراً عن اعتزاز المدينة بعروبتها وتراثها . ومما جاء في ذلك الخطاب : (بسم الله ، وما اعتصامنا الا بالله ، ومن لاذ بكهف كفايته كفاه وحماه ـــ وصل كتابكم المرسل الى العامة المشتمل بزعمكم على الطاقة ، فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ، مفتخرين به بانكم جند الله ، مخلوقون من الغضب ، « تبت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب » .

فما وعيدكم عندنا الا كصرير باب أو كما طنّ في لوح الهجير ذباب ، افرأيتهم ان القصاب تهوله كثرة الغنم ؟ أو الاسد الغشمشم يدهشه تراكم النعم ؟ تذكروننا بما فعلتم بالسند والهند مع أولئك العلوج ، وما سطوتم على الترك بقية ياجوج وماجوج ، وتدهشوننا بما فتحتم من قلعتي كركوك وأربيل ، وترعبوننا بامثال هاتيك الاباطيل ، كلا ستعلمون ، ثم كلا ستعلمون ، الرقاع بالرقاع ، ونحن الأسود الضارية والسباع الكواسر العادية ، اسيافنا صقيلة ، وسطوتنا ثقيلة ، وحلومنا رزينة ، وقلوبنا كالحديد متينة ، وجلدتنا بحمد الله حصينة فلا سمعاً لكم ولا طاعة وأهلًا بالسعادة والشهادة هذه الساعة ، فما بيدنا إلا ما صنع الحداد من سيوف حداد ورماح مداد ـــ[٣٥] هكذا قال (أهل الرماح) متحدين الغزاة .

● في ٢١ رجب ١١٥٦هـ/ ١٠ أيلول ١٧٤٣ ظهرت طلائع قوات (نادرشاه) بالقرب من قرية (يارمجة) شرقي دجلة على بعد زهاء خمسة كيلومترات عن مدينة الموصل ، فاسرع الوالي حسين باشا الجليلي بإرسال ثلّة من الخيالة يقدر عددها بثمانمائة مقاتل ، يقودها أخوه الشاب عبد الفتاح بك الجليلي ، للتصدي للقوات الغازية ، وبعد قتال عنيف ، تمكنت هذه القوة من الانسحاب الى المدينة على الرغم من محاولة الايرانيين قطع طريق عودتها[٣٦] وبعد أربعة أيام ، وصل (نادرشاه) وقواته الى (يارمجه) فعسكر فيها ، وأمر بنصب المعابر



على نهر دجلة ، أعلى وأسفل الموصل ، وأرسل قسما من قواته الى الجانب الغربي من النهر ، كي يكملوا الالتفاف حول المدينة . وفي الوقت عينه ، بعث رسولاً الى الوالي (الجليلي) محذراً إياه من بطشه[٣٧] ويخبره أنه طوّق المدينة ، ويطلب منه أن يستقبل الرسول بالطاعة والاذعان والا سيكون مصير الموصل محتوماً ، وستسفك الدماء ، ويلقى على أهلها نار غضبه . فرَدّ الوالي الجليلي على رسالة نادرشاه رداً عنيفاً متحدياً تجبره وتماديه في البغي والعدوان ، جاء فيه : (ما بيننا وبينك الا السيف والسنان ، فلا تماطنا ، بالرسل والتهديدات وان أتانا منكم رسول آخر لاعيدنه اليكم جثة بلا رأس ، فتقدم ولا تبطيء ، ولا يفلح الساحر حيث أتى)[٣٨] .

● لقد تهيأ الفرس ، بعد أن أحاطوا بالمدينة تماماً ، بإقامة المتاريس والاستحكامات ، حيث شيدوا في مواجهة ابراج سور المدينة ، اثني عشر برجاً تحتمي بها مدفعيتهم التي كانت تتكون من (١٦٠) مدفعاً ثقيلاً و (٢٣٠) مدفع هاون . وقد فتحت هذه المدافع نيرانها مرة واحدة في ٦ شعبان ١١٥٦هـ/ ٢٥ أيلول ١٧٤٣ ، ولمدة ثلاثة أيام بلياليها على مدينة الموصل ، دون توقف ومن كل الجهات ، فتصدع السور في عدة أماكن ، لكن المدافعين الذين كانوا مسلحين بالايمان ، كانوا دائماً يتمكنون من اصلاح الثغرات قبل ان يجد الفرس سبيلاً الى النفاذ خلالها . وتصف المصادر كيف أن قنابل المدفعية الايرانية (كانت نهاراً

نا ، فإنه استنفر العشائر المحيطة بالمدينة لتسهم في الدفاع عنها جنباً الى جنب مع قوات الولاية وسكان المدينة ... ويذكر أن العشائر كانت من القبائل العربية والكردية والتركية القاطنة في المناطق المجاورة لمدينة الموصل . ويذكر أيضاً بأن الوالي الجليلي - ألقى خطاباً بين المدافعين ، أخذ خلاله العهد من الجميع بقتال الغزاة حتى النهاية[٣١].

● من ناحية أخرى ، فقد أثمرّت جهود العناصر التي دخلت المدينة في تدعيم الاسوار والحصون وحفر الخنادق وإجراء الماء فيها . ويقال بأن الوالي - الجليلي - وشراة المدينة اشتركوا في أعمال التحصين[٣٢] حيث كانت الموصل عندما وصلها (نادرشاه) قد بلغت درجة كافية من الاستعداد للمواجهة [٣٣] والتحدي .

● لقد برهنت أولى المعارك التي جرت خارج مدينة الموصل على أهمية الاحتماء باسوارها المحصنة في أكثر أجزائها تحصيناً جيداً . وقد حاول « نادرشاه » منذ بدء الحصار امتحان ثقة الوالي واستعداداته فعرض عليه الاستسلام كي تسلم المدينة من التدمير ويسلم المحاصرون من الهلاك ، ولكن تهديداته تلك جوبهت بالسخرية من لدن المحاصرين - فكانت إجابتهم التحدي[٣٤]

قــــام الحصـــــام عـــــلى البـــــازي يهـــــددهُ
واستصرخت بـــــأســـــود الغـــــاب أضبعـــــهُ
يـــــامن يســـــدّ فم الأفعى بـــــأصبعـــــه
يكفيـــــه مـــــا قـــــد يـــــلاقي منـــــه .. إصبعـــــه

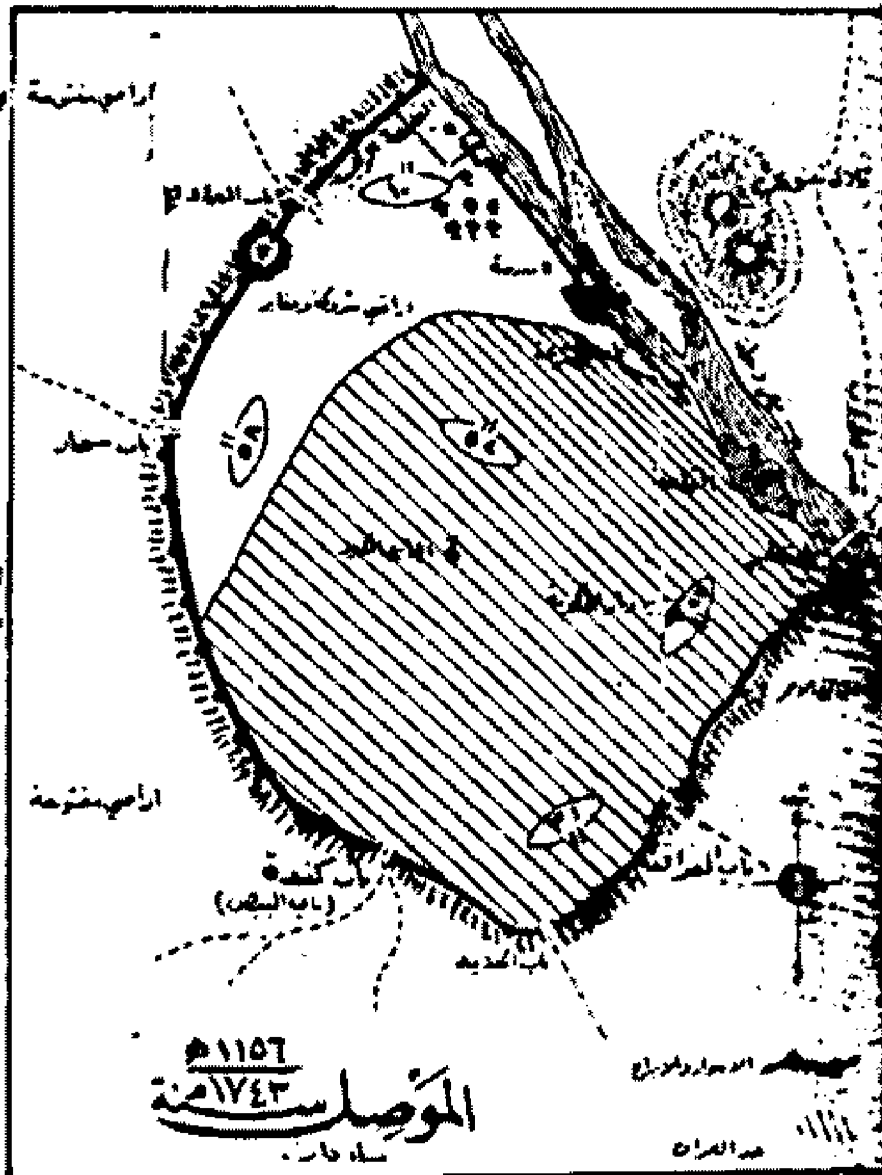
● لقد دفع تحدي الموصل المحاصرين بنادرشاه الى تشديد الحصار ، كما قامت مدفعيته بقصف المدينة قصفاً شديداً ليلاً ونهاراً ، ثم أصدر « نادرشاه » أوامره بالهجوم على أبراج السور كافة ، وحاولت القوات الغازية تكثيف هجماتها على بعض المناطق الواهنة من سور المدينة ، ولكنها رُدّت على الاعقاب . وبلغ من شجاعة المدافعين أنهم سدّوا الثغرات بالعشرات من جثث الشهداء الذين لقفلوا الموت عند الاسوار حتى لا يسمحوا للعدو بالمرور[٣٥] واقتحام المدينة .

● أما المجهود الحربي لنادرشاه ، فقد وصفه صاحب (منهل الأولياء) فقال : (باشر نادرشاه بضرب المدافع على البلد . فكان يوماً عبوساً قمطريرا . بحيث يرى الناظر ان السماء أمطرت ناراً على الأرض ، وهاجت الحرب وماجت الأرض ، وعلا الصراخ ، وكثر الوعيد كالصواعق - وأما القنابر =[قذائف الهاونات واحدتها قنبرة] ، فإنها اشتبكت في الجو مثل النجوم الزاهرات ، منقضاتٍ في جو السماء حوالي البلد كأنهُنّ أشطان بئر)[٣٦]

ويقال بأن عدد القنابل التي ألقيت على المدينة والاسوار ، بلغت (٥٠) ألف قنبلة في الايام الأولى من احتدام المعارك[٣٧] كما سقط خلال مدة الحصار (١٠٠) ألف قنبلة على أحد أبراج المدينة المسمى (برج باشطابية)[٣٨]

● ولم تنجح محاولة الشاه في ثني العراقيين عن المقاومة بتحويل احدى شعبتي نهر دجلة ، وهو مورد أهل الموصل الرئيس ، في تحقيق هدفه ، فقد شرب الموصليون مياه الآبار دون أن يؤثر ذلك في صحتهم وعزائمهم[٣٩] واصرارهم على دحر الغزاة .

● ولما أيقن (نادرشاه) ان حصاره للموصل لا يؤدي الى نصر حاسم ،



تساقط على الأسوار كالمطر ، وليلاً تتناثر كنجوم من أديم السماء) ولم تؤثر في عزيمة أهل الموصل وصمودهم ، وهذا ما جعل « نادرشاه » ... مقر قيادته من (يارمجة) الى موقع قريب من المدينة ، ليشرف ... على القتال ، فأمر بقصف مدفعي شديد لبرج (باش طابية) في ... الموصل ، حيث مقر الحكومة ، فتمالت من البرج أصوات التكبير ، ... مدفعيته بإطلاق النار على المهاجمين ، بعد أن غزارة القصف أدت ... جانب من البرج ، لكن المجهودات العظيمة التي بذلت ، أحكمت ... من جديد[٣٩] .

... وصلت أنباء تقدم (نادرشاه) قبل الهجوم على الموصل ، ... الجهود قاطبة للدفاع عن المدينة . وقبل وصول (نادرشاه) ... الموصل بمدة مناسبة ، كانت المدينة تعج بالحركة والهياج ، على ... مدينة بغداد التي واجهت أنباء تقدم (نادرشاه) بالهدوء ، ... (أحمد باشا) بإجلاء قسم من السكان للمساعدة في ... المؤونة الكافية للدفاع ، فإن والي الموصل (حسين باشا ... فتح أبواب المدينة لاستقبال (أفواج اللاجئين) من القرى ... يذكر بأن هؤلاء اللاجئين قدموا للموصل التموينات والذخائر ... المدينة كانت بأمس الحاجة اليها)[٤٠] وقد عبرت هذه ... الوضعية الحقيقية للموصل آنذاك . ومن المعتقد أن والي ... بأن امكانات المدينة للدفاع والصمود كانت محدودة ،

أمر بمضاعفة عدد المدافع والجنود ، وتركيز القصف على قلعة (باشطابية) وباب سنجار ، محاولاً تدمير الموقعين ليسهل الهجوم على المدينة . ولقد أحدث القصف ثلمات في باب السور قرب سنجار ، بحيث يتسع لدخول الخيالة من الجيش الفارسي الى المدينة ، ولكن اهل الموصل البسلاء كانوا قد وضعوا أكياساً مملوءة بالتراب لسد ما احدث ، القصف من ثلم في السور ، كي لا ينفذ الاعداء من خلالها الى المدينة .

● في منتصف شهر شعبان ١١٥٦هـ/٢ تشرين الاول ١٧٤٣ ، نقل الطاغية (نادرشاه) مركز قيادته من قرية (يارمجة) الى قرية (القاضية) التي تقابل مدينة الموصل في الجانب الشرقي من دجلة ، نصب جسراً بين القاضية والموصل ، وعبر مع عدة آلاف من جيشه ليشرف بنفسه على ادارة المعركات ؛

● استشار (نادرشاه) أهل الرأي من جيشه فيما يقومون به ، وقد نفدت أكثر القنابل التي كانت مع جيشه ، ولم تُجدِ نفعاً ، كما جُرح العدد العديد من جيشه ، وأهل الموصل صامدون ، واتفقوا على أن يقوموا بخطة عنيفة في الهجوم على المدينة كالاتي ؛

أ . أن يحفروا أربعة ألغام في سور الموصل ، اثنان منها شمالي المدينة ، واثنان في الطرف الغربي منها مقابل مسجد الشيخ (قضيب البان) – الواقع بظاهر الموصل ويقابل باب سنجار ويبعد عنه قرابة نصف كيلومتر – وذلك لكي يشعلوها عند الهجوم ، وأن يدبروا هذا الامر ليلاً . وفات على (نادرشاه) أن أهل الرأي والسداد قد حفروا آباراً في نصف السور وستروها ، حتى اذا ألغم السور ، اندفعت قوة البارود الى الابار ، فسلم السور .

ب . أن يعدوا ألف سُلّم توضع على السور ، لكي يصعد عليها جنود الغزو . وكان في جيش (نادرشاه) من يتجسس عليهم ، ويعلم أهل الموصل بما يدبرون ، ومنهم « بدوي » . ولما علم هذا بتدبيرهم ، وأن قنابلهم على وشك النفاد ، وانهم يحاولون آخر هجوم قوي يكون على السلالم ، ركب فرسه وأخذ يدور ظاهر السور ويغني ؛

مبشينا كن خلص
عجورنا كن تم
لكن بالكم بالكم
مِنْ الطويل الطويل
على البدن يندم[10]

ولم يكن الفرس يعلمون بما كان يقصده (بدوي) وحسبوا انه يحرض جيشهم على الثبات والحرب ! وكان الموصليون يعلمون بما دبره العدو .

ج . أن يضعوا (اكياس من نسيج الشعر) تعرف بـ(الغرائر) ملأوها بالتبن حول السلالم لكي يشعلوها عند الهجوم ، فيستتر بدخانها من على السلالم .

د . أن يضاعفوا القصف بشدة لكي يشغلوا أهل المدينة والمحاربين عما يقومون به من هجوم .

هـ . اختار « نادرشاه » خمسة آلاف من جنوده الاقوياء وجهزهم بالخناجر والسيوف ، لكي يصعدوا على السلالم ويفتكوا بالمدافعين .

و . أوقف « نادرشاه » ثلة من الخيالة وراء المهاجمين لكي يفتكوا بمن يفر من جيشه ، وكان هو مع الخيالة .

● لقد أعد « نادرشاه » هذا كله خلال أيام معدودات ، وعيّن يوماً للهجوم على الموصل تحت جنح الظلام ، وقصف المدافع الشديد . أما التدابير التي اتخذها أهل الموصل فكانت الاتي ؛

أ . زادوا عدد المدافعين في الجهة الشمالية من المدينة وفي غربها ، وضاعفوا من عدد المدافع والبنادق ، وكمية كبيرة من القنابل والبارود .

ب . نقلوا حجارة كبيرة ، ثبتوها في أعلى السور ، ليلقوها على من يقترب من سور البلد .

ج . حملوا السيوف والخناجر ، وكمنوا خلف السور ينتظرون هجوم الاعداء .

● وفي غلس الليل ، أمر « نادرشاه » بتنفيذ ما أعده للموصل من هجوم فاشعل جنوده الالغام . فجعل الله كيدهم في نحرهم ، حيث اشتعل اللغمان اللذين وضعوهما في أساس السور ، شمالي المدينة ، وكان وبالاً عليهم ، فمات قرابة اللغمين خاسرة أما اللغمان اللذان نصبوهما قرب باب سنجار ، فلقد تسربت قوتهما الى الابار ، وفشلت هذه المكيدة ، وعادت عليهم بالسوء .

● وفي الوقت عينه ، ضاعف المعتدون القصف على السور والمدينة ، وأشعلوا التبن الذي كانوا قد أعدوه تحت السور قرب السلالم ، وصعد المهاجمون على السلالم ، فاستقبلهم أهل الموصل بالسيوف والخناجر ، يقطعون رؤوسهم ويرمون بها الاعداء ، وكلما تقدم من الاعداء جماعة ، لقوا حتفهم ، فارتبك جيش « نادرشاه » ، وراح الغزاة يلوذون بالفرار ، فامطرهم جند الموصل الحامين بالقذائف والرصاص ، وألقوا أكثرهم قتلى في الخندق الذي كان يحف بالسور (بعرض ٥٠ قدماً وعمق ٢٠ قدما) . ثم نزل الموصليون الى من سلم من الاعداء ، وفتكوا بهم ، ففر أكثر المهاجمين ، وكان « نادرشاه » مع الخيالة ، يصد جنوده الفارين بالقوة والقتل ، ويحرضهم على الثبات ، لكن المنهزمين شقوا طريقاً لهم بين الخيالة واستمروا بالفرار الى قرية (القاضية) ورجع نادرشاه خائباً مهزوماً[11] وكانت جثث قتلى جيشه ورؤوسهم تملأ الخندق وما يحف به .

● لقد وصف الشعراء والكتّاب هذه المعركة المديدة ، وما قام به ابطال الموصل من أفعال بطولية ، للذود عن هذه المدينة الباسلة . ومن ذلك ما قاله (الشيخ فتح الله القادري) في ارجوزته التي وصف بها المعركة من أولها الى آخرها ؛

تزاحفت أجنادهم جميعاً — تبادرت لدحونا سريعاً
قد ملأوا الأتبان في الوعاء — ليجعلوا ذلك كالوقاء
ذو سُلّم قد قصد التسلقا — وغيره قد طلب التعلقا
كم تسمّوا الضجيج فوق السور — كذلك الاطفال في القصور
تظن حقاً قامت القيامة — ما منا شخص أمن السلامة
والصبح قد عاد كليل داج — من شدة النقع ومن عجاج
وقد علا من حولنا الصياح — تقاتلت الارواح والاشباح
فتنظر الرصاص من سورنا قد — أفنى رجالاً مثل سيل إذ ورد
فسولوا الاعقاب بالفرار — وانقلبوا صرعى على الابار
تطاير الرؤوس والكفوف — تساقط المئات والالوف
فامتلأ الخندق من اشباحهم — الى الجحيم سير في أرواحهم
من سورنا شجعاننا قد نزلوا — كم كافر من فاجر قد قتلوا

وأحسرزوا التفنك والسيوف ... وقطعوا امرزوش والكفسوفا
... نصبت السرؤوس كالتلال ... سلالم صرت كما الجبال
فانكسرت شوكة (طهماز) وقد ... عاد ربع جنده لقد فقد
وربعه الثاني جريحاً قد رجع ... وقلبه من شدة الغيظ انصدع

الخ ...[٣١]

● لقد وجد « نادرشاه » أن ثبات أهل الموصل وصمودهم ، أسطورة من الاساطير ، وأدرك عدم جدوى القتال ، وخاصة بعد أن تكبدت قواته الكثير من الخسائر ونفدت مؤونته ، فاضطر الى طلب الصلح ! وأرسل سفيراً الى والي الموصل يحمل رسالة يطلب فيها ان ترسل الموصل رجلين من العقلاء للتباحث في أمر الصلح والانسحاب . وكان الجواب – الحاسم : (ان مدينة الموصل الباسلة قد أعطت الشهداء البررة ، دفاعاً عن الدين وتراب الوطن ، فلا نرسل رسولاً ولا نكتب كتاباً) . وعاد رسول الطاغية (نادرشاه) خائباً بعد أن شاهد بنفسه قوة المدافعين ومتانة مواقعهم داخل القلعة . وهاله جريان الامور بصورة طبيعية فلنُشْ على (نادرشاه) ما رأى : (اننا كنا نظن مابقي في الموصل داراً معمورة من عظيم القنابل التي ألقيناها عليهم ، فلما دخلت البلدة ، ماشاهدت فيها أثر قنبرة ، ولا أثر قنبلة أبداً . وما لاقيت منهم أثر ملل ، وإننا هم كامثال الاسود الضواري) ، وهذه شهادة من عدو ، (والفضل ما شهدت به الاعداء) .

● وازاء هذا الوصف الدقيق لاهل الرماح البسلاء ، دهش (نادرشاه) ، فكتب كتاباً آخر الى والي الموصل – حسين باشا الجليلي – اكثر تواضعاً والتماساً ، يطلب رجلين من المواصلة للمفاوضة . فقرر الوالي ارسال قاضي الموصل والمفتي (علي أفندي الغلامي) و(قرة مصطفى بيك) . وعند وصول الوفد الى مقر قيادة نادرشاه في (القاضية) – حيث كانت هناك الضربة القاضية – تلقاهم بالبشاشة ، وأثنى على المدينة وثباتها ، وقال لهم : (انا في الاصل ، ماكان لي دعوى مع أهل الموصل ، ولكن كان مرادي تصحيح عقيدتي وإظهار ماهو حق) !!

● وبعد أن تم الحوار بين الطرفين ، ألمح مفتي الفرس (الملا علي أكبر باشي) للوفد الموصلي ان (نادرشاه) يرغب ببعض الخيول العربية الاصيلة هدية له ، وفهم الوفد الموصلي من ذلك ان تحقيق هذه الرغبة ليعود « نادرشاه » متفاخراً بالخيول العربية أمام عساكره !

● ولما عاد الوفد الموصلي الى الموصل ، وشرحوا للوالي والمحافظ مادار بينهم وبين نادرشاه ، أرسل حسين باشا الجليلي خيوله مع ابن عمه قاسم الجليلي ، وأرسل محافظ الموصل خيوله مع أحد رجاله المقربين إليه ، وكانت هذه الخيول تجوب ساحات الوغى كالريح العاصفة تحت فرسانها ، تلهب العدو ضرباً بالسيوف ، لتذكر الغزاة بفعل الرجال الذين لقنوهم من على ظهورها أبلغ الدروس .

● في صبيحة الرابع من رمضان ١١٥٦هـ/٢٢ تشرين الاول ١٧٤٣ شرعت قوات الغزو الفارسي بمغادرة الموصل الباسلة ، وهي تجر أذيال الهزيمة والخزي والعار ، واضطر (نادرشاه) الى سحب قواته العسكرية من معظم المدن العراقية ، وعدل نهائياً عن حصار بغداد[٣٢]

لقد كان يوم الانسحاب الفارسي من الموصل ، يوماً عظيماً في تاريخ المدينة ، فقد انتصرت الارادة الحرة وخابت ارادة الغزاة المعتدين . (ولم ترسل شمس اليوم الرابع من رمضان عام ١١٥٦هـ/٢٢ تشرين الاول ١٧٤٣ أشعتها القرمزية على قمة البرج العالي « باش طابية » أثر البطولة والافتداء الا وكانت العساكر النادرشاهية تسير متجهة نحو الشرق ، بقلب هائع ، وقدم مرتجف ، وهي تلقي نظرة الوداع الاخيرة ، ملؤها الهيبة على مدينة كللتها أشعة الشمس الذهبية بأكمل الظفر والانتصار)[٣٣] .

ابعاد ملحمة حصار الموصل

● لقد كان حصار الطاغية الفارسي المتغطرس (نادرشاه) للموصل الحدباء ، جزءاً من سلسلة من تلك الحملات الطويلة المرتبطة بمحور واحد ، ودافع واحد هو احتلال العراق .

لذلك فمن المهم إيضاح وشرح ثلاث نواح حيوية ، نستلهمها من واقعة حصار الموصل وهي :

أ . البعد النفسي :

(١)

لقد وجدنا في ملحمة حصار الموصل جوانب لحرب نفسية حقيقية اعتمدت على المعنويات وعلى وسائل بسيطة ، لكنها مؤثرة في تسيير دفة المعركة وحسم النصر للعراقيين .

ومن البديهي أن يكون لكل حرب نفسية جانبان ، سلبي (في جانب العدو) وايجابي (في جانب الشعب المعتدى عليه) . وقد استغل « نادرشاه » من بعض الامور لشن حربه النفسية لتمهد له اجتياح الموصل ، ثم اسقاط الدولة العثمانية يمكن تلخيصها في الآتي :

أولاً .

إستغل (نادرشاه) شهرته الحربية عندما اجتاح الهند والسند واحتل بعض المدن العراقية ، ولم يخف ذلك عندما أرسل أول كتاب له الى والي الموصل يحذره وينصحه بتسليم المدينة . ثم يلجأ إلى الإقناع المعسول ، إذ يختتم الرسالة بالتحذير من العقاب الذي ناله أهالي الهند والسند والترك واهالي كركوك وأربيل ، وينصح الوالي وأهالي الموصل (باستقباله لانه هو الشاه العادل الكامل الرؤوف والخاقان الاعظم العطوف ، فهو معروف بهمته العالية – فلا تعرضوا أنفسكم لنزول نيران غضبه وشدة بطشه وسخطه) !!

وثانياً :

استند (نادرشاه) على دعاية سبحته عن شدة بطشه وقوة جيشه ، وضخامته ، والذي اجتاح المدن الكبرى والقرى المنتشرة حوالي المناطق القريبة من كركوك الى الموصل .

ثالثاً ،

حاول الشاه الحيلة بعرض الصلح دون الوعد بكف الهجوم ، وكان يستعين بآيات من القرآن الكريم – كما كان يفعل هولاكو المغولي عندما شرع بمهاجمة العراق ، حيث كان نصير الدين الطوسي يكتب له الرسائل الملتهبة لتخويف الناس وترويعهم وتحطيم معنوياتهم قبل البدء

بالقتال - إن الاستعانة بآيات القرآن الكريم بغية فتّ عزيمة أهل الموصل، والحامية، واقناعهم بعدم جدوى القتال مثل: (وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان). أو كما جاء في الحديث النبوي الشريف: (إن من فرّج عن أخيه المؤمن كربة فرّج الله عنه سبعين كُربة يوم القيامة، ومن رأى أخاه في حفيرة فانجاه، أنجاه الله من النار).

رابعاً:

توهم « نادرشاه » بأن الموصل لاتختلف عن أربيل وكركوك والحلة والقرنة والبصرة من حيث ضعف ونقص استعداداتها ــ وقد تعزز وهمه عندما وجد كركوك قاومت ثلاثة أيام فقط ثم استجابت لشروطه. أما أربيل، فقد وجدت في التسليم خيراً لاهاليها، فلم تقاوم اكثر من نصف نهار.

(٢)

كان هذا رصيد الفرس في حصارهم للموصل. فالمعنويات التي استند اليها « نادرشاه » كانت واهية واساسها الغرور والغطرسة والثقة في عدد المقاتلين وليس في كفائتهم الحقيقية وايمانهم بقضية واضحة، عادلة ومشروعة!

(٣)

أما الحرب النفسية العراقية ضد « نادرشاه » وجيشه إبان حصار الموصل فيمكن إجمالها في الاتي:

اولاً:

كان نجاح قوات الموصل عام ١٧٣٢ في قتل قائد الحملة مساعد نادرشاه، المدعو (نركزخان) الذي أرسله بثمانية آلاف جندي أثناء حصاره لبغداد وتشتت جنده قبل وصوله الموصل، والرجوع برأسه الى المدينة محمولاً على رمح عام ١٧٣٢، كان تاريخاً قريباً مشجعاً، إذ كان النصر والاعلام والتحيات وزغاريد النساء وقصائد الشعراء والادباء، تذكر هذه المعركة، وتعيش في أذهان الصغار والكبار، إذ لم يمض على هذه الحادثة اثنا عشر عاماً فقط من ملحمة حصار الموصل عام ١٧٤٣.

ثانياً:

ان اجتياح نادرشاه القرى المحيطة بالموصل، وعلى طول مسيرته من كركوك إلى أربيل وحتى وصوله الموصل، واعتداءه على الاطفال وسبيه النساء، وتخريبه المزارع، لم يثر الرعب بقدر ما أثار الحقد والمرارة والعزم على المقاومة بالتوجه الى مدينة الموصل كمعقل دفاع ليشاركوا أهاليها في الحرب. فكان هذا التجمع المختلط من مختلف القوميات والاديان والمستويات، كان ابرز تجسيم لوحدة وطنية في إطار روحية الدفاع عن الوطن الاكبر، وفي انصهار الحماس والمعنويات في غاية واحدة هي: ردّ دخيل مارق وماكر وغادر، لا يُقيم وزناً للانسانية ولروحية الاسلام الصحيح أو الجيرة. لذلك كان دفاع الموصل دفاعاً شعبياً مستميتاً بكل معنى الكلمة.

ثالثاً:

ان المتابعة المستمرة من لدن القيادة الميدانية لتدابير الدفاع والهجوم والحراسة والترميم والاسعاف، وتوزيع الوحدات (تعبيتها تعبئة صحيحة) وشجاعة هذه القيادة وامتزاجها مع الاهالي بصفة المواطن المحارب، قبل صفة الحاكم والامر والناهي، وحدت كلمة الاهالي وقلوبهم، وجعلتهم أمام مسؤولية مباشرة قومية ووطنية، وليس مجرد أنفار محاربين في إطار تنظيم عسكري. وكان هذا هو شعور الجندي النظامي، وشعور المدني من الاهالي الذين تطوعوا جميعاً، وامتثلوا لتوجيهات القيادة. ويلاحظ من تتابع الاحداث ووقائعها أن ولاء الوالي واسرته كان للعراق والعروبة، وقد أطلق عليها اسم « الحرب المقدسة ».

لقد كانت كفاءة الوالي وحسن تدبيره وقيادته وسهره وحبه للموصل وأهاليها وتطوعه بنفسه وأولاده وأقاربه، موضع تقدير الجميع وقد رفع من معنويات الاهالي. فشخصيته القيادية وبسالة الفرسان والضباط والجنود كانت من روح الجماعة ومعها، وبذلك، أحرز والي الموصل تقريضاً ومديحاً وتاريخاً لشخصيته الباسلة في كل ما كتب عن تاريخ الموصل في تلك المحنة. ولذلك، كانت الموصل تستمد روحياً ومادياً للمعركة، وكانت الموسيقى الحربية وموسيقى... [illegible] وسورات الباشا بين كُراة الخندق، وبُناة السور المشتغلين باستمرار تُلهب حماس الجميع وتحبب اليهم العمل.

رابعاً:

وصول نجدة والي حلب - رغم قلّة عددها، أضفى على حرب الموصل شعوراً بوحدة المصير، وتآخي أبناء حلب ضد أعداء العروبة والاسلام. يضاف الى ذلك، قدوم نجدة من (٥٠٠) محارب كردي ساهم فيها حاكم (كوج باشا) حاكم كويسنجق، مما أضاف عنصراً معنوياً جديداً الى المدافعين، وهو أن الاكراد يرون في الهجوم الفارسي، اعتداء على شرف الوطن والامة.

خامساً:

كان قرار الصمود والدفاع عن الموصل مثال الديمقراطية البرلمانية والشعبية. فقد جمع الوالي الاهالي في طرف المدينة الجنوبي الشرقي في الساحة المحيطة بالجامع المجاهدي. وقرأ عليهم رسالة (نادرشاه)، المليئة بالغطرسة والتهديد والوعيد، وسألهم رأيهم فيما جاء فيها وموقفهم من (نادرشاه). وقد أدركوا كذبه وغروره، ولم ينخدعوا بما تظاهر به من إيمان وعطف، فأجابوا جميعهم بصوت واحد: انهم مستعدون لما يأمرهم به الوالي وموافقون على رأيه في اقتحام غمار الحرب، ولو كلفتهم إراقة دمائهم جميعاً. وفي ذلك يقول الشيخ فتح الله القادري في ارجوزة عن الوالي:

قد جمع الناس وأنشى الخبرا
أذاع فيما بينهم ماقد جرى
وقال: ياناس ألا فاجتمعوا
وحال كركوك وأربل اسمعوا
فقال: نحن أعصامي
نشد حزم العزم للاقدام

لقد لُتت نويـة ذي الحدباء
وانـه أبَ بسـلا مـراء
نحن منكم ثم انتم منـا
فلا تخاوفوا فشلاً وجبنـا
وعرضكم بعرضي وانتم عني
وطفلكم طفلي خذوا نا عني
فواطنسوا القلب على الثبـات
واخلصوا لله بالنيـات
فقوموا بالقوم على البروج
وهمسوا بالناس على الخروج
فقامت النـاس الى السلاح
وصاح فينـا مـؤذن الفلاح

وكان الجواب على كتاب الشاه موزوناً رزيناً مشحوناً بالثقة والمعنويات حيث جاء فيه : (فالعياذ بالله . أمن بعد إيماننا والمقاتلة دون أموالنا والمكافحة دون أولادنا وعيالنا يهولنا منكم شقايق اللسان ويروعنا سحر البيان ووسوسة الشيطان وكثرة الهذيان ؟ ـ ورثنا عن آباء صدق ـ ونورثها إنا متنا للبنين) .

سادساً :

كانت كل عملية حربية ، وكل استعداد يقوم به الجند والاهالي يسهم فيه كل أفراد الاسرة الحاكمة وعشيرتهم . فقد جرى حفر الخندق حول أسوار الموصل بعملٍ جماعي من قبل الغني والفقير ، والشهير والمغمور ، وكان كل ضرر أو تخريب يحدث نتيجة القصف المدفعي يصلحه الاهالي ليلاً ونهاراً ، وفي الحال ، وفي أيّ مكان من الازقة والشوارع ، فتضافرت بذلك مجهودات الجميع من الجليليين الى الشخاتين .

سابعاً :

ان انكشاف المكر السياسي السيء والمناورة الطائفية في أطماع (نادرشاه) التوسعية بأفعاله وأقواله المناقضة لروح الدين الاسلامي الحنيف ، صار مفهوماً لدى العامة ، كذلك استصدر علماء الاسلام فتوى مفادها (ان القتال ضد الفرس وأسرهم أمر حلال ، وان مطالب الفرس تناقض الدين الحنيف) وما استشهاد الموصل بالائمة وشعور الاهالي بانهم كانوا فرسان الإمامين عليّ والحسين (عليهما السلام)في اثناء حصار الموصل ، الا دليل على عدم قناعتهم بادعاء الشاه ، وعلى محبتهم وشدة تعلقهم بمبادىء واخلاص وسمو سلالة الرسول العظيم .
وفي ذلك يقول خليل البصير :
هذا ولله جزيلُ الشكر
على النجاة وانـدفاع الشر
ثم من الصلاة أزكيهـا على
جدّ اللـذين حوصروا في كربلاء

ثامناً :

لقد أخبر الوالي (حسين باشا الجليلي) سكان الموصل أن زَللَ الشاه دليل ضعفه وخوفه ، وليس بسبب قوته وتمكنه من الموقف ، ثم طلب إجراء خدعة حربية لاولئك الرسل ، وذلك بأن يجمعوا القنابل ويخفونها في ساحات بيوتهم ، حتى إذا جاء رسل الشاه ، لايمكنهم معرفة الاضرار الحقيقية التي يسببونها لهم ، خاصة وان الترميمات تجري على قدم وساق من قبل فرق خاصة . وعندما سأل الشاه رسله عن الاضرار التي حلّت بالمدينة أجابوه (وقد انطلت عليهم الحيلة) بانها طفيفة ! وأنهم لم يروا (قنابر) و(قنائف) وانهم رأوا معنويات الاهالي عالية . وكانت هذه الشهادة مصدر استياء وخيبة أمل نادرشاه .
لقد كان المدخل الى فناء (كنيسة الطاهرة) [مريم] حتى قبيل الحرب العالمية الاولى (سنة ١٩١٤) مرصوفاً بقنابر الطاغية نادرشاه من مختلف الاحجام . ثم رفعت وصهرت واستخدمت موادها فيما بعد .

تاسعاً :

كان الوالي حسين باشا الجليلي يكافيء القادة والضباط ويكرمهم بالذهب والهدايا تقديراً لاعمالهم البطولية وشجاعتهم الفائقة .

عاشراً :

أما البدء بالذات ونكرانها ، فقد تجلى في الهجمات المضادة والغارات الخاصة والكمائن ، حيث كان أولاد الوالي وضباطه المقربون يقومون بها . وقد ذكر الشيخ القاسري في ارجوزتة انه كان أحد أعضاء تلك الفرق التي تقوم بهجمات ليلية عبر نهر دجلة لترعب الفرس . وكان عصام الدين عثمان الدفتري العمري (مؤلف الروض النضر) أيضاً من أولئك الفرسان إذا يقول : (وكنت أنا أحد الفرسان وشاهدت من الهول مالم يذكر بلسان) .

حادي عشر :

ان الروح المعنوية العالية – التي – تشبعت بروحانية دينية – تولدت عن ظواهر خارقة ، جعلت أهالي الموصل يشعرون بأن الله معهم ، وانهم على حق . والوقائع التالية التي انتشرت أخبارها بين الاهالي تعدُّ من عوامل رفع الروح المعنوية ، وتعزيز الحرب النفسية ضد هجمة (نادرشاه) .
ومن هذه الخوارق :
● بعد أول معركة خاسرة بين عساكر الموصل وضد نادرشاه ، أراد متولي حضرة نبي الله يونس أن يرفع مافي الحضرة من الفرش والبسط ، وكذا من الجامع ، فمنعه الوالي وقال دعه ، فعسى أن يأخذوا ما فيه ، فيغضب الله عليه ورسوله ، وان نقص منه شيء فعليّ تمامه .
● اعتقد الناس ان مدينتهم الموصل ، مدينة مقدسة ومحمية ، لكثرة ما فيها من مراقد الانبياء (عليهم السلام) والاولياء ، مثل (النبي يونس ، ونبي الله جرجيس ، ونبي الله شيث ، والخضر) .
● وعزا البعض قوة المسيحيين من الاهالي المحاربين إلى وجود أرواح القديسين معهم ، مثل القديس (كوركيس) و (يوحنا) و(متي) ، ولذلك ، شيدّ الوالي كنائس جديدة ، وأعاد بناء وترميم كنائس أخرى .
● ومن أسباب ارتفاع معنويات الاهالي ، ما ورد من أن مريم العذراء حمت المدينة ، وان شفاعتها عوضت عن قلّة المؤن والعُدد ، إضافة الى غضب وثورة القديسين على الفرس الذين هدموا هياكلهم ومعابدهم ، ويروي سكان الموصل انهم شاهدوا من سطح كنيسة العذراء الطاهرة

أشخاصاً يحمون المدينة ، ويرنون عبها القنابل ، مصوبينها جهة العدو .

ثاني عشر :

لقد بلغ الحماس والاقدام لدى الموصليين ذروته بذكر آيات من القرآن الكريم والاناشيد العسكرية (المهترخانة) وكانت الاهازيج سارية كل يوم وكان أهل الموصل في الليل أبان الحصار يقرأون شيئاً باللسان التركي يسمى « كلند » - وربما كلبند - كما هو عادة الينكجرية ، فاذا تمّ صاح كل من حضر باجمعهم (أحمد الله) . وحكى من كان في عسكر نادرشاه ان العسكر اذا سمعها وقع في قلوبهم الرعب ، ويضيق بهم ذلك البر . وقيل ان نادرشاه ارسل حين الصلح أن يبطلوا هذا (الكلند) ، فابى أهل الموصل ، حتى رحل عنهم . ويستدل من معلومات الشيوخ وكبار السن بأن (الكلند) تعني النشيد أو الادعيات التي تمجد الجيش المدافع عن الموصل . ومهما يكن من شيء ، فإنّ الاناشيد من وراء الاسوار مع دقات الطبول والدفوف وأصوات الجموع ، كانت معنوية ، تقلق عساكر الفرس ، وتطرد النوم من عيونهم ، وتثير فيهم الجبن والهلع والتخاذل ، (وأهل الموصل على الاسوار مرابطين في الليل والنهار لا يفترون عن الاستغفار) قال القادري :

هـــنا وكـــل النـــاس قـــد تشجعـــوا
بحـــرز مـــولاهم لقـــد تـــدرعـــوا
وكم لهم في البـــرج من صيـــاح
(اللـــه اللـــه) - الى الصبـــاح

ثالث عشر :

لقد كان كل تصادم ومواجهة يفشل فيها جنود الفرس ، تعزز معنويات الاهالي ، بعدما تكاد كفّة الميزان ان تنقلب أو يتصور الفرس انهم المنتصرون . وان كثرة القتلى والمصابين من الفرس لا يمكن تصورها مقارنةً بالخسائر القليلة بين صفوف محاربي الموصل . وقد كانت افدح خسارة هي في انفجار اللغم المعاكس ، والمعركة التي دارت على الاسوار وخارجها ، والتي قتل فيها من الفرس نحو خمسة آلاف وخمسمائة جندي . وفي تلك الليلة ضرب اللغم وهو من ناحية الشيخ قضيب البان غربي الموصل ، فردّ الله كيدهم في نحرهم إذ ردّ نار لغمهم عليهم ، ولم يقتل من جند الموصل الا نحو سبعين أو مائة ونيف . وقد ذكر الرحالة (يحيى الكردي العراقي) في زياراته للموصل بعد سنة من المعركة واندحار نادرشاه : (وبعد سنة أتيتُ الموصل انا ورأيت آثار القتلى في أرضها كالارجل ... والايدي والاطراف وغير ذلك) كذلك ، يذكرالمهندسون الذي أشرفوا على حفر أسس كلية طب الموصل الحالية ، انهم وجدوا مجموعة من العظام والجماجم يعتقد أنها من بقايا قتلى جنود الفرس في تلك الجهه من سور الموصل قرب البرج الكبير بالشطابية . ويذكر الشيخ القادري في ارجوزته ان رؤوس القتلى كانت كالتلول ، وان نادرشاه خسر ربع جيشه وجرح ربعه الثاني .

رابع عشر :

أما مشاركة المرأة في معركة حصار الموصل ، فقد كانت مشاركة فعلية ، بحماس عظيم ، وان عدم ذكر حوادث معينة ، ربما يعود الى ماكان يحيط ذكر المرأة آنذاك من تحفظات تعد خروجاً على التقاليد أو الادب[٤٤]

ب . البعد القومي والوطني :

(١) ان الشعور الوطني والقومي للعراقيين في إطار الامبراطورية العثمانية الاسلامية لم يكن غائباً أو مفقوداً عن حيّز الوجدان والضمير ، ان لم نقل في وعي المفكرين والنابهين والسياسيين الوطنيين . وبرغم إخلاص العرب والمسلمين للعثمانيين ، الا ان هؤلاء لم يعيروا البلاد العربية اهتماماً بالثقافة العربية . أما الصراع بين الفرس والعثمانيين الذي كان باسم الدين ، فهو من أسرار المناورات السياسية ، لكن أرض المعركة ووقودها كانت على أرض العرب ، ومن سكانها ... لذلك ، فإن قومية المعركة ، وروحية البناء والنهضة كانت متوقفة على مدى قوة الرباط الوجداني والوطني بين المواطنين وماضيهم العربي والاسلامي ، وبين القادة القلائل ، وشعورهم بالانتماء والمسؤولية نحو المنطقة العربية العزيزة أولاً ، قبل الولاء الثاني في الترتيب والاسبقية للباب العالي . وهكذا نجد براعة وجود شخصيات بعض الولاة في المدن العراقية الرئيسة كبغداد والموصل والبصرة . ولا يمكن إخفاء نظرة الترك الى العرب بانهم أقل درجة ، وأحطّ قدراً ومنزلة . ان هذه الخلفية الفكرية والسياسية والاجتماعية لوضع العراق والبلاد العربية ، تعطي لحروب العراقيين ضد الفرس (ومنها ملحمة حصار الموصل) أهمية قومية - وطنية تتجلى في الاحداث والظواهر الاتية :

اولاً :

ان دفاع الموصل عن أرضها وشرفها كان صورة مكثفة لشعور كل العراقيين ... ورمزاً للصلابة والتماسك الوطني والقومي ضد جيش معتدي . ويتضح من عجز (الباب العالي) عن نجدة الموصل ، وقلّة النجدات الاخرى من حلب ، أن جميع طبقات الشعب من حرفيين وعمال وفقراء وأغنياء ونبلاء وأقليات وطوائف دينية استجابت الى نداء واحد فقط هو : الدفاع عن الموصل وعن العراق ككل .

ثانياً :

ان والي الموصل وأولاده وأسرته لم يشعروا بالخذلان أو الاحباط لعجز الباب العالي عن نجدتهم ، فاستجابة الاهالي ولجوء سكان القرى المجاورة إليهم ، والمشاركة الديمقراطية واختفاء الحواجز والتفرقة بين (١١)... آثار الشجاعة والنخوة العربية والوطنية لصدّ الهجوم ، فهو يشبه الدفاع الشعبي الذي دحر نابليون أمام أسبانيا وكذلك أمام روسيا .

ثالثاً :

لقد أطلق والي الموصل على ذلك الموقف (الحرب الوطنية) لان من شارك فيها كانوا عرباً وأكراداً وأتراكاً : مسلمين ومسيحيين ويزيدية ، وموصليين مدنيين وفلاحين وبدو من الاطراف المحيطة بالموصل الذين ضربوا من شراسة (نادرشاه) .

رابعاً :

ان ظهور الشخصية المحلية القومية بين ظهراني شعب يحب وطنه ، وكان أحد مظاهر انبعاث الروح القومية العربية المستقلة نسبياً عن نفوذ الوالي العثماني . وكان لجوء سكان القرى المجاورة من الاكراد والنصارى

واليزيدية الى الموصل عاملاً في اتحادهم وتصميمهم على القتال مع الجند . بل أنهم أقاموا احتفالاً وتعاهدوا على القتال .

خامساً :

تميزت الموصل بحكم شبه ذاتي وشخصية محلية واضحة المعالم ، ثقافياً واجتماعياً وعمرانياً وسياسياً واقتصادياً . فهي شخصية الانسان العراقي التي نلمسها في بقية الولايات العراقية . ولم يكن التنافس بين ولاة الموصل وبغداد مثلاً الا تعبيراً عن الميل الى الاحتفاظ بهذه الشخصية المستقلة بدل الانصهار في ادارة مركزية عثمانية . وكانت الموصل من أشهر وأهم (باشويات) العراق منذ عام ١٥٣٤ م . لكن تطور الامور والاحداث ، جعل ولاية الموصل متميزة . وارتفع شأنها ونماؤها العمراني والثقافي والادبي خلال القرن الثامن عشر . وهي الفترة التي ساد فيها تواتر وتعدد ولاية أفراد الاسرة الجليلية . وكان أحدها خلال الحصار الرهيب على الموصل من قبل (نادرشاه) . وكان استقلال باشوية الموصل وشهرزور قد امتد طيلة القرن السابع عشر . كما ان نفوذ (ديار بكر) على الموصل قد زال منذ القرن السادس عشر . ولعل نجاح الحكم الجليلي في قيادة معركة الدفاع عن الموصل ضد الغزو الفارسي ، وفي كسب الدعم الشعبي للموصل أيام ولاياتهم ، يرجع الى تفهم الروح الموصلية المحلية للروح العربية ، ولكون أهالي الموصل يضمرون التمرد والنفور من الحكم العثماني المطلق ، ويحنّون الى حريتهم القومية .

سادساً :

كانت القبائل العربية غير مرتاحة ، وثائرة ضد الحكم العثماني ، وكذلك ضد أي تسلط أجنبي . فاجتياح (نادرشاه) لكربلاء والحلة والبصرة وسامراء ، وحصاره بغداد واحتلاله كركوك وأربيل ، وبطشه ودماره وفتكه ، من عوامل بعث الروح الوطنية والجنوح الى الاستقلال والاتحاد . بل أن ثورة القبائل العربية ، تحولت الى وجهة النضال ضد الاستعمار والنضال القومي التحرري .

سابعاً :

يتضح من استعدادات والي الموصل وتوجسه من حرب قادمة منذ أن حاصر (نادرشاه) بغداد تسعة أشهر سنة ١٧٣٢ ولم يستطع دخولها ، ومنذ أن أرسل قائده ومساعده (تركزخان) سنة ١٧٣٢ مع قوة من ثمانية آلاف جندي لاحتلال الموصل ، باعتبارها مدينة (ضعيفة) ! ومن الفشل الذريع والهزيمة التي منيت بها تلك القوة على أيدي مقاتلي الموصل ، والتي عدّها (نادرشاه) ضربة قوية لسمعته واهانة لشخصه وجيشه .. تلك الاستعدادات الدفاعية التي بدأ يفكر بها والي الموصل مدة طويلة من الحملة الثانية ، تدل على ادراك الاطماع الفارسية ورسوخ الحقد الفارسي الذي لايرعوي أو يتعظ . وكانت تلك المبادرات بمعزل عن توجيهات الباب العالي . أي أنها نابعة من الاحساس الوطني ، والشعور بالخطر الذي يهدد المنطقة . وقد تركزت تلك الاستعدادات حول جملة فعاليات هي :

● حفر خندق حول أسوار المدينة ، اشترك فيه الكبير والصغير ، والغني والفقير ، والعزيز والمغمور .

● حفر الابار وتعمير بعض أماكن السور المتهدمة حين تحقق قدوم الباغي (نادرشاه) .

● توزيع الكراديس والقادة والمساعدين وتحديد أماكن العمل وتنسيق الواجبات ، وتقوية الاستحكامات .

ثامناً :

ان تبادل الاخبار والرسائل والاشعار والقصائد بين أبناء وشعراء الموصل وبغداد ومعارضتهم لبعضهم (شعراً) ، وتتبع أخبار الحصار ، وتسجيلها ، يدل على الرباط الوجداني القومي بين أجزاء العراق برغم تجزئته الى ولايات وباشويات . فارجوزة السيد خليل البصير[١٢] المؤلفة من (٦٩) بيتاً أرسلها الى السيد عبد الله الفخري كاتب الديوان في بغداد ، وصف فيها حصار نادرشاه للموصل ، ودفاع الوالي والاهالي ، فاجابه عبد الله الفخري[١٣] بارجوزة أطول منها ، عدد أبياتها (٢١٥) بيتاً . وقد أعاد خليل البصير صياغة ارجوزته العربية ، فكتب قصيدة تركية في ذكر الحصار (وهي مفقودة) . وارجوزة السيد عبد الله السويدي عارض بها ارجوزة السيد خليل البصير وبلغ عدد أبياتها (١٦٨) بيتاً .

لقد أصبح للشعر صبغة قومية . إذ تلاحم مع القضايا العامة المستقلة عن المفاهيم العثمانية السائدة ، فترعرت حركة إحياء الادب العربي القديم ، ونشأت مؤلفات بغدادية بنصرة جيش الموصل ، مثل (دوحة الوزراء) و(حديقة الزوراء) .

تاسعاً :

كانت وحدة المسلمين والمسيحيين في جيش مدافع عن الموصل من أبرز أحداث القرن ودليل وطنية وعروبة القتال ، وساعد على استقلاليتها وشعورها بذاتها وكيانها ، وتمثيلها للعراق بعيداً عن (الباب العالي) . يقول الرحالة (نيبور) أن المسلمين شهدوا للمسيحيين بالشجاعة والصمود والحفاظ على روح النصر . ويبدو أن قسوة (نادرشاه) على سكان (القرى واعتداءه على الاديرة ، لم يكن مصدر ذعر للمواطنين ، بل حافزاً لهم على المجابهة والحرب والمقاومة فلم ينس الهاربون والنازحون مافعله (تركزخان) سنة ١٧٣٢ في قرى متعددة ، وما فعله (نادرشاه) في أربيل بعد حصارها وامتلاكها ، فقتل اغلب أهلها وسبى نساءها ، وما ترك قبيحة الا وفعلها ، ثم رحل عنها الى الموصل ، كذلك ما فعله جنود (نادرشاه) في (ديرماراوراها) قرب قرية (باطنايا) إذ قتلوا القسس فيه ، ومنذ ذلك الحين أصبح الدير مهجوراً . لذلك فإن النازحين اللاجئين من أطراف الموصل ، دخلوها كحصن دفاعي ، ووجدوا في حسن استقبال الوالي والاهالي ورعايتهم لهم حافزاً وطنياً للقتال ، وقدتم فعلاً تزويدهم بالسلاح والمؤن وشجعهم الوالي على القتال .

عاشراً :

ان عدم استطاعة الباب العالي ارسال معونة ونجدة الى الموصل ، أبرز الحقيقة التي بدأ يحس بها العرب وهي ان اندحار حاكم ايران لم يكن على يد جيوش الامبراطورية العثمانية بل من قبل جيش محلي سانده و شاركه شعب عربي مؤمن بوطنيته وولائه لمدينته ودياره ، وبوجود

حاكم من أهل المدينة نفسها . فالوطنية والقومية كانتا العامل الحاسم في الصمود والنصر[٨] في ملحمة الموصل الخالدة .

ج . البعد العلمي :

أولاً :

لقد كان (مرض) الامبراطورية العثمانية وأطماع الفرس موضع تشخيص العالم الغربي منذ منتصف القرن الثامن عشر ، ومنذ أن بدأت ثورة أو تمرد (الباترونا خليل) مما أتعب السلطة العثمانية من الداخل منذ عام ١٧٣٠ ، وان العراق / بصورة خاصة / كان ساحة الصراع بين الفرس والعثمانيين. لكن الدفاع والصمود والتضحيات ، كانت ملقاة على كاهل العراقيين أولاً (والعرب عموماً) ، وان أبعاد الزحف الفارسي نحو الشرق لم يكن مجرد نزوات أو نعرات طائفية ، بل جزءاً من حركة التاريخ في هذا الجزء من العالم .

ثانياً :

عَدَّ المؤرخون والنقاد السياسيون أن حصار الموصل من أهم أحداث القرن الثامن عشر لان الابعاد الحقيقية لاجتياح شمالي العراق ، واحتلال الموصل كان لفرض النفوذ الى قلب الاناضول وقلب الامبراطورية العثمانية ، ثم تغيير خارطة العالم وتوزيع مناطق النفوذ .

ثالثاً :

ان ضخامة حملة (نادرشاه) التي توجه بها الى العراق ، تدل على نياته التوسعية التي لا تتناسب مع حملة محلية أو محدودة . فقد قدر جيشه بما لا يقل عن (٣٠٠) ألف جندي ، وهو عدد يقارب من حيث الاهمية جيش نابليون الذي توجه به الى روسيا ، والذي بلغ تعداده (٢٠٠) ألف جندي . على أن العبرة ليست في العدد حسب ، بل في أطماع الشاه المغرور التي بانت في رسالة الانذار التي وجهها الى الباب العالي والتي يخاطبه فيها بقوله (أن يستعد لملاقاة جيش يحكم العالم)! وهذا هو منتهى الطموح والشره العسكري والسياسي .

رابعاً :

ان اهتمام (نادرشاه) ببناء اسطول بحري للتجارة في الخليج العربي وصرفه وتبذيره الأموال الطائلة لتحقيق ذلك كان لفرض النفوذ الدولي والمنافسة التجارية مع الروس والعثمانيين . وكانت الموصل احد المراكز التجارية المهمة

خامساً :

ان مهاجمة نادرشاه للموصل كان لإزالة معقل خطير ، وفتح باب حيوي يقوده الى الاناضول وأوربا ، لأن الموصل كانت مركز تقاطع خطوط المواصلات التجارية بين الهند وايران وتركيا فأوربا (عقدة مواصلات) .

سادساً :

لقد كانت الموصل حصناً عسكرياً له ستراتيجية مهمة ، والحقيقة انه منذ احتلال العثمانيين لشمالي العراق بعد موقعة (جالديران) سنة ٩٢٠هـ - ١٥١٤م استخدمت الموصل مباشرة كقاعدة لمقاومة الوجود الفارسي وصده في العراق، ولتموين الحملات العثمانية المستهدفة استعادة بغداد وجنوبي العراق من قبضة الفرس . ولقد ثبت ان (نادرشاه) كان يفاوض (شركة الهند الشرقية) من أجل تعاون الانكليز مع ايران ضد العرب

وكانت حروب الخليج أنذاك سبباً في تعطيل تجارة العرب وعرقلة الشحن المنطلق من بغداد فالبصرة فالبحر.[٩]

● وصفوة القول : هو ما مرّ ذكره في الصفحات السابقة (فحيا الله اهل الرماح كما وصفهم القائد المجاهد المنصور بالله (صدام حسين) حفظه الله ورعاه .

المصادر والمراجع

(١) . عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين السويدي ؛ حديقة الزوراء في سيرة الوزراء - الجزء الاول (في سيرة حسن باشا) . تحقيق صفاء خلوصي . مطبعة الزعيم - بغداد /١٩٦٢ ص ٨٤ - ٨٧

ب . د . علاء نورس ؛ العراق في العهد العثماني - بغداد - ١٩٧٩ ص ٦٣ - ٦٧

ج . د . عماد الجواهري ؛ مرجع سابق ص ١١٥

(٢) عبد الرحمن السويدي ؛ مصدر سابق ص ٨٧ ومابعدها .

(٣) د . علاء نورس ؛ مرجع سابق ص ١٤٩ - ١٥١

(٤) السياسة السوقية الايرانية في العصر الحديث (ضمن كتاب ؛ الصراع العراقي الفارسي) ص ٢١٨

(٥) د . عماد عبد السلام رؤوف ؛ الموصل في العهد العثماني ، فترة الحكم المحلي (١١٣٩ - ١٢٤٩ هـ / ١٧٢٦ - ١٨٣٤ م) النجف /١٩٧٥ ص ٩٩ ص ١١٥

(٦) د . علاء نورس ؛ السياسة السوقية ص٢١٨

(٧) محمد أمين بن خير الله الخطيب العمري ؛ منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء . (تحقيق ونشر الاستاذ سعيد الديوهجي) ج ١ (الموصل /١٩٦٧) ص ١٤٧

(٨) السيد الرئيس القائد المجاهد صدام حسين (حفظه الله ورعاه) ؛ من نص حديث سيادته خلال لقائه باهالي محافظة نينوى يوم ٥ /٨/ ١٩٩١ والمنشور يوم ٦ /٨/ ١٩٩١ ، في الصحف العراقية .

(٩) رسول حاوي كركوكلي ؛ دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء (ترجمه عن التركية موسى كاظم نورس) بيروت /١٩٦٣ ص ٣٠

(١٠) د . علاء نورس ؛ السياسة السوقية ص ٢١٩

(١١) يوسف كركوش الحلي ؛ تاريخ الحلة – الطبعة الاولى – النجف –١٩٦٥ القسم الاول ص ١٢٢ .

(١٢) – د . علاء نورس ؛ السياسة السوقية ص ٢١٩

(١٣) د . علاء الجواهري ؛ مرجع سابق ص ١١٦

(١٤) ستيفن همسلي لونكريك ؛ أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث (الطبعة الخامسة) ترجمة جعفر خياط بغداد ص ١٧١ – ١٧٢ .

(١٥) رسول الكركوكلي ؛ مرجع سابق ص ٣١

(١٦) المصدر نفسه ص ٣٢

(١٧) د . عماد الجواهري ؛ المرجع نفسه ص ١١٧

(١٨) د . علاء نورس ؛ السياسة السوقية ص ٢٢٠

(١٩) المرجع نفسه ص ٢٢٠ – ٢٢١

(٢٠) أ . ياسين خير الله العمري ؛ زبدة الآثار الجلية في الحوادث الارضية (تحقيق د . عماد عبد السلام رؤوف) النجف /١٩٧٤ ص ٨٩ – ٩٠

ب . د . عماد الجواهري ؛ مرجع سابق ص ١١٩

(٢١) عمد احمد باشا ، والي بغداد الى الحيلة وأرسل الى نادرشاه ، يخبره بأن يسير أولاً الى الموصل لاحتلالها . وفي عودته يجد بغداد مفتوحة أمامه !! يراجع ؛ سليمان الصائغ ؛ تاريخ الموصل ج ١ ص ٢٧٨ المطبعة السلفية – القاهرة /١٩٢٣ ويذكر ياسين العمري في زبدته أن أحمد باشا ارسل الى نادرشاه يقول له (ارحل الى الموصل فان ملكتها فنحن لك مطيعون) !

ويراجع العرض المفصل للآراء التي ذكرت في سبب عدم تعرض نادرشاه لأحمد باشا في أثناء هجومه على العراق سنة ١٧٤٣م في كتاب ؛

تاريخ العراق في العهد العثماني ١٦٣٨ – ١٦٥٠ م / ١٠٤٨ – ١١٦٤هـ (دراسة في أحواله السياسية) اطروحة ماجستير . كلية الآداب – جامعة بغداد /١٩٧٦ص ٢١٧ – ٢١٨

(٢٢) د . عماد الجواهري ؛ مرجع سابق ص ١١٩ – ١٢٠

(٢٣) د . علاء نورس ؛ السياسة السوقية ص ٢٢٣

(٢٤) يراجع نص الكتاب الذي كتبه الملا باشي علي أكبر بأمر نادرشاه الى مفتي الموصل يحيى أفندي الفخري سنة ١٧٤٣ م / ١١٥٦هـ في الملحق رقم (٣) من كتاب ؛ العراق في العهد العثماني – للاستاذ الدكتور علاء نورس ص ١٣٧ – ٢١٨ . علماً أن صورة الكتاب في مجموع مخطوط بكلية الآداب – جامعة بغداد تحت رقم (٤)

(٢٥) يراجع الملحق (٤) ص ٢١٩ من كتاب (العراق في العهد العثماني) للدكتور علاء نورس وفيه نص الكتاب الذي أرسله السيد يحيى أفندي الفخري – مفتي الموصل – الى ملا باشي علي أكبر رداً على كتابه السابق بتاريخ ١٧٤٣ م / ١١٥٦هـ . علماً ان صورة من هذا الكتاب في مجموع مخطوط ، محفوظ في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب ببغداد تحت رقم (٤٤)

(٢٦) د . علاء نورس ، السياسة السوقية ص ٢٢٢

(٢٧) المرجع نفسه ص ٢٢٢

(٢٨) منهل الاولياء ج١ص١٥٤ .

(٢٩) د . علاء نورس ، المرجع السابق ص ٢٢٣

(٣٠) منهل الاولياء ص٣١٤ .

(٣١) د . عماد الجواهري ؛ مرجع سابق ص ١٢٠

(٣٢) سليمان الصائغ ، تاريخ الموصل ص ٢٨٢

(٣٣) د . عماد عبد السلام رؤوف ؛ المرجع السابق ص ١٠٥ – ١٠٦

(٣٤) د . عماد الجواهري ؛ مرجع سابق ص ١٢١

(٣٥) انظر جوانب من كفاح الموصل أثناء حصار نادرشاه في المصادر الآتية ؛

أ . محمد امين العمري ؛ منهل الاولياء ص١٥٤ – ١٥٦ .

ب . سليمان الصائغ ، تاريخ الموصل ص ٢٨٣ – ٢٨٤

ج . رحلة نيبور إلى بغداد في القرن الثامن عشر (ترجمة سعاد هادي العمري) بغداد / ١١٥٤ ص ١١٦

د . محمد حسين قدوسي ؛ نادر نامة ، خراسان ١٣٣٩هـ (بالفارسية) .

(٣٦) منهل الاولياء ص١٥٤ – ١٥٥

(٣٧) تاريخ الموصل ص ٢٨٤

(٣٨) المصدر نفسه ص ٢٨٤ – ٢٨٥

(٣٩) د . علاء نورس ؛ المرجع نفسه ص ٢٢٤

(٤٠) الدبكي ؛ هو البطيخ الاخضر المعروف بـ (الرقي) وباسم (الشمزي) في الموصل ، و (البـيدي) في تكريت . والدبكي هنا كناية عن القنابل الكبيرة التي كانت لدى العدو .

أما العجوز ، ومفرده عجوزا ، فيطلق على نوع من البطيخ الصغير الحجم ، والعجوز هنا كناية عن (القنابر) ، وأصلها (قنبرة) أي قذيفة الهاون بالاصطلاحات العسكرية المعاصرة .

(٤١) الاستاذ سعيد الديوه جي ؛ صمود الموصل أمام غزو نادرشاه سنة ١١٥٦هـ . مجلة (المورد) – المجلد الخامس عشر – العدد الثالث ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦ م ص ٥٩

(٤٢) تراجع أرجوزة فتح الله القادري حول حصار الموصل في كتاب ؛ (حصار الموصل) لعبد الجبار محمد جرجيس ص ٥٢ – ٧٠ (الموصل /١٩٨٢) والسيد القادري كان متولياً على وقف جامعي النبي يونس وجرجيس وذو علم غزير ، واطلاع في الشعر واسع ، له قصائد كثيرة يؤرخ فيها حوادث مهمة وقعت في الموصل .

(٤٣) عبد الجبار السامرائي ؛ أهل الموصل يتصدون لنادرشاه قبل ٢٥٠ سنة ، جريدة (العراق) ص ٣ الخميس ٢٠ جمادي الاولى / ١٤١٤هـ – ٤ تشرين الثاني ١٩٩٣

(٤٤) سليمان الصائغ ، تاريخ الموصل ص ٢٨٧

(٤٥) د . فخري الدباغ ؛ ملحمة حصار الموصل وأبعادها النفسية والقومية والعالمية .

مجلة (آفاق عربية) – عدد نيسان ١٩٨٢ ، ص ٨٧ – ٩٠

(٤٦) يراجع نص قصيدة البصير في دراسة المرحوم عبد الجبار العمر الموسومة ؛ ملحمة حصار الموصل . مجلة (آفاق عربية – العدد ٨ نيسان ١٩٨١ ص ٣٨ – ٤٠

(٤٧) (٥٣) في المرجع نفسه ص ٤٠ – ٤٥ نص قصيدة عبد الله الفخري .

(٤٨) (٥٤) د . فخري الدباغ ، المرجع نفسه ٨٥ – ٨٦

(٤٩) (٥٥) المرجع نفسه ص ٨٣ – ٨٤

• • •



ملامح من الحصار في الارث العراقي والمأثور العربي

اعداد ودراسة

عبد الحميد العلوجي

وصادق هامل

كان بوسعنا لو نستهل النوازل الحصارية بخفقة من ضوء قاهرة برعشاتها وهزاتها ان تنتزع للقارىء تعريفاً ينتهك المفاهيم التي جاد بها ذوو الاختصاص من الاكاديميين وفقهاء اللغة العربية ـ ولكننا أجلّنا فجأة بما يحنى، فقد وجدنا الحصار يرتدي اكثر من إهاب، فالحصار ـ كما ذاقته الانسانية في عصور تاريخها ـ جزاء يتمطى بين الثواب والعقاب وقد كتبه الله عز وجل على المظلوم دفاعاً عن حق أوعن وجود، وزينه الشيطان للظالم المغرور عدواناً او غزواً او توسعاً، واستطابه الانسان لنفسه امداً أو تحفظاً او منقذاً من هموم طوارىء. وينظر الحصار لغوياً في بعض معانيه الى الوسادة التي تشد على ظهر البعير لتكون مقعداً للراكب ـ ثم توسع بعد سيادة النزعة العدوانية وسيلة حربية ليستغرق الموضع الذي يحصر فيه الانسان، وليستقيم وسيلةً حربية في مواجهة الدول والمدن والقلاع والحصون والشوارع والبيوت ـ وكذلك التجويع والحظر الاقتصادي وخطوط التموين واغلاق الانهار والرقابة على الملاحة بزوارق الدوريات والطائرات المروحية واخيراً اقتحم الحصار علم النفس ليعبر عن حالة انفعالية معقدة تختلق بالتوجس والخشية والفزع وليستقر مرادفاً للقلق النفسي والشعور بالضيق والعناء ـ ولا بد من التاكيد على ان الحصار الذي يباركه الله عز وجل هو الحصار الذي يضربه المظلوم على الظالم في المدن والاماكن المغتصبة كالحصار الذي فرضه الرسول (ص) على بني قريظة واليهود في يثرب او الذي ضربه العرب المسلمون حول المدن والقلاع العربية التي استولى عليها الصليبيون، والحصار الذي استأصل شأفة الاسماعيلية الحشاشين ـ أوصان الكرامة العربية بالاجهاز على الغزاة المغول بعد استيلائهم على بعض اجزاء الوطن العربي والبقاع الاسلامية.

وحبب الشيطان الحصار لمن في قلوبهم مرض ـ فهو يماثل الذي فرضه المجرم بوش باسم الشرعية الدولية تحت سقف الامم المتحدة على العراق الاشم الذي يضم جناحيه على قائده الشهم السيد الرئيس القائد صدام حسين (حفظه الله) وعلى شعبه الذي صنع اول حضارة انسانية وليجرح كرامته. فقد طبع هذا الحصار الجائر عدوانهم الامبريالي الصهيوني بطابع وحشي يتأجج بروح الانتقام ويستلذ العذاب البشري، ومما يماثل هذا الحصار الشيطاني ـ ذلك الحصار الذي ضربه البرابرة حول روما سنة ٤١٠ للميلاد الذي انتهى بسقوطها في ايديهم فقد كان لهذا الحادث دوي بعيد في النفوس حتى ان القديس ايرونيموس انقطع عن متابعة عمله. اما الوثنيون من اعضاء الطبقة المسيحية فراحوا يردّون هذا الحادث الى عمل انتقامي من جانب الالهة بعد الذي اصابها من زهد الناس بعبادتها وانصرافهم عنها كما رأوا في هذه النكبة نتيجة وخيمة لزواجر المسيحية ونواهيها وغشيت قلوب المسيحيين هواجس مؤرقة من القلق والاضطراب فاخذوا يتساءلون بشيء من الحيرة لماذا لم يصن الله مدينة القديس بطرس؟ وراح فريق منهم بعد أن وقعوا فريسة الوساوس يتقربون من الاصنام التي رذلوها منذ عهد بعيد، كما اخذوا يروجون الشوائع بقرب نهاية العالم.

اما الحصار الذي استكنه الانسان مضروباً حول نفسه وحقوقه فقد ارتدى صيغاً شتى كالاقامة الجبرية في مدينة، أو في البيت، والارتهان في السجون أو القوائم السود التي تدرج فيها اسماء الشركات والاشخاص؟ وقيود الاستيراد والتصدير، وجوازات

السفر والتنور التي تحاصر النمة والحياة التي يعيشها الانسان في الاسر أو في الاديرة ، والذنوب ، والكتب الممنوعة . وقطع العلاقات الدبلوماسية . وحجز الاموال المنقولة وغير المنقولة . وغير ذلك مما يشكل أبلغ صور الحصار الذي ارتضاه الانسان لازمة من لوازم حياته وحضارته . وقد خشينا في هذا التعامل مع الحصار مغبة الاستطراد التي قد تقود القارىء الى الملل والتضجر .. وهذا التوقع اغرانا بان نزور مالدينا من موسوعات وقواميس ومعاجم لنرى على ما استقرت على الحصار تعريفاتها ـ وبهذا النهج سيصبح القارىء على بصيرة من الحق عندما يحوم فوق الحصار وحوله وتطبيقاً لهذا الاجتهاد اصدق ترحيب بما قيل استكفاء له عما سيقال .

فالاستاذ الباحث محمد فتحي امين يقول في كتابه قاموس المصطلحات العسكرية . الطبعة الثانية « في الحصار) البحري قيام وحدات الاسطول البحري للدولة المحاربة بالاضافة الى قواها الجوية بمنع الاتصال البحري مع مرافيء وسواحل بلاد الطرف المحاصر بغية شل حركة السفن الحربية الموجودة فيها والحؤول دون تموينها بالمواد الغذائية أو المعدات الحربية»

اما الحصار الحربي فانه يتم باقامة نطاق من القوات المسلحة حول موقع محصن كمدينة أو قلعة أومعسكر ومنع اتصالاته مع الخارج ، وحمل المحاصرين على الاستسلام بعد انتهاء ذخيرتهم أو المواد الغذائية الباقية لديهم او المياه المخزونة .

وفي الحصار السلمي ؛ تتخذ الشيء احدى الدول ضد دولة اخرى دون اعلان الحرب عليها فتكلا ، اسطولها الحربي بمنع الاتصال مع مرافيء تلك الدولة بقصد الضغط عليها أو حملها على تحقيق بعض الاهداف الاقتصادية أوالسياسية أو تنفيذ التزاماتها الدولية .

اما الحصر فهو اسلوب تعديل النيران بتأسيس حاصرة زائدة وناقصة على طول خط الرصد ثم تنصيف الحاصرة الى النصف حتى يضرب الهدف اويتم الحصول على المحاصرة المطلوبة .

فهو في بعض صوره ايقاف أومسك او احاطة قوات العدو أو ارغامه على توجيه عملياته الى جبهة معينة ومنع انسحاب اي جزء من قطعاته لاستخدامها في مكان آخر .

ويتمثل الحصر بالرشق : في مجموعة من الاطلاقات بحيث ان عدد الاطلاقات التي تقع زائدة عن الهدف يماثل العدد الذي يسقط ناقصاً عن الهدف .

وقال الدكتور خليل الجر : الحصار هو الموضع الذي يحصر فيه الانسان باحاطة وتضييق .

ويقول احمد عطية الله في كتابه (القاموس السياسي – الطبعة الثالثة ١٩٦٨ – ص٤٦٦) « الحصار الحربي احدى وسائل الحرب ، والمقصود به ضرب نطاق من القوات المسلحة المهاجمة حول موقع محصن كمدينة أوقلعة تمهيداً للاستيلاء عليه بعد استسلام الموقع للمهاجمين بسبب انقطاع موارد المياه والمؤونة عنه ، والوسيلة الثانية التي يلجأ اليها المهاجمون للاستيلاء على الموقع هو ضربه بالمدفع ونحوها حتى تنهار مقاومته ويتم الاستيلاء عليه عنوة مع مراعاة شروط دولية خاصة ـ والحصار الحربي للمدن والعواصم من اقدم الوسائل التي استخدمت في الحروب وارتبطت هذه العمليات عادة بقصص البطولة الوطنية .

وقال رينهارت دوزي : في (تكملة المعاجم العربية – ج٣ – ترجمة د . محمد سليم النعيمي منشورات دار الرشيد بغداد –١٩٨١ – ص ٢١٦) «حصر ، منع ، حجز ، ضغط ، زحم ، ضيق ، حبس ، حشد ، قيد ، قصر » حُصر البلد : يقال ذلك حين يسد من في داخله كل ابوابه . حاصر لاياتي بمعنى احاط به وضيق عليه ومنعه من الخروج من مكانه فقط ، بل تعني ايضاً تاوم الحصار ، وثبت في المكان الذي أحيط به .

وتحاصر : حوصر ويتحاصر : يمكن الهجوم عليه وانحصر : انزوى ، ودخل في «موضع للدفاع عنه ، واستقر ، ولزم المكان» .

ويقول يوسف خياط : في (معجم المصطلحات العلمية والفنية – بيروت – لبنان ١٩٧٤ – ص ١٦٦) الحصر السلمي هو ان تقوم دولة بوساطة اسطولها البحري بعزل ثغور أوشواطيء دولة اخرى بقصد حمل الدولة المحصورة على إجابة مطالب الدولة المحاصرة وهو لايعد من اعمال الحرب ولايؤدي الى الاستيلاء النهائي على السفن التي تخرق الحصر إذ يتمين الافراج عنها بعد انتهائه .

وجاء في الصحاح : (معجم وسيط في اللغة والعلوم منشورات دار النفائس – بيروت – لبنان/ص ٢٠٦) الحصيرُ : المحبس قال الله تعالى : (وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً)

وحصرني الشيء وأحصرني ، اي حَبَسني والحصار الحربي منع وصول المؤن والذخائر الى موانيء العدو عن طريق البحر في وقت الحرب اذا توافرت القوة للدولة التي أعلنت الحصار .

وجاء في الموسوعة العربية الميسرة : اشراف محمد شفيق غربال – نشر دار القلم – ص ٧٢٢ – ٧٢٣ « حصار : احاطة مدينة أوحصن بقوات مسلحة للاستيلاء عليه ، قبل استخدام البارود استعملت الابراج وقضب الكباش الثقيلة لتدمير اسوار الحصن وابوابه .واستخدم الرومان في حصار قرطاجنة ستة آلاف رجل في بناء سقيفة كبيرة تقيهم من السهام وقذائف الحجارة والزيت المغلي التي يرميها المحاصرون . كانت الابراج اهم وسائل الهجوم وكانت تتحرك على عجلات أوتركب على مقربة من الحصن . يتألف البرج من عدة طوابق وتستعمل القضبان الثقيلة في احدها لدق جدران الحصن وتدميرها . وكانت توجد في اعلى البرج قنطرة خشبية يمكن خفضها ورفعها عند الوصول الى حافة شرفات الحصن يعبر عليها الجنود حين اقتحامهم الحصن . استعملت ايضاً عربات كبيرة من الاغصان المجدولة المضفرة المغطاة بالخشب

أو الجلد لوقاية النقابين واللغامين من الضرر وكان المحاصرون والمحصورون يقيمون ربوات من التراب الغرض منها الوصول الى اعلاها للتحكم في الطرف الاخر وكشف حركاته للسيطرة عليه . كان اللغم من اهم أسلحة الحصار . وباكتشاف المفرقعات تأثرت جداً معارك الحصار . مازالت الى اليوم آثار اسوار بعض المدن القديمة وابراجها والحصون والقلاع .

وجاء في الموسوعه العسكرية (الجزء الاول – الطبعة الاولى ١٩٧٧ – بيروت لبنان.ص ٨١٦ –٨١٨) « يعد الحصار عملية حربية تهدف الى احاطة مدينة اوقلعة اوموقع محمي أومحصن بقوات عسكرية ومحاصرته بحيث يمنع المحاصر الى التمركز امام هذا الموقع او المدينة او القلعة او الاحاطة به بقصد ارغام المحاصرين على الاستسلام .

ولقد عرف هذا النوع من القتال العسكري منذ أن نشأت الحروب، ولعبت عمليات الحصار ادواراً هامة في التاريخ العسكري . كما استعملت فيه انواع شتى من الاسلحة ، اختلفت باختلاف العصور والتقدم التكنولوجي لآلات الحرب ، ومن اهم اسلحة الحصار القديمة الابراج المتحركة والدبابة والكباش ، والمنجنيق ، والعرادات وسلالم الحصار . ثم تطورت اسلحة الحصار باستمرار ضمن المسار العام لتطور اسلحة القتال ، ففي الحرب العالمية الاولى استخدمت راجمات الالغام والكرات المعدنية ، والقنابل المدفعية ، ومدافع الهاوتزر الخفيفة (٨ إنج)والهاونات وقد استخدمت القوات الالمانية في هذه الحرب المدافع الرشاشة الطويلة (٦١إنج) كما استعملت القوات البريطانية في العام ١٩١٧ ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف طلقة في مدة عشرة ايام ، وذلك لقصف المواقع الالمانية في ماسين ريدج ، بالاضافة الى زرع حوالي ٢٠ منطقة بالالغام مستعملة ملايين الارطال من المتفجرات . أما في الحرب العالمية الثانية فقد ظهر نوع جديد من المدافع هي مدافع عيار (١٧ إنج) وقد استعملتها القوات الالمانية ضد الحصون في فردان ونول وايبيتال ولييج ونامورمويوز وانتورب واستولت القوات الالمانية بوساطتها على لييج ونامور وموبوز .

وقد ادى اختراع الطائرات المقاتلة والمدفعية ذاتية الحركة والدبابات والعربات المدرعة والقذائف والصواريخ الى تسهيل مهمة المحاصر ، إذ اصبح باستطاعة هذه الآلات الحربية الحديثة ان تدمر المركز المحاصر تدميراً كاملاً ، وذلك بقصفه من مسافات بعيدة .

وكانت المدن تتحصن عادة ضد الحصار باسوارعالية وخنادق عريضة . اما في القرن السابع عشر فيعود الفضل في بناء الاسوار المعروفة بالباسقيان للمهندس الفرنسي فوبان أو بخنادق تحفر حولها وتملأ ماء . أوبانشاء الحصون والقلاع المحصنة التي تبنى من جهات مختلفة من الموقع المراد حمايته ويحتلها المقاتلون للدفاع عن الموقع ضد اي هجوم . وكان المحاصرون (قبل اختراع البارود)يعمدون الى اقتحام الاسوار لينفذوا منها الى الموقع أما بوساطة الابراج المتحركة التي يفتحون بوساطتها ثغرات في السور أوبسلالم الحصار التي يتسلقون بواسطتها اطراف السور . اما الخنادق فكانوا يجتازونها بأن يردموا الجوانب الضعيفة فيها بالاخشاب والتراب كي تجتازها الجيوش الى الموقع المحاصر . ثم تطورت عملية الاقتحام بعد ظهور المدفع ، واصبح تدمير الاسوار بنيران المدفعية أمراً ممكناً وهذا مافقد الاسوار اهميتها وجعل التحصينات الدائمة والميدانية تحل محلها .

والحصار البحري عملية احاطة لشواطئ الطرف الاخر بسفن حربية، بغية عزل تلك الشواطيء وما فيها من موانيء ، ومنع السفن من ارتيادها ، بقصد حرمان العدو مما يحتاج اليه من ذخائر واسلحة ومؤن ومعدات ومواد ستراتيجية .

يكون الحصار البحري اما سلمياً أوحربياً والحصار البحري السلمي هو حصار يفرض في حالة السلم دون اعلان الحرب ، وتستطيع اية دولة ان تفرضه لتجبر دولة اخرى على الانصياع لمشيئتها وفي هذه الحالة يطبق الحصار على السفن الخاضعة لدولة الحصار فقط، ومن امثلته الحصار الذي فرضه الرئيس الامريكي جون كندي على كوبا في تشرين الاول عام ١٩٦٢ لارغام الاتحاد السوفياتي على سحب صواريخه الاستراتيجية من الجزيرة ويعد كثير من القوانين الدولية هذا الحصار غير شرعي .أما الحصار البحري العسكري فهو الذي يهدف الى تحقيق غرض عسكري مباشر (معركة ابي قير البحرية ١٧٩٨) ومحاصرة نلسون باسطوله للاسطول الفرنسي قبل تدميره) ولايحق لاية دولة ان تعلن الحصار البحري مالم يكن لديها القوة الكافية لتنفيذه ، مع التقيد بالقانون الدولي الذي وضع وفقاً لاعلان باريس بعد حرب القرم (١٨٥٦) والقوانين الاخرى التي وضعت وفقاً لاعلان لندن (١٩٠٩) وهي تنص على أن الدولة التي ترغب بفرض حصار بحري ان تعلنه رسماً ، وان تعلم الدولة المحايدة عنه ، وان لايتجاوز هذا الحصار الشواطيءوالموانيءالتي تخص الطرف الاخر . ومن انواع الحصار البحري اللائحة السوداء وهو حصار استعملته انكلترا والولايات المتحدة الامريكية في الحرب العالمية الثانية ، وذلك عندما ادرجت هاتان الدولتان على لائحة اسماء الشركات والاشخاص الذين يتعاطون التجارة مع دول المحور ، فمنع هؤلاء من شراء البضائع من انكلترا والولايات المتحدة الامريكية،وحصار الورق (نسبة الى الاوراق الثبوتية التي تحدد هوية السفن) وهو حصار تمنعه دولة ليس لديها سلطة تنفيذ الحصار البحري العسكري وقد اعلن نابليون هذا النوع من الحصار ضد انكلترا (١٨٠٦) واعلنته انكلترا بدورها ضد فرنسا عام (١٨٠٧)، ويعد الحصار الالماني للجزر البريطانية في الحرب العالمية الاولى من هذا . كما اشتهر في خلال الحرب

العالمية الثانية اذ إستخدمته دول الحلفاء ضد دول محور لتشديد الرقابة على الشحن البحري (الرقابة على الوثائق والتراخيص التي كانت تزود بها دولة محاربة سفنها لتدل على ان سفينتها ، هي تابعة لدولة صديقة او محايدة ولا تحمل أية شحنات محظورة) وللحصار البحري شروط قانونية تستند الى مبادئ ، وتتلخص بما يأتي :

١ - ان يعلن الحصار رسميا بأمر من حكومة محاربة ، وعلى الضابط الذي يتولى امر الحصار ان يعلم السلطات المحلية والقنصليات الاجنبية عن الميناء الذي سيحاصر ، ٢ - ان يكون الحصار قائماً عملياً وفعلياً ، ٣ - ان يكون الحصار مستمراً ومفروضاً على كل السفن على السواء ، ٤ - اذا ارتكبت سفينة ما مخالفة لاوامر الحصار وجهت اليها السفن المحاصرة انذاراً بالامتثال للتفتيش ، وفي هذه الحالة يجب ان يدرج الانذار في سجل السفينة المخالفة ، ٥ - يجب ان يكون لدى السفينة مايدل على ان القائمين عليها (اصحابها - أوشركة الملاحة التابعة لها) على علم بهذا الحصار .

وينتهي الحصار عندما ترفعه الحكومة التي كانت قد امرت به أو يرفعه القائد الذي انيطت به تلك العملية . وقد اشار تقرير صدر عن محكمة العدل الدولية في لاهاي عام(١٩٢٣) الى ما يأتي: عندما يقام حصار بحري في منطقة معينة ، فإن اية سفينة تمر بالمنطقة المحاصرة وفي المجال العائد للقوات القائمة بالحصار ، تكون بما فيها من معدات مشحونة ، عرضة للمصادرة .

ومن اهم الامثلة على الحصار البحري :

١ - حصار السفن البريطانية للموانىء الفرنسية والاسبانية من العام ١٨٠٣ الى ١٨١٤ .

٢ - حصار بريطانيا وفرنسا وروسيا في (١٨٢٦) للشواطىء اليونانية والتي كانت تحتلها الجيوش العثمانية لمنع وصول الامدادات الى هذه الجيوش واكراهها على قبول وساطة الدول المذكورة لانهاء الحرب مع اليونان وقد ادى هذا الحصار الى اشتباك الاسطول العثماني الراسي في ميناء نافارين مع سفن الدول الثلاث التي كانت تقوم بالحصار في معركة حربية أدت الى تدمير هذا الاسطول .

٣ - فرنسا ضد البرتغال (١٨٣١)

٤ - حصار انكلترا ضد اليونان (١٨٥٠)

٥ - حصار الفريدو وينفلد سكوت ، القائد العام للفدراليين ابان الحرب الاهلية الامريكية (١٨٦١ - ١٨٦٥) للموانىء الجنوبية ، ومنع الجنوبيين من الاتصال بحراً باوربا واستيراد آلات الحرب والسلع الاساسية منها .

٦ - حصار انكلترا والمانيا وايطاليا ضد فنزويلا (١٩٠٢)

٧ - حصار الاسطول الياباني لميناء بورت آرثر في الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ - ١٩٠٥) وتكسير الاسطول الروسي فيه ، وقد مني الاسطول الياباني في هذا الحصار بخسائر جسيمة بسبب الالغام البحرية التي زرعها الروس في تلك الميناء .

٨ - في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤ ، اعتبرت بريطانيا بحر الشمال منطقة عسكرية ، وحذرت سفن الشحن من اجتيازه لما بث فيه من الغام كما اعلنت المنطقة الواقعة بين اسكتلندا والنرويج « منطقة عمليات حربية » .

٩ - في شباط (فبراير) ١٩١٥ ردت المانيا على ذلك بان اعلنت القنال البريطاني والمياه المحيطة ببريطانيا وايرلندا « منطقة عمليات حربية » وانذرت بتحطيم كل سفينة تجارية تعبر فيها .

١٠ - حصار الاتحاد السوفيتي لسواحل فنلندة والجزر المجاورة لها في كانون الاول ١٩٣٩ .

وكثيراً ما يكون الحصار البحري عنصراً من عناصر الخنق الاستراتيجي وخاصة اذا كانت الدولة الخاضعة للحصار مرتبطة مع العالم الخارجي بطرق بحرية فقط في ١٢ أيلول ١٩٥٥ مثلاً نفذ الرئيس جمال عبدالناصر حصاراً بحرياً سلمياً ضد الكيان الصهيوني ، عندما وضع قانوناً نظم بموجبه دخول السفن الاجنبية الى خليج العقبة بحيث جعل الدخول اليه مشروطاً بالاعلان المسبق (٩٢) ساعة وبالتصريح بالمرور من قبل السلطات المصرية المكلفة بذلك . وكان هذا الحصار احد اسباب حرب ١٩٥٦ .

وفي ١٦ ايار (مايو) ١٩٦٧ حاول الرئيس جمال عبدالناصر ان يفرض حصاراً بحرياً عسكرياً على الكيان الصهيوني عندما طلب سحب القوات الدولية من سيناء لتحل محلها قوات عسكرية مصرية تسيطر على شرم الشيخ ومضيق العقبة ، وكان ذلك سبباً لاندلاع حرب ١٩٦٧ وفي حرب ١٩٧٣ حاصرت البحرية المصرية الكيان الصهيوني في جهة الجنوب عندما اغلقت مضيق باب المندب امام الملاحة الى الكيان الصهيوني ولم تفتحه الا بعد انتهاء الحرب .

وبعد هذا التمهيد يتاح لنا ان نتطلع ابرز الملامح الحصارية على وفق سياق زمني وعرض موجز وفي اطار عراقي عربي يتوازن مع الصبر والفلاح والنصر والبسالة ـ وهاكم بأهل المورد 'وعاة بعض ماوقعنا عليه ـ وهو :

الحصار في التاريخ القديم (قبل الميلاد)

بعد جولة في المصادر التاريخية والحضارية توصلنا الى ان الحصار القديم ، كان عملية حربية تهدف الى الاحاطة بمدينة او قلعة أو موقع حصين ، ومحاصرته بما يرغم المحاصر على الاستسلام . فقد شهدت الاعوام التي سبقت ميلاد النبي عيسى (عليه السلام) نمو الامبراطوريات القديمة وانهيارها وخلال هذا النمو والانهيار ثار النزاع على السلطات المدنية ، وانطلقت الرغبة في تقسيم المقاطعات والمدن المفتوحة وانتقال السيادة من موطن الى موطن ـ وما رافق هذه الملابسات من تدمير ونيران ومذابح وحصار .

ففي سنة ١٥٨٠ حاصر أحمس (محررمصر) حصن شاروهين في فلسطين واستولى عليه بعد حصار دام ثلاث سنوات .

وفي ١٤٧٩ حاصر تحتمس مدينة مجدو في فلسطين واستولى عليها ونهبها بعد تجويعها

وفي ١٤٠٠ حوصرت مدينة القدس .

وفي سنة ١٢٩٥ حاصر الملك الحوثي سبليوليما القوات الميتانية في

مدينة ابزو (حمص في الوقت الحاضر) واستولى عليها .

وفي سنة ٨٢٤ حاصر الاشوريون مدينة اساتيو (احدى مدن آرارات)

وفي سنة ٨٠٠ حاصر الملك الاشوري اددنيراري مدينة دمشق واستولى عليها.

وفي سنة ٧٢١ حاصر الاشوريون في عهد شلمنصر الخامس مدينة سمارية واستولى عليها .

وفي سنة ٧١٠ حاصر السوريون مدينة سمارية .

وفي سنة ٧٠٢ حاصر سنحاريب مدينة (لبنة) قرب الحدود المصرية .

وفي ٦١٤ حاصر نبوخذنصر مدينة نينوى فسقطت بيده بعد ثلاثة شهور .

وفي سنة ٥٩٧ حاصر البابليون مدينة القدس .

وفي سنة ٥٨٩ حاصر نبوخذنصر مدينة القدس واستولى عليها .

وفي سنة ٥٨٧ حاصر نبوخذنصر مدينة صور واحتلها بعد حصار دام اكثر من عامين .

وفي سنة ٥٨٦ حاصر البابليون مدينة القدس فاستولوا عليها بعد ان انهارت مقاومة اليهود انهياراً تاماً واحرقوا هيكلها .

وفي سنة ٤٩٢ ق.م . حاصر الفرس ارتريا وبعد مقاومة عنيفة استولوا عليها .

وفي سنة ٤٥٦ ق م . حاصر الفرس جزيرة بروسوبتس .

وفي سنة ٤٣٢ ق م . حاصر بركليز مدينة بوتيديا .

وفي سنة ٤٢٩ ق م . حاصرت جيوش لاكيدمونيا مدينة بلاتايا .

وفي سنة ٤٢٥ ق م . حوصرت مدينة سفاكتي .

وفي سنة ٣٩٧ ق م . حاصر العاهل القرطاجي هيميلكو مدينة سرقوسة ولم يفلح في احتلالها .

وفي سنة ٣٨٧ ق م . حاصرت القبائل الكلتية مدينة روما واستولت عليها وقاوم الكابيتول حصارها سبعة شهور ولكن الغزاة انسحبوا بعد اخذ الفدية من المغلوبين .

وفي سنة ٣٣٢ ق م . حاصر الاسكندر المقدوني مدينتي صور وغزة ودام الحصار سبعة شهور ثم استولى عليهما .

وفي سنة ٣٠٥ ق م . حاصر القائد كاساندر مدينة اثينا وعجز عن اقتحامها وحاصر ديمتريوس الاول ملك مقدونيا جزيرة رودس اثني عشر شهراً . ولكن الحامية البطلمية قاومته وحالت دون سقوط الجزيرة .

وفي سنة ٢٩٥ ق.م. حاصر الرومان مدينة سافينوم .

وفي سنة ٢٤٢ ق.م. حاصر الرومان مدينة قرطاجة ودمروها .

وفي سنة ٢٣٢ ق.م . حاصر الاسكندر المقدوني مدينة قيليقية .

وفي سنة ٢١٩ ق م . حاصر هانيبال مدينة ساغنتوم وبعد ثمانية شهور اقتحمها في هجوم عنيف .

وفي سنة ٢١٣ ق.م . حاصر هانيبال مدينة سيلينس ومدينة تارنتوم .

وفي سنة ٢٠٣ ق م . حوصرت قرطاجة وخضعت لشروط الصلح التي

أملاها سيبيو .

وفي سنة ٢٠٢ ق م . حاصر مرشلوس مدينة سرقوسة .

وفي سنة ١٤٧ ق م . حاصر سكيبيو ايميليا نوس قائد الجيوش الرومانية مدينة قرطاجة .

وفي سنة ١٣٤ ق م . حاصر سكيبيو مدينة نومانتيا واستولى عليها .

وفي سنة ٦٣ ق م . حاصرت الجيوش الرومانية بقيادة بومبي مدينة القدس واقتحمت الهيكل في معركة دامية .

تلك هي اشهر حوادث الحصار التي اختزنتها أعوام ما قبل الميلاد في ذاكرة التاريخ .

العراقيون والعرب ضحايا حصار عدواني

تعرض العراق لحصار لم يكن له مثيل في فجر الحضارة قبل ميلاد السيد المسيح وبين القرون التي تلت الميلاد .

انه حصار من نمط عجيب في تاريخ العالم وليس بينه وبين اي حصار افرزته القرون الاربعة بعد الميلاد ما يصلح قاسماً مشتركاً - وسنعرض فيما يأتي بعض النماذج التي تعرض لها العراق والعرب بين وقائع اربعمائة سنة ميلادية :

في سنة ٧٠ حاصر العاهل الروماني تيتوس فسباسيان مدينة القدس ، فسقطت بعد حصار طويل ، فنهبها وخربها ، وقد أقيم قوس تيتوس في روما تذكاراً لذلك .

وفي سنة ١١٥ حاصر الامبراطور الروماني تراجان مدينة الحضر في زمن ملكها نصرو . وقاومه الحضريون ببطولة اجبرته على الانسحاب .

وفي سنة ١٩٥ حاصر الامبراطور الروماني سبتيموس سيفيروس مدينة المدائن وهدمها .

وفي سنة ١٩٨ حاصر سبتيموس سيفيروس مدينة الحضر انتقاماً منها في زمن ملكها عبد سميا الملقب بملك العرب . ودام حصاره عشرين يوماً دون جدوى ، ثم جدد قائده افيديوس كاسيوس ذلك الحصار عبثاً .

وفي سنة ٢٢٤ حاصر الملك الفارسي اردشير مدينة الحضر ولم يتمكن من احتلالها .

وفي سنة ٢٤٠ حاصر سابور الاول مدينة الحضر وبعد سنة كاملة استولى عليها .

وفي سنة ٢٦٣ حاصر اذينة ملك تدمر مدينة المدائن ولم ينجح .

وفي سنة ٢٧٢ حاصر الامبراطور الروماني اورليانوس مدينة تدمر ، واستولى عليها واسر زنوبيا فسارت مقيدة بسلاسل ذهبية في موكب الامبراطور في روما .

وفي سنة ٣٣٨ حاصر سابور الاول مدينة نصيبين ثم رفع الحصار عنها .

وفي سنة ٣٤٦ حاصر سابور الاول مدينة نصيبين مرة ثانية وفشل في الاستيلاء عليها .

وفي سنة ٣٥٠ حاصر سابور نصيبين للمرة الثالثة .

وفي سنة ٣٥٩ حاصر الملك الساساني سابور الثاني (ذو الاكتاف) مدينة اربيل (عاصمة امارة حدياب) وقضى على استقلالها وقتل اميرها قرداغ في اثناء دفاعه عنها .

استمرار النزعة العدوانية

نرى في القرنين الخامس والسادس ان الروح العدوانية لم تلق سلاحاً

ولم ترفع راية بيضاء ، فالفندال يجتازون الراين وينتقلون الى افريقيا الشمالية . وروما تسقط في ايدي الاريك ، اليابان تفتح كوريا الجنوبية ، والمدن الصينية تنهب ، والهون يغيرون على غانيا والامبراطورية الرومانية تموت والبرابرة يعيثون فساداً في افغانستان والهند وغيرها من الحوادث المرعبة . فلا عجب اذا امتحن القرنان الخامس والسادس بويلات الحصار وكوارثه ؛

ففي سنة ٥١٤ حاصر الفرس مدينة القدس فخربوها وحملوا معهم الصليب الذي صلب عليه السيد المسيح (ع) .

وفي سنة ٥٢٦ م حاصرت قبائل الهون ومعهم البلغار مدينة القسطنطينية ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها .

وفي سنة ٥٧٠ حاصر ابرهة الحبشي مكة وفشل .

نعم لقد حوصر العراق ولكن القائد صدام حسين (حفظه الله) استطاع بأيمانه وشجاعته وثباته ان يفتا عن : الحاصر ويشد أزر المحصور وحوصر اطفال العراق بما يسرق حليبهم وحوصرت نساء العراق بما يجرهن من الامل والرجاء .

أنماط من الحصار خدشت الذاكرة الانسانية

كان لمجرمي الحصار في أنماط الحصار التي ازدحم بها القرنان السابع والثامن درس بليغ وعبرة اقوى من ان تنساها اية ذاكرة .

ان قوى الشر في مجتمعات الارض لم تتخل عن المنافسة السياسية والاقتصادية والتنازع على العالم .

● في سنة ٦١٤ حاصر الساسانيون مدينة القدس واستولوا عليها .

● في سنة ٦١٩ حاصرت قريش بني هاشم في شعب ابي طالب .

● في سنة ٦٢٧ حاصرت قريش بقيادة ابي سفيان مدينة يثرب وبعد عشرين يوماً من الحصار شعر مقاتلو الاحزاب بوطأة الحصار عليهم وبسبب الملل الى نفوسهم فانسحبوا الى مكة .

وحاصر المسلمون بني قريظة اليهود في يثرب فاستسلموا بعد اسبوعين .

● في سنة ٦٣٠ حاصر المسلمون بني ثقيف في الطائف فاستسلموا وبذلك تفتت المقاومة الوثنية .

● وفي سنة ٦٣٣ حاصر المسلمون بقيادة عياض بن غنم مدينة دومة الجندل اثر حروب الردة .

● في سنة ٦٣٤ حاصر المسلمون بقيادة ابي عبيدة بن الجراح دمشق سبعين يوماً وقد ضربوا حول اسوارها نطاقاً من الجند تمهيداً لدخولها بكل وسيلة صلحاً أو عنوة ، واخيراً سقطت بايديهم .

● في سنة ٦٣٥ حاصر المسلمون بقيادة ابي عبيدة مدينة فحل في سورية .

● في سنة ٦٣٧ حاصر المسلمون بقيادة هاشم بن عتبة مدينة جلولاء .

● وحاصروا بقيادة سعد بن ابي وقاص مدينة المدائن واستولوا عليها .

● وحاصروا مدينة القدس ودخلوها .

● في سنة ٦٤١ حاصر المسلمون بقيادة النعمان بن مقرن مدينة نهاوند ودخلوها .

● وحاصروا بقيادة عمرو بن العاص حصن بابلون في مصر سبعة شهور وطهروه من الروم .

● وحاصروا مدينة بلبيس المصرية شهراً كاملاً ثم سقطت بايديهم .

● في سنة ٦٤٦ حاصر المسلمون بقيادة عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية للمرة الثانية واستولوا عليها وعفا عمرو بن العاص عن الروم وبنى فيها مسجد الرحمة تذكاراً للحادث .

● في سنة ٦٥٦ حاصر بعض المعارضين لسياسة الخليفة عثمان بن عفان (رض) منزله ؛ وانقضوا عليه وهو يقرأ القرآن الكريم .

● في سنة ٦٦٧ حاصر الاسطول العربي في خلافة معاوية بن ابي سفيان مدينة القسطنطينية ستة اعوام لكنه رفع الحصار .

● في سنة ٦٧٤ حاصر المسلمون في ايام معاوية القسطنطينية اربعة اعوام ولم يفلحوا في تحريرها لان البيزنطيين استعملوا النار الاغريقية .

● في سنة ٦٨٣ حاصر الجيش العربي بقيادة مسلم بن عقبة مدينة مكة المكرمة في خلافة يزيد بن معاوية ، ورفع الحصار عنها بعد مفاوضات فاشلة مع عبد الله بن الزبير .

● في سنة ٦٨٧ حاصر مصعب بن الزبير قصر الامارة في الكوفة اربعة ايام انتهت بمصرع المختار الثقفي .

● في سنة ٦٩١ حاصر الحجاج بن يوسف الثقفي في خلافة عبد الملك بن مروان مدينة مكة المكرمة ستة شهور ورماها بالمنجنيق من جبل ابي قبيس ثم اقتحمها وقتل عبد الله بن الزبير ، وارسل رأسه الى دمشق .

● في سنة ٧٠٩ حاصر قتيبة بن مسلم في خلافة الوليد بن عبد الملك مدينة بخارى واستولى عليها .

● في سنة ٧١١ حاصر العرب حصن طوانة البيزنطي (وهو من الحصون المنيعة في اطراف تايونا) .

● في سنة ٧١٢ حاصر قتيبة بن مسلم مدينة سمرقند واستولى عليها .

● في سنة ٧١٥ حاصر سليمان بن عبد الملك مدينة عمورية ثلاثة شهور بدون طائل .

● في سنة ٧١٦ حاصر مسلمة بن عبد الملك في خلافة اخيه سليمان بن عبد الملك مدينة القسطنطينية براً وبحراً بحيث اربك وضع القائد البيزنطي ليو الثالث ، وقد ضاق اهلها من الحصار ،

وعرضوا على العرب دفع الجزية ، ومع ذلك لم تسقط المدينة .

● في سنة ٧٢٠ حاصر المسلمون مدينة تولوز الفرنسية ولكن الدوق اوبدو حال دون استسلامها .

● في سنة ٧٥٤ حاصرت قوات الحليفين عامر بن عمرو القرشي والحباب بن رواحة مدينة سرقسطة وانزلت الهزيمة بقوات الصميل بن حاتم ، ودام الحصار سبعة شهور ولم يسفر عن احتلالها .

● في سنة ٧٦٧ حاصر عيسى بن موسى قائد الخليفة ابي جعفر المنصور المدينة المنورة ، واقتحمها ليقتل محمداً ذا النفس الزكية .

● في سنة ٧٧٨ حاصر شارلمان مدينة سرقسطة وفشل في احتلالها بفضل مقاومة حسين ابن يحيى الانصاري .

● في سنة ٧٨٠ حاصر جيش الخليفة ابي جعفر المنصور قلعة سنام فيما وراء النهر وكان المقنع يعتصم فيها فما كان منه الا ان اضرم النار فيها فالتهمته والتهمت زوجاته واتباعه .

عندما يستفحل الحصار

ويكفي هنا ان نشير الى الاحداث والوقائع التي انحدرت الينا من القرن التاسع والقرن العاشر والقرن الحادي عشر حيث كانت حافلة بالكثير من الاحداث الجسام حيث فتحت تلك القرون صدرها للتوسع والفتح والاستيلاء وما رافق ذلك من ملابسات ومن امثلة تلك الاحداث استيلاء الفاطميين على الشمال الافريقي وثورة الزنج واعلان خلافة قرطبة وتفاقم الحروب في اوربا وتسلط البويهيين على الخلافة العباسية واندلاع الحروب الكبرى بين البيزنطيين والحمدانيين وتجزئة الامبراطوريات وسيادة النفوذ السلجوقي على بغداد والدعوة الى الحملة الصليبية الاولى واستيلاء الصليبيين على القدس وتمزق الحكم الاسلامي العربي في اسبانيا وهذه اهم احداث ووقائع هذه القرون :

● في سنة ٨٠٩ حاصر رودريك بن شارلمان مدينة طرطوشة واخفق في احتلالها بعد ان تصدى له عبد الرحمن بن الحكم .

● في سنة ٨١٤ حاصرت قوات الخليفة المأمون بقيادة طاهر بن خزيمة التميمي مدينة بغداد وانتصرت على جيش الخليفة الامين .

● في سنة ٨٢٢ حاصر زيادة بن سهل المعروف بابن الصقلبية مدينة باجة ، ولكن زيادة الله ابن الاغلب كسر حصاره واخمد ثورته .

● في سنة ٨٢٧ حاصر زيادة الله الاغلبي بقيادة أسد بن الفرات مدينة سرقوسة الصقلية براً وبحراً واحرق مراكبها .

● في سنة ٨٢٨ حاصر عبد الرحمن بن الحكم مدينة مردة الاندلسية ، وقضى على ثورة محمود بن عبد الجبار .

● في سنة ٨٣٤ حاصر الثائر منصور بن نصير مدينة القيروان وفشل في الاستيلاء عليها .

● في سنة ٨٣٦ حاصر الافشين (القائد جيش الخليفة المعتصم)مدينة البذ التي احتمى بها بابك الخرمي ، واستولى عليها بعد ان دارت فيها حرب ضوارع ثم خربها وقبض على بابك وارسله الى سامراء .

● في سنة ٨٥٥ حاصر محمد بن فالح مدينة تاهرت ، واستولى عليها بعد حصار دام سبعة اعوام .

● في سنة ٨٧١ حاصر الزنج مدينة البصرة وخربوها وفتكوا باهلها .

● في سنة ٨٨٠ حاصر العباس بن احمد بن طولون مدينة طرابلس ودام حصاره ٤٣ يوماً واخفق في الاستيلاء عليها .

● في سنة ٨٨١حاصر الامير العباسي الموفق بمساعدة ابنه ابي العباس مدينة المختارة (عاصمة الزنج في البصرة)حصاراًاقتصادياً وسياسياً ونفسياً ثلاث سنوات .

● في سنة ٨٩٤ حاصر الخليفة المعتضد مدينة ماردين واستولى عليها .

● في سنة ٩٠٩ حاصر المهدي العبيدي مدينة فاس وارغم يحيى بن ادريس (زعيم الادارسة) على طلب الصلح .

● في سنة ٩٣٩ حاصر الخليفة عبد الرحمن الناصر مدينة زامورا واخفق في الاستيلاء عليها .

● في سنة ٩٦٢ حاصر البيزنطيون مدينة حلب بقيادة نافور فوكاس ، ودخلوها ونهبوها وغادروها .

● في سنة ٩٧٥ حاصر سعد الدولة الحمداني مدينة حلب واستولى عليها .

● في سنة ٩٧٦٠حاصر القائد الفاطمي جوهر الصقلي مدينة دمشق وفشل في احتلالها .

● في سنة ٩٨٠ حاصر الملك بلكين بن زيري الصنهاجي مدينة سبتة لطرد الامويين منها ولكنه فشل .

● في سنة ٩٩٦ حاصر الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني مدينة طرابلس .

● في سنة (١٠١٢) حاصر الاسبانيون مدينة قرطبة .

● في سنة (١٠١٥) حاصر المسلمون مدينة سالرنو الايطالية .

● في سنة (١٠٣٠) حاصر المعتمد بن عباد مدينة باجة واستولى عليها .

● في سنة (١٠٥٤) حاصر المعتمد بن عباد الجزيرة الخضراء براً وبحراً واجبرها على الاستسلام .

● في سنة (١٠٥٧) حاصر مؤنس بن يحيى الرياحي مدينة القيروان واستولى عليها .

● في سنة (١٠٦٣) حاصر المعتمد بن عبادامارة تدلب واستولى عليها .

● في سنة (١٠٦٦) حاصر المعتمد بن عباد مدينة ملقا وفشل في الاستيلاء عليها .

● في سنة (١٠٧٠) حاصر القائد السلجوقي تزين اوق الخوارزمي مدينة دمشق وفشل .

● في سنة (١٠٧٦)حاصر السلاجقة مدينة القدس .

● في سنة (١٠٨٠) حاصر الايطاليون مدينة المهدية في الساحل الافريقي واستولوا عليها .

● في سنة (١٠٨٦) حاصر الفونسو السادس (ملك قشتالة) مدينة سرقسطة وفشل .

● في سنة (١٠٩٠) حاصر المعتمد بن عباد حصن اللبط في الاندلس واستولى عليه .

● في سنة (١٠٩٦) حاصر السلاجقة مدينة دمشق وفشلوا .

● في سنة (١٠٩٧) حاصر الصليبيون مدينة القدس .
وحاصروا عاصمة السلاجقة واقتحموها وحاصروا مدينة انطاكية وحاصروا مدينة عكا واستولوا عليها .

● في سنة (١٠٩٩) حاصر الصليبيون بقيادة ريمون الرابع مدينة القدس التي كان يحكمها افتخار الدولة الفاطمي واحتلوها واقاموا عرشا المملكة اللاتينية وقاموا بمذبحة مروعة .

الحصار يجرح القرن الثاني عشر

للحصار ، انماط مختلفة ولكل نمط اهداف بعضها مع الحق ، وبعضها مع الباطل ـ ويستطاع الوقوف على جلية مقاصده في الانماط التي برزت خلال القرن الثاني عشر ـ هذا القرن الذي كان شاهداً على ظهور مدرسة باريس الاسقفية واستمرار الرغبة في تاسيس الاديرة ودخول زراعة الشاي الى اليابان وتصميم صلاح الدين الايوبي على الغاء الخلافة الفاطمية وغيرها من الحوادث والمؤشرات التي زخرفيها هذا القرن ومنها :

● في سنة ١١٠١ حاصر الصليبيون بلدة قيسارية .

● في سنة ١١٠٢ حاصر الصليبيون بقيادة ريمون الرابع مدينة طرابلس التي كانت تحت سيطرة القاضي فخر الملك ، فتغلبوا على بني عمار ولكنهم فشلوا في احتلال المدينة لمقاومتها البطولية .

● في سنة ١١٠٢ حاصر الفاطميون حصن الرملة بقيادة شرف المعالي فاحتلوها وطهروها من الصليبيين .
وحاصر الاسطول الفاطمي مدينة يافا لكنه فشل في استردادها من الصليبيين .
وحاصر الصليبيون مدينة طرابلس ودخلوها .

● وفي سنة ١١٠٤ حاصر الصليبيون مدينة حلب وعجزوا عن دخلوها .

● وفي سنة ١١٠٥ حاصر الاسطول الفاطمي مدينة يافا وفشل .

● وفي سنة ١١٠٦ حاصر محمد السلجوقي قلعة شاهوز وانقذها من الاسماعيلية .

● وفي سنة ١١٠٩ حاصر الصليبيون مدينة طرابلس ودام الحصار عدة سنوات .

● وفي سنة ١١٠٩ حاصر تنكارد الانطاكي حصن الاكراد على حدود طرابلس الشام واستولى عليه .

● وفي سنة ١١٠٩ حاصر محمد السلجوقي قلعة ألموت مركز القيادة الاسماعيلية وفشل .

● وفي سنة ١١١٠ حاصر الصليبيون والبنادقة مدينة صيدا .

● وفي سنة ١١١٨ حوصر الحشاشون في قلعة ألموت ورفع الحصار .

● وفي سنة ١١٢٤ حاصرالصليبيون والبنادقة مدينة صور .

● وفي سنة ١١٣٦ حاصر السلطان مسعود مدينة بغداد .

● وفي سنة ١١٣٧ حاصر عماد الدين زنكي مدينة حمص ولكنه رفع الحصار .
وفي سنة ١١٤٢ حاصر عماد الدين زنكي مدينة الرها واستولى عليها بعد ان قاومه القائد الصليبي جوسلين الكورتناري .

● وفي سنة ١١٤٣ حاصر سنجر السلجوقي مدينة خوارزم وانتهى الحصار بالصلح .

● وفي سنة ١١٤٦ حاصر الصليبيون مدينة دمشق واضطروا الى رفع الحصار عنها .
وحاصر عماد الدين زنكي قلعة جعبر ، كما حاصر روجر الصقلي مدينة طرابلس الغرب واستولى عليها .

● وفي سنة ١١٥٥ حاصر عثمان بن عبد الرحمن الموحدي مدينة المرية واحتلها .

● وفي سنة ١١٥٧ حاصر السلاجقة مدينة بغداد في خلافة المقتفي لامر الله ودارت فيها معركة كانت نهاية المطاف للنفوذ السلجوقي في العراق .
وفي سنة ١١٦٤ حاصر الافرنج مدينة القاهرة .

● وفي سنة ١١٦٩ حاصر املريك (ملك يافا وعسقلان الصليبي) مدينة دمياط ففشل ورفع الحصار .

● وفي ١١٨٧ حاصر صلاح الدين الايوبي مدينة القدس اسبوعاً كاملاً واستولى عليها .
وحاصر مدينة صور ورفع الحصار عنها .

● وفي سنة ١١٨٩ حاصر الصليبيون مدينة عكا في عهد حاكمها السلجوقي باغي سيان واستولوا عليها .

● وفي سنة ١١٩١ حاصر الجيشان الانكليزي والفرنسي بقيادة ريتشارد قلب الاسد عكا واستولى عليها بعد حصار دام سنتين ، وقتل حوالي ثلاثة آلاف أسير من سكانها .

● وفي سنة ١١٩٦ حاصر الخليفة الموحدي يعقوب بن يوسف مدينة طليطلة ودام الحصار اكثر من عشرة ايام ولم يفلح في الاستيلاء عليها .

ويلات الحصار في القرن الثالث عشر

أما اهم طوارئ الحصار التي حدثت في القرن الثالث عشر الميلادي فهي التي عذبت ابناءه بالويلات والمجاعات والامراض ، وطوقت مدنهم ومساكنهم بالرجوم والقذائف وحرمتهم من نعمة الامان .

● في سنة ١٢١٧ حاصر الصليبيون قلعة الطور في الشام .

● في سنة ١٢١٨ حاصر الصليبيون بقيادة جان بريين مدينة دمياط المصرية واستولوا عليها بعد حصار دام ٨٠ شهراً .

● في سنة ١٢٣٦ حاصر المغول قلعة اربيل ولم يتمكنوا من احتلالها
وحاصر فرديناند الثالث (حاكم قشتالة) مدينة قرطبة واستولى عليها .

● في سنة ١٢٣٨ حاصر فرديناند الثالث مدينة اشبيلية واستولى عليها .

● في سنة ١٢٣٩ حاصر ابن الاحمر النصري قلعة مرتلة واستولى عليها .

● في سنة ١٢٤٤ حاصر فرديناند الثالث مدينة غرناطة واخفق في احتلالها .

● في سنة ١٢٤٩ حاصر الصليبيون بقيادة لويس التاسع مدينة دمياط واستولوا عليها .

● في سنة ١٢٥٠ حاصر بنومرين بقيادة امبرهم ابي بكر بن عبد الحق مدينة فاس واستولوا عليها .

● في سنة ١٢٥٥ حاصر يوسف امير بني مرين مدينة تلمسان ولم

يفلح في الاستيلاء عليها .

● في سنة ١٢٥٦ حاصر المغول بقيادة هولاكو قلعة ألموت واستأصلوا شأفة الحشاشين .

● في سنة ١٢٥٨ حاصر هولاكو مدينة بغداد وكان جيشه يتألف من اربعة اقسام اطبقت على بغداد من جانبيها واقام المغول ، عبر دجلة ، بأعلى المدينة واسفلها جسرين قائمين على السفن إمعاناً في تضييق الحصار فاستسلمت ، واطلق هولاكو اصحابه لنهب بغداد فاستباحوها سبعة أيام ، وقدر عدد القتلى مليون و ٨٠٠ ألف كما حاصر المغول بقيادة ارغيو نويان قلعة اربيل وفشلوا في احتلالها .

● في سنة ١٢٦٠ حاصر المغول قلعة دمشق ونهبوها .

● في سنة ١٢٦١ حاصر المغول مدينة الموصل وقاومتهم بالرغم من المجاعة التي قهرت اهلها على أكل الميتة ولحوم الكلاب ، واخيراً استباحوها .

وحاصروا ايضاً جزيرة ابن عمر واستولوا عليها .

● في سنة ١٢٦٣ حاصر الظاهر بيبرس مدينة عكا وانقذها من الاحتلال الصليبي بعد خمسة ايام من الحصار .

● في سنة ١٢٦٨ حاصر الظاهر بيبرس مدينة انطاكية واستولى عليها .

وحاصر ايضاً حصن الاكراد واستولى عليه .

● في سنة ١٢٦٩ حاصر الظاهر بيبرس مدينة يافا واستولى عليها .

وحاصر ايضاً حصن الاكراد واستولى عليه .

● في سنة ١٢٦٩ حاصر الظاهر بيبرس مدينة يافا واستولى عليها .

● في سنة ١٢٧٠ حوصرت مدينة تونس .

● في سنة ١٢٧٥ حاصر الاسبانيون مدينة اشبيلية واخذوا عنها .

● في سنة ١٢٩١ حاصر السلطان خليل بن قلاوون مدينة عكا ونصب حولها ٩٢ منجنيقاً ودام الحصار ٤٣ يوماً وفاوضه الملك هنري (قائد حامية عكا) ولكن السلطان رفض المفاوضات ، فسقطت وكان سقوطها النهاية الفعلية للحروب الصليبية .

طغيان الحصار في القرنين الرابع عشر والخامس عشر

يهمنا ان الحديث الذي استوعب اصنافاً مختارة من الحصار الذي فرضه البغاة المستبدون على الشعوب غزواً أو تأديباً أو اذلالاً أو انتقاماً أو استعماراً قد يستأثر باهتمام الذين يستلهمون التاريخ مايغذي ثقافتهم العامة .

وقد شجعنا هذا الاحتفال على القيام بجولة فسيحة حول عدد من النوازل القاسية التي عانتها البشرية حصاراً في القرنين الرابع عشر والخامس عشر وفق السياق الزمني لها :

ففي سنة ١٣٠٦ حاصر الاستبارية (وهم فرسان القديس يوحنا) جزيرة رودس وطردوا منها السلاجقة .

● وفي سنة ١٣١٠ حاصرت جيوش فرديناند الرابع جبل طارق واستولت عليه .

● وفي سنة ١٣١٩ حاصر ملك قشتالة مدينة غرناطة واخفق في الاستيلاء عليها

● وفي سنة ١٣٣١ حاصر ابو عبد الله محمد (ملك غرناطة) جبل طارق براً وبحراً واستولى عليه بالرغم من امدادات ملك قشتالة الفونسو الحادي عشر .

● وفي سنة ١٣٤٥ حاصر الفونسو الحادي عشر (ملك قشتالة) جبل طارق ولكن تفشي الوباء في جيشه حال دون سقوطه .

● وفي سنة ١٣٩٣ حاصر تيمور لنك بغداد واستولى عليها بعد مقاومة باسلة . وحاصر مدينة تكريت فقاومت اربعين يوماً ثم استولى عليها .

● وفي سنة ١٣٩٨ حاصر تيمورلنك مدينة بغداد بقيادة ابنه ميران شاه اربعين يوماً وقد قاسى سكانها من الجوع وارتفاع الاسعار ثم رفع عنها الحصار .

● وفي سنة ١٤٠١ حاصر تيمور لنك مدينة بغداد من جميع جوانبها اربعين يوماً واستباحها وقتل من اهلها مائة الف واقام من جماجمهم عدة مآذن ، واستحالت المدينة الى مدافن .

● وفي سنة ١٤٤٥ حاصر جهان شاه القره قوينلي مدينة بغداد ووضع السيف في اعناق اهلها .

● وفي سنة ١٤٥٣ حاصر السلطان محمد الفاتح مدينة القسطنطينية خمسين يوماً واستماتت في الدفاع بقيادة الامبراطور قسطنطين الحادي عشر الذي بقيت جثته بين اكداس القتلى دون ان يقف لها على اثر وبذلك ظل الشرق الادنى مغلقاً بوجه الاوربيين اكثر من قرن .

● في سنة ١٤٦٤ حاصر جهان شاه القره قوينلي مدينة بغداد ثم رفع حصاره عنها .

● في سنة ١٤٨٧ حاصر فرديناند (ملك قشتالة) وزوجته ايزبيلا مدينة ملقا واستوليا عليها .

● في سنة ١٤٩١ حاصر فرديناند وايزبيلا غرناطة في عهد الامير ابي عبد الله وبذلك انتهت آخر مملكة عربية اسلامية في الاندلس .

● في سنة ١٤٩٥ حوصرت مدينة نابلس في الضفة الغربية من نهر الاردن .

● ولا شك أن حصيلة القرنين الرابع عشر والخامس عشر من الحصار لا تختلف عن الحصائل السابقة التي نكبت الانسانية في مآربها المختلفة فما بينهما في استحقاق اللعنة تفاوت ملحوظ .

هزائم الحصار في القرن السادس عشر

لم يتخل القرن السادس عشر عن مقاصد الحصار القديمة فهو كالقرون السالفة كان اداة للتوسع والمنافسة والانتقام . ففي هذا القرن تفاقمت الحروب الدينية واعلن الملوك القوميون في اوربا منازعات كانت في الواقع اوسع من حروب العصر الاقطاعي . وفيه انفرد البرتغاليون بوجودهم في الخليج العربي وقد افضت هذه الحوادث الى انماط اخرى من الحصار :

● ففي سنة ١٥٣٥ حوصرت مدينة تونس وكذلك حدثت عدة حصارات لمدن اوربية وعالمية .

ستراتيجية الذئاب تدمر اوربا في القرن السابع عشر

حصار القرن السابع عشر ينبغي ان يشار الى انه كان الشاهد الاصدق

على تمع اوربا الوسطى في حروب الثلاثين سنة وعلى ان حروبه اتسمت باستراتيجية التناب وفي خلال هذا الواقع عرفنا ضروباً اخرى من الحصار :

ففي سنة ١٦٢٤ حاصر الفرس مدينة بغداد واستولوا عليها .

وفي سنة ١٦٢٥ حاصر الصفويون مدينة قندهار وانتزعوها من المغول .

في سنة ١٦٢٦ حاصر الفرس مدينة البصرة فقاومتهم وأفشلت حصارهم .

في سنة ١٦٣٠ حاصر الشاه عباس الصفوي مدينة الحلة بنحو اربعين الف جندي ثلاثة شهور . وقد نهبها وقتل عدداً كبيراً من اهلها .

وفي سنة ١٦٣١ حاصر السلطان مراد الرابع مدينة بغداد اربعين يوماً لاستعادتها من الفرس وقد سيطر على ثلاثين الف مقاتل فارسي ولم ينجو منهم سوى ٣٠٠ جريح وصلوا الى جيش الشاه أشبه بالاموات وما عدا هؤلاء ابيدوا .

في سنة ١٦٨٢ حاصرت القوات الفرنسية مدينة الجزائر وضربوها بالقنابل .

في سنة ١٦٩٣ حاصر مولاي اسماعيل مدينة سبته ودام الحصار ٢٧ سنة وانتهى بتراجعه امام القوات الانكليزية بقيادة المركيز دي ليف .

في سنة ١٦٩٦ حاصر العرب قلعة مومباسا في ساحل افريقيا الشرقي .

اوربا تفتح العالم بالحصار

الحصار الامريكي الذي عز نظيره في الموروث العسكري منذ فجر الحضارة ، ما يزال في اداه وعدوانه ولم اجد له مثيلاً بين حصارات القرن الثامن عشر . لقد واصلت اوربا في هذا القرن فتح العالم واحتلاله وكانت دولها المنقسمة تتنازع العالم وتتحارب في المحيطات والقارات كافة :

- في سنة ١٧٠٤ حوصر جبل طارق .
- في سنة ١٧٠٦ حوصرت مدينة قرطاجة .
- في سنة ١٧٠٩ حوصرت مدينة نابلس .
- في سنة ١٧٣٢ حاصر نادر شاه مدينة كركوك اربعة ايام وقصفهابوابل من القنابل .

وحاصر ايضاً مدينة بغداد سبعة شهور ولكنه اخفق في احتلالها بفضل المقاومة التي ابداها طوبال عثمان باشا . وقد جمع هذا الباشا من الغنائم مايكفي لتحصين وتسليح مدينة جديدة .

وحاصر نادر شاه ايضاً مدينة البصرة بتسعين الف مقاتل واضرم النار في جانبيها ولكنه لم يفلح في الاستيلاء عليها .

- في سنة ١٧٤٢ حاصر الشاه طهماسب مدينة الموصل .
- في سنة ١٧٤٣ حاصر نادر شاه مدينة الموصل اكثر من اربعين يوماً وقاومه اهلها مقاومة بطولية اجبرته على الانسحاب .

كما حاصر مدينة البصرة اكثر من ثلاثة شهور واخفق في الاستيلاء عليها .

- في سنة ١٧٧٥ حاصر محمد ابو الذهب مدينة عكا واستولى عليها .
- في سنة ١٧٧٩ حوصر جبل طارق ثلاث سنوات وسبعة شهور خمسة عشر يوماً ولم يسقط .
- في سنة ١٧٨٢ حاصر الاسبان جبل طارق .
- في سنة ١٧٨٣ حوصرت مدينة مدراس .
- في سنة ١٧٩٧ حاصر العثمانيون قلعة الاحساء .
- في سنة ١٧٩٩ حاصر نابليون مدينة عكا سبعين يوماً ثم رفع الحصار عنها .

الحصار يبارك السيطرة على مصائر الشعوب في القرن التاسع عشر

من خصائص القرن التاسع عشر انه كان محكوماً بالتصدع السياسي والمصحوب بهزات اجتماعية واقتصادية وكان ساسة هذا العصر يهددون الدنيا بجبروت رأس المال . ويسيطرون على مصائر الشعوب بتهاويل التجارة والصناعة .

ففي هذا القرن اندلعت حروب عدة وحوصرت مدن وأذيق اهلها الجوع والمرض .

- في سنة ١٨٠١ حاصرت القوة البحرية الامريكية مدينة طرابلس الغرب حصاراًغير فعال .

كما حاصر الوهابيون مدينة كربلاء ونهبوها وفتكوا بأهلها .

- في سنة ١٨٠٣ حاصر الوهابيون مدينة مكة المكرمة واستولوا عليها .
- في سنة ١٨٠٦ حوصرت مدينة نابلس .
- في سنة ١٨١٢ حاصرت قوات طوسون بن محمد علي باشا المدينة المنورة خمسة واربعين يوماً واستولى عليها .
- في سنة ١٨١٦ حاصرت القوات الفرنسية مدينة الجزائر .
- في سنة ١٨١٨ حاصر ابراهيم بن محمد علي باشا مدينة الدرعية عاصمة الوهابيين ودكها .
- في سنة ١٨٢٧ حاصرت القوات الفرنسية الجزائر حصاراً بحرياً ثلاثة شهور انتقاماً للاهانة التي وجهها الداي الى القنصل الفرنسي دوفال وذلك بضربه بمنشة ذباب ومن هنا بداية الاستعمار الفرنسي .
- في سنة ١٨٣٠ حاصر علي رضا(والي حلب العثماني)بغداد في زمن داود باشا تسعين يوماً واستولى عليها بالدخول من الباب الشرقي واعدم جميع المماليك ورحل داود باشا بصحبة اسرته الى استانبول .
- في سنة ١٨٣١ حاصر ابراهيم باشا مدينة عكا ستة شهور واستولى عليها وطرد العثمانيين منها .
- في سنة ١٨٣٧ حاصرت قوات عبد القادر الجزائري مدينة تلمسان وأخذتها .

وحاصرت القوات الفرنسية مدينة قسطنطينة في الجزائر واستولت عليها .

- في سنة ١٨٨٣ حاصر محمد المهدي (مؤسس الحركة المهدية في السودان) مدينة العبيد ومدينة بارا واستولىعليهما .
- في سنة ١٨٨٤ حاصرت قوات المهدي مدينة الخرطوم ففتحتها

بعد قتال مرير خاضه الجنرال غوردون وقتل خلاله وادي المهدي الصلاة في جامعها الكبير وكان مقتل غوردون عاملاً مهماً في سقوط وزارة غلادستون عام ١٨٨٥م .

الحصار في القرن العشرين يرتدي الشرعية الكاذبة

ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين اقسم الباغيان بوش وكلنتون على ان يضربا باسم الامم المتحدة حول العراق الاشم حصاراً شاملاً ، يصعب نعته بغير المهزلة المأساوية ـ انهما حاصرا العراق عربياً ودولياً ، والبسا الشرعية الكاذبة باقتراف أشنع الجرائم بين تخريب وتجويع وتقتيل .

لقد أرادوه حصاراً اقتصادياً واعلامياً وثقافياً . حصاراً يفتت الارادة العراقية الصلبة ، ويغتال معنويات المؤمنين الصابرين ـ حصاراً يناوي الحياة ويعادي الطموح الحضاري ، وكفى به احتقاراً ان يكون السبب الصارخ في وفيات الكثير من المواطنين العراقيين بضمنهم اعداد كبيرة من الاطفال نتيجة الحرمان من الدواء والتجهيزات الطبية ، وشحة المواد الغذائية . وهذا مالم نجده في أيما حصار على امتداد التاريخ .

● ففي سنة ١٩١٣ حوصر اسكدار وهو أحد أحياء استانبول .

● في سنة ١٩١٦ حاصر الجيش العثماني بقيادة فون درغلو لتز مدينة الكوت وضيق الخناق فيها على القوات البريطانية فاضطرت الى الاستسلام مع قائدها طاوزند .

كما حاصر الامير عبد الله بن الحسين مدينة الطائف ثلاثة شهور واثني عشر يوماً واستسلمت وتخلصت من السيطرة التركية .

● وفي سنة ١٩١٩ حاصر رمضان شلاش القوات البريطانية في دير الزور واستولى عليه .

● وفي سنة ١٩٢٠ حاصرت كتائب الثورة السورية مزرعه السيجري واستولت عليها .

● وفي سنة ١٩٢٠ حاصر العراقيون في ثورة العشرين المجيدة عدداً من الحاميات البريطانية ومقرات الحكام السياسيين الانكليز واستولوا عليها وقتلوا بعض هؤلاء الحكام . كما حاصر رجال الشيخ صالح العلي حامية القدموس الفرنسية واستسلمت لهم .

● وفي سنة ١٩٢١ حاصر الامير محمد بن عبد الكريم الخطابي مدينة اجرين وطرد منها الحامية الاسبانية وقد تقدم قائد القوات الاسبانية سلفستر لفك الحصار ولكنه وجد المدينة ساقطة .

● وفي سنة ١٩٢٦ حاصرت القوات الفرنسية والاسبانية حصن ترجيست الذي كان محمد بن عبد الكريم الخطابي يعتصم فيه فاستولت عليه ولكن الامير الخطابي افلت منهم .

● وفي سنة ١٩٣٠ حاصر القائد الايطالي غرازياني الثوار الليبيين الذين يقودهم عمر المختار في الجبل الاخضر ونكل بهم .

● وفي سنة ١٩٤٢ حاصر الجيش الالماني بقيادة رومل مدينة طبرق .

● وفي سنة ١٩٤٤ حاصر المجاهدون العرب مستعمرة واحات نفتالي الصهيونية في الجليل الاعلى .

● وفي سنة ١٩٤٨ حاصرت العصابات الصهيونية مدينة الفالوجة لتسمي القوات المصرية .

كما حاصرت العصابات الصهيونية (الارغون وزناي ليومي وشتيرن والبالماخ) قرية دير ياسين وأبادت جميع سكانها ولم ينج من وحشيتها حتى النساء والاطفال والشيوخ .

● وفي سنة ١٩٦٧ حاول الرئيس جمال عبد الناصر أن يفرض حصاراً بحرياً وعسكرياً على الكيان الصهيوني عندما طلب سحب القوات الدولية من سيناء لتحل محلها قوات مصرية تسيطر على شرم الشيخ وخليج العقبة وكانت تلك المحاولة سبباً لاندلاع حرب ١٩٦٧م كما حاصر الملكيون اليمنيون مدينة صنعاء سبعين يوماً ثم فك الحصار .

● وفي سنة ١٩٧٣ حاصرت البحرية المصرية الكيان الصهيوني من جهة الجنوب عندما اغلقت مضيق باب المندب امام الملاحة الصهيونية .

● وفي سنة ١٩٨٢ حاصر النظام السوري بقواته المسلحة مدينة حماة وقصفها بالقنابل .

● وفي سنة ١٩٩٠حاصرت الاساطيل الاوربية مدينة بيروت لتجبره ميشيل عون على التخلي عن السلطة .

● وفي سنة ١٩٩٠ حاصرت امريكا والمتعاونون معها شعب العراق الشامخ بقرار مايسمى بمجلس الامن المرقم ٦٦١ الصادر في (٦آب) .

ويحق لنا أن نتساءل : أين الضمير الدولي؟

وماذا أعد للحصار المشؤوم الجائر الذي مايزال مضروباً حول الشعب العراقي بالرغم من افتقاره الى المسوغ القانوني والسائد الاخلاقي؟ فنحن بين عام ١٩٩٠و١٩٩٥ قد بلونا الحصار موقفاً سياسياً حقوداً تشبثت به الدول المتسلطة على مجلس الامن الدولي والامم المتحدة لاوشيجة له بالشرعية الدولية الحقة وانما بشرعية اخترعها دعاة كذابون يتشدقون بالديمقراطية ويلهجون بحماية حقوق الانسان فويل لهؤلاء من نكال يوم عظيم وألف ويل عندما يصنع القرن العشرون على وجوههم مياسم العار .

وفي الختام نقول ان القرارات الظليلة التي اخترعها مجلس الامن ماتزال ناشطة في حرمان الشعب العراقي من مقومات حياته ولكن شجاعة قائدنا المنصور بالله صدام حسين (حفظه الله ورعاه) وايمان الشعب العراقي بقدسية حقوقه ، وملاحم وصمود الماجدة العراقية في اوقات الشدة كل ذلك سيقود الحصار الى القبر مزيلة . فلقد كسرنا باعلامنا الذي لم يتعبه الدفاع عن مستقبل العراق في مواجهة المخطط الاستعماري الهادف الى تجزئة العراق ـ وكسرناه ايضاً بالاغنية التي اطلقناها صرخة مقاتلة ـ وبصبرنا الجميل على ما اصابنا ، وبالمؤتمرات التي احتضنتها بغداد ، وبالمشاركة في الندوات المعقودة خارج قطرنا ـ كما كسرناه بحملات الادانة والاستنكار التي تصاعدت في ارجاء العالم ، والاصوات الداعية الى وقفة تاريخية مع العراق ، والى مساندته في الغاء القرارات الجائرة التي صاغها مايسمى بمجلس الامن . واخيراً كسرناه باعادة البناء والاعمار وان نصر الله بالعبور الى الضفة الاخرى لقريب وقريب جداً ومنه التوفيق .

• • •

دور الموصل والجزيرة الثقافي في

مواجهة التحدي المغولي

٦٦٠-٧٣٦ هـ / ١٢٦٢ - ١٣٣٥ م

بقلم : علي شاكر علي وعلاء محمود خليل قداوي

جامعة الموصل

توطئة :

تعرض الوطن العربي الى اشكال شتى من التآمر والتحدي الاجنبي، طيلة العصور التاريخية وكان الهدف من التحدي والتآمر، الحيلولة دون قيام وحدة الامة العربية السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ويعد الغزو المغولي لجناحه الشرقي في النصف الثاني من القرن السابع الهجري من اشد اشكال التحدي وأخطره. فالغزو لم يستهدف المؤسسات السياسية في المشرق العربي، بقدر ما استهدف الوجود الحضاري والهوية الدينية للامة العربية والغزاة المغول في الاصل هم من الاقوام الرعوية البدائية، التي انطلقت من مواطنها في اواسط آسيا لتنشر الذعر والخراب في ارجاء المعمورة بعدما نجح زعيمهم تيموجين بن يوسكاي الملقب بجنكيزخان (١١٥٤ - ١٢٢٧ م)[١]. في توحيد صفوفهم وتنظيم احوالهم السياسية والعسكرية بسنه قانونا مركزياً لهم. فدانت لجنكيزخان - اواسط اسيا وشرقي اوربا وغرب ايران واجزاء من الصين، وبعد وفاته، استمر خلفاؤه في سياسة التوسع والاندفاع نحو الغرب وبقدر تعلق الامر بالعراق. فقد بدأ خطرهم يلوح في الافق منذ سنة ٦١٦هـ/١٢١٩ م عندما شنوا هجوما على حدود العراق الشرقية. وقد ميزت المصادر سنوات معينة، كسنوات غارة مغولية على شرق وشمال العراق : وهي ٦١٨ هـ ٦٢٨ هـ، ٦٣١هـ ٦٣٣، ٦٤٢ هـ[٢] ولم يكن رد فعل الخلافة العباسية بالمستوى المطلوب بل إن العلاقات السياسية بين الخلافة والكيانات السياسية القائمة في بلاد الشام والموصل واربيل كانت متذبذبة.

وعند تولي الملك الصالح اسماعيل الحكم ٦٥٧ - ٦٦٠هـ/ ١٢٥٩ - ١٢٦٢، والذي قدر له ان يقود ثورة ضد المغول، تعد من اقوى الثورات التي واجهت المغول بعد احتلالهم للعراق. فقد ادرك الملك الصالح اسماعيل بعد وصوله الى السلطة، ان المغول، لا يكتفون بمجرد الولاء بل يخططون لازاحته من الامارة، عندما عينوا في الموصل شخصاً له كلمة الاول في امور المنطقة[٣] فانتهز الملك الصالح اسماعيل هزيمة المغول في معركة عين جالوت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠[٤] فاعلن ثورته، بعد ان حصل على دعم المصريين. وقد استبسل السكان في الدفاع عن المدينة مسخرين كل امكاناتهم الذاتية، لذا استمرت الاشتباكات بين الطرفين شهرا كاملا. وقد خدم الحظ المغول، عندما هبت عواصف رملية حالت دون وصول القوات العربية من الشام لمساعدة الموصليين. استمر حصار المدينة سنة كاملة[٥] اضطر السكان بعدها الى الاستسلام للغزاة فوضع المغول السيف بالمسلمين تسعة ايام وقتلوا أغلب اهلها[٦] وكان ضمن القتلى الملك الصالح اسماعيل وابنه. ولم ينج من القتل الا من اخطأته المذبحة او وجد سبيلا للهروب الى الجبال.

بعد احتلال الموصل، توجهت القوات المغولية نحو جزيرة ابن عمر التي قاومت الغزاة طيلة فصل الشتاء، برغم الحصار القاسي الذي فرضه المغول ولم تفتح المدينة ابوابها الا بعد ان توسط مطران الجزيرة بين السكان والقوات المغولية، فدخل قائد الحملة المغولية سنداغو المدينة التي لم تتعرض للاستباحة وفقا للعرف المغولي في ترك السكان وشانهم عند الاستسلام، ثم دانت للمغول بقية مدن الجزيرة صلحا[٧].

ان المقاومة الباسلة التي ابداها الموصليون سكان الجزيرة في ثورة ٦٦٠ هـ ومعها محاولات التحرير التي قام بها المماليك لطرد الغزاة من العراق[٨] دفعت المغول الى تشديد قبضتهم على الموصل والجزيرة واعتبارها من المناطق الخطرة عليهم. غير ان ذلك لم يزد السكان الا اصرارا في رفض التواجد الاجنبي، وقد عبر هذا الرفض عن نفسه في صورة تقديم الدعم للمساعي المملوكية لطرد المغول من العراق وفي ادامة التواصل الثقافي من خلال بث الروح في المؤسسات الثقافية والتعليمية مرة اخرى، بعد ان تعرضت للخراب والتدمير عند استباحة مدينة (الموصل) والجزيرة من قبل المغول مثلما ذكرنا سابقا، وكان الاصرار في استمرار التدريس بمدارس المنطقة ووضع التصانيف والتأليفات باللغة العربية دون رغبة

وحاجات الحاكمين الاجانب ، يشكل تحديا حقيقيا للمغول . ولعل من المناسب ان نشير هنا اننا لانعني في هذا البحث الثقافة بمفهومها الواسع ، اي جملة السمات والملامح الخاصة التي تميز مجتمعاً او زمرة اجتماعية معينة ، سواء كانت روحية او مادية او فكرية او عاطفية »[٩] بل نهدف التركيز على البعد الفكري للثقافة ودلالاته القومية ، لما لهذا البعد من دور ملحوظ في مواجهة التحديات ، والمحافظة على الشخصية العربية في اطارها التاريخي . اضافة الى انه يفصح عن المكنون الحقيقي للسكان وهم يتعاملون مع واقع سياسي قائم ، طارىء على البلاد لايتردد الماسكون بزمامه في استعمال ابشع الاساليب الاجرامية في خنق اي صوت معادي لهم .

الثقافة العربية الاسلامية والاحتلال المغولي للموصل والجزيرة :

لقد شكلت العمليات العسكرية التي قام بها المغول عند احتلالهم للموصل والجزيرة ، تحديا خطيرا للثقافة العربية الاسلامية ، فقد تعرضت المؤسسات التعليمية والثقافية الى التدمير الكلي او الجزئي كما نجم عن المقاومة التي ابداها السكان تجاه الغزاة استشهاد عدد من العلماء ، الذين جادوا بالنفس للدفاع عن هويتهم الوطنية والقومية والدينية فالشاعر المقاتل ، محيي الدين يوسف بن يوسف بن سلامة بن ابراهيم الموصلي المعروف بابن زيلاق من جملة الذين استشهدوا عند استباحة المغول لمدينة الموصل سنة ٦٦٠هـ /[١٠] كما ان عمليات التخريب والهدم التي كانت الصفة المرافقة لهجمات المغول على العراق قبل احتلاله منذ سنة ٦١٨هـ - حتى ٦٥٦ هـ خاصة وان هذه الهجمات ركزت كما هو معروف على المنطقة الشمالية[١١] التي ضمت مراكز ثقافية مهمة مثل مدينة سنجار وجزيرة ابن عمر وغيرها.ان هذه الهجمات ادت الى فقدان عدد كبير من المخطوطات ، سواء من جراء الممارسات العشوائية لجند المغول ، او عن طريق السطو عليها فيما بعد[١٢] كما لاننسى في هذا المجال ، مافعله بعض من وضع نفسه في خدمة المحتلين ، من تخريب مقصود للمراكز الثقافية ، يضاف الى ذلك ان الدولة الايلخانية المغولية لم تكن متعاطفة مع الثقافة العربية الاسلامية فقد كانت الفارسية هي اللغة الرسمية المعتمد عليها في مؤسساتها ، ومايقال في هذا المجال من أن اعتناق المغول للاسلام[١٣] قد اثر في سلوكهم - اننا نعتقد أن هذا الاعتناق لم يؤد الى تغير في سلوكهم ، فقد ظلت التعاليم الرعوية البدوية ، والتي هذبت بعد تشريع قانون الياسا هي التي تتحكم في قيمهم وتوجه سلوكهم كما ان الاعتبارات السياسية والمذهبية - هي التي دفعت بعض سلاطينهم الى اعتناق الاسلام ، الامر الذي جعلهم بعيدين عن فهم عمق الحياة الاجتماعية والثقافية في الموصل والجزيرة.في الواقع ان المصادر المتيسرة لدينا تشير الى رفض السكان ومنهم العلماء والمشايخ بطبيعة الحال الاحتلال المغولي الذي لم يقف على ارض سهلة[١٤] وقد اتخذ هذا الرفض اشكال شتى ، فمن العلماء من آثر الهجرة الى بلاد الشام ومصر ، ومنهم من بقي في البلاد ، ليواصل نشاطه العلمي ، دون ان يابه بالسلطة الاجنبية وتهديدها ، فكانوا بحق انموذجا رائعا في تقديم صورة ايجابية لتجربة معرفية تاريخية ، رغم الكتب والتشويه والجمود الذي حاول الغزاة فرضه على الواقع الثقافي في الموصل والجزيرة .

علماء الموصل والجزيرة في فترة الاحتلال المغولي

على الرغم من الواقع السياسي المرير الذي خيم على الموصل والجزيرة في فترة التسلط المغولي فقد برز في الموصل والجزيرة عدد كبير من العلماء والمشايخ وفي مختلف الاختصاصات الفقهية واللغوية والفلكية والطبية وغيرها ، انكبوا على الدراسة وعقد الحلقات الدراسية في المساجد والمدارس حتى تربعوا على عرش السلطة المعرفية ، وحفروا خندقا عميقا امام السلطة السياسية الاجنبية للحيلولة دون نيلها من هويتهم القومية والدينية وهكذا فانهم بعملهم هذا تحدوا الغزاة ثقافيا واجتماعيا وشكلوا سياجا امينا حال دون اختراق الغزاة لجدار المعرفة التراكمية للموصل والجزيرة .

واذا تتبعنا نتاجات علماء الموصل والجزيرة في هذه الحقبة التاريخية نجدها قد امتازت بالميزات الاتية : -

١- التنوع في التصنيف والتاليف في مختلف العلوم الفقهية واللغوية والادبية والطبية وغيرها .

٢ - الحرص على استخدام اللغة العربية الفصحى ، اذ قلما نجد كلمة دخيلة في تصانيفهم وتاليفهم الا التي اقتضى سياق التطور الاجتماعي والاقتصادي تسللها الى اللغة وهذا الحرص انما يعبر في جانب منه عن الرفض للواقع السياسي التقليدي واعتزاز بالشخصية القومية من خلال المحافظة على مقوم مهم من مقوماتها ، يقول المرحوم عباس العزاوي بهذا الصدد « ان العلماء لم يتركوا اللغة ، وانما انكبوا على مؤلفاتها ، وحفظوا اصولها وشاعت شيوعا كبيرا وكثر المتعلمون في مختلف عناصر الثقافة . ولكن اللغة تمتاز بجدة لاعهد لها بها ، وهي التدوينات عن لغة المغول وعلومهم وآدابهم وتاريخهم فتعينت فيها حالات لاينكر وجودها ولايهمل امرها ، وعلى كل حال نرى الاثر ظاهرا في تجدد اللغة ... ان الرغبة العلمية والحرص على تكامل هذه اللغة وتكميلها ساق الغيارى من ابنائها الى ان يسعوا سعيهم الحثيث في اتقانها من وجوهها المختلفة واوجدوا ثقافة راقية كانت تقترب مما كانت عليه ايام نهوض الدولة العباسية »[١٥] .

اما في مجال الشعر برز عدد كبير من الشعراء في الموصل

والجزيرة ، والملاحظة الجديرة بالانتباه هنا ان موضوعات الشعر في هذه الحقبة قد تحددت ، فقد اقتصرت على الغزل والتصوف ووصف الطبيعة ، فوجد البعض من الشعراء في شعر التصوف املا وعزاءاً وبلسماً لجراحهم العميقة ، ولم تكن الحبيبة في قصائد بعض الشعراء الا مدينة الموصل او احدى مدن الجزيرة المكتوية بنار الاحتلال ، ولم يكن امام الشعراء الا التطرق الى هذه الموضوعات بعد ان احكم الغزاة قبضتهم على الوضع السياسي في البلاد ومن يتتبع كتب التراجم يجد اسماء عدد كبير من الشعراء .

واذا ما انتقلنا الى العلوم العقلية والعلماء الذين برزوا في هذا المجال فنلاحظ ان عددهم قليل قياسا الى علماء الفقه واللغة والادب فالاشارات القليلة مثلا عن علم الهيئة « الفلك والنجوم » – هو العلم الذي اهتم به العلماء المسلمون اهتماما كبيراً لما له من صلة بتأدية الفرائض ومعرفة اوقات الصلاة ، وضبط بداية شهر الصوم « رمضان » – لاتثير فضول (الباحث في متابعة من اختص بهذا العلم ، ويعتقد ان من كان يهتم بهذا العلم اخذ قسرا الى مرصد مراغة او الى حواضر المغول الاخرى(٦) اذ من المعروف ، ان علم الفلك نال اهتماما استثنائيا من لدن المغول لاعتقادهم باهمية هذا العلم في معرفة طالعهم او مايخبيء لهم الغد من مشاكل وويلات .

اما في مجال الطب ، فاننا نجد اسماء عدد ممن امتهنوا هذه المهنة وادعوا معرفتهم بها وقد نال الطب عناية المغول ، لحماية انفسهم من الامراض التي انتشرت في البلاد بفعل عمليات حصار المدن ، والقتل الجماعي الذي ارتكبوه بحق اهل المدن عند احتلالها ، وانتشار البرك الاسنة والمستنقعات التي كانت تغطي مساحة واسعة في كل مدينة ، وهي مرتع خصب لكثير من الامراض وقد برع اطباء الموصل والجزيرة في معالجة كثير من الامراض ، اعتمادا على المستحضرات المستخرجة من النباتات والاعشاب

اما في مجال الفلسفة فليست لدينا معلومات اكيدة عن وجود الفلاسفة في الموصل والجزيرة ، ويعتقد ان سوق الفلاسفة لم يكن رائجاً في دائرة الاجهزة القمعية ومن اهتم بهذا العلم ، رفض ان يكون بوقاً لدعاية الغزاة المحتلين .

٢ – العلماء المهاجرون :

هاجرت اعداد كبيرة من المفكرين والعلماء الى مصر والشام وغيرها تعبيراً عن رفضهم للسياسة التعسفية للحكام الايلخانيين الغرباء الطارئين على البلاد ، والابتعاد عن جو الاضطهاد الذي خيم على العباد ، وان متابعة كتب التراجم التي اهتمت بشخصيات ورجالات هذه الحقبة والتي تثبتها تظهر اصولا عراقية لكثير من هؤلاء العلماء والمشايخ الذين أسهموا في دفع الحركة الفكرية العلمية في تلك البلاد الى الامام ، ومن متابعتنا لكتب التراجم والمصادر المتاحة استطعنا الوقوف على اسماء لكثير من هؤلاء العلماء والمشايخ ونتاجاتهم الفكرية .

ولعل من المناسب ان نشير هنا ان نسبة كبيرة من المهاجرين كانت من الفقهاء ثم يليهم المحدثين والشعراء وان الهجرة حدثت في السنوات العشرين التالية لاحتلال المغول لمدينة الموصل والجزيرة ولايحتاج المرء الى عناء كبير في تفسير ذلك فالفقهاء المحدثين والشعراء من اكثر الناس تأثراً بوطأة الاحتلال المغولي للموصل والجزيرة بوصفهم النخبة المثقفة في المجتمع يضاف الى ذلك ان المعتقد الوثني للمحتلين الغزاة ، دفع بعضهم الى ترك البلاد والتوجه الى الدولة المملوكية التي أضحت الخلافة العباسية في القاهرة .

٣ –العلماء الوافدون الى الموصل :

رغم الجهود الكبيرة التي بذلها المحتلون الايلخانيون الغزاة لابراز حواضرهم السياسية كالسلطانية وتبريز ومراغة وجعلها مراكز علمية تستقطب العلماء والفنانين سواء من طريق الترحيل القسري للعلماء او تقديم اغراءات مادية ونقل الكتب من المدن العراقية الى هذه الحواضر فان المراكز العلمية في العراق ظلت لها سمعتها العلمية ترنو اليها عيون العلماء والشيوخ من كل حدب وصوب بل ان بعض من العلماء كان يفتخر انه تلقى علومه في الموصل ويميز نفسه بأضافة الموصلي الى لقبه الاصلي فقد استقبلت مدينة الموصل اعداد كبيرة من العلماء ومتابعة كتب التراجم لرجالات القرن السابع الهجري تؤكد هذه الحقيقة التاريخية .

الهوامش

(١) لمزيد من التفاصيل انظر : عبد القادر احمد اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب (بيروت) ١٩٣٦) ، ص ٢٤١ -٢٤٣

(٢) محمد صالح داؤد القزاز : الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية مطبعة القضاء . (النجف الاشرف ١٩٧٠) ص ٧٢-٧٧

٣ – سعيد الديوهجي : تاريخ الموصل . المجمع العلمي العراقي / بغداد ١٩٨٢ ص ٣٢١

٤ – للاستزادة عن معركة جالوت انظر دراسة : عماد عبد السلام رؤوف . معركة عين جالوت دار الحرية للطباعة . بغداد . ١٩٨٦ .

٥ – نوري عبد الحميد خليل : التحدي المغولي وموقف الامة العربية منه – مجلة دراسات الاجيال العدد / الثالث . السنة السادسة ١٩٨٦ ص ٦٤-٦٥

٦ – ياسين بن خير الله العمري . زبدة الاثار الجلية في الحوادث الارضية . انتخب زبدته . داؤد الجلبي . تحقيق . عماد عبد السلام

يوسف . مطبعة الاداب النجف الاشرف ١٩٧٤) ص ٥٠ .
٧ - لمزيد من التفاصيل انظر ؛ علاء محمود خليل . المغول في الموصل والجزيرة (٦٥٦ - ٧٣٦هـ ١٢٥٨ - ٢١٣٣٥ . اطروحة ماجستير غير منشورة . كلية الاداب . جامعة الموصل ١٩٨٥ ص ٩٣ - ٩٧
٨ - عن هذه المحاولات انظر ؛ سالم يونس محمد المولي . العراق في السياسة المملوكية ٦٥٦ - ٧٨٤ هـ اطروحة ماجستير غير منشورة كلية الاداب جامعة الموصل ١٩٨٩ ص ٩٧ - ١١٨ .
٩ - عبد الله عبد الدايم . في سبيل ثقافة ذاتية (بيروت ١٩٨٣) . ص ٢٦
١٠ - انظر ترجمته في ؛ يونين ؛ ذيل مرآة الزمان ؛ ج ٢ ص ١٨١ . ومحمد شاكر الكتبي عيون التواريخ . تحقيق . فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم . (بغداد ١٩٨٠) ج ٢ ص ٢٨٩
١١ - يبدو من سير الحوادث التاريخية . ان تحدي التتر (المغول) في تلك الفترة انصب على مناطق ومدن شمال العراق ... متخذا شكل هجمات عسكرية كخطوة اول تلتها هجمات باتجاه العاصمة بغداد . للتفاصيل عن هذا الموضوع ؛ انظر ؛ حسن فاضل زعين وعبد الرحمن العاني التحدي المغولي . ضمن كتاب . العراق في مواجهة التحديات (بغداد ١٩٨٨) ؛ ج ٢ ص ٢٦٤ .
١٢ - سالم المولي ؛ العراق في السياسة المملوكية ص ١٩
١٣ - عن اعتناق بعض السلاطين من المغول الاسلام انظر... القزاز الحياة السياسية في العراق ص ٢٨٦ - ٢٩٤ .
١٤ - يجد الباحث في ثنايا الروايات التاريخية اشارات تنطوي على دلالات مهمة فالغارات المملوكية التي كانت تصل احياناً الى عمق المدن في الموصل والجزيرة ماكانت تتم لولا وجود تنسيق مسبق بين المماليك والسكان خاصة وان هذه الغارات كانت تستهدف الحامية المغولية والعناصر المتعاونة معها . انظر . سالم المولي العراق في السياسة المملوكية ص ٧٦ - ٧٧
١٥ - تاريخ الادب العربي في العراق . مطبعة المجمع العلمي العراقي بغداد ١٩٦١ ج ١ ص ٢٠
١٦ - الكتبي ؛ فوات الوفيات والذيل عليها . تحقيق احسان عباس . دار الثقافة بيروت ج ٣ ص ٢٥١

• • •

دراسة

تكريت في العهد العثماني

١٥١٨هـ ١٧٣٣م

بين الحصار والمقاومة

علي شاكر علي

جامعة الموصل

١ـ اوضاع تكريت قبل السيطرة العثمانية

على امتداد قرون عديدة للغزو المغولي للعراق ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، كانت تكريت شأنها شان المدن العراقية الاخرى، تُعاني الفوضى والاضطراب بسبب تسلط القوى الاجنبية عليها (هذه القوى التي سخرت مواردها البشرية والمادية لخدمة ماكنتها العسكرية . فقد عاشت المدينة طيلة التسلط الايلخاني في العراق ٦٥٦هـ/ ٧٣٨هـ/ ١٢٥٨- ١٣٣٧م (١) في حالة رفض للوجود الاجنبي وقد عبر هذا الرفض عن نفسه باشكال شتى من رفض للتعاون مع المحتلين، الى التعاون مع المماليك في مصر وبلاد الشام الذين رفعوا شعار تحرير العراق من الغزاة. (٢)

اما في فترة التسلط الجلائري على العراق ٧٣٨/ ٨١٤ هـ/ ١٣٣٧- ١٤١١م فقد خضعت تكريت للجلائريين سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م (٣) غير انها مالبثت ان خرجت عن دائرة النفوذ الجلائري سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م عندما اتصل حاكمها حسن يولتيمور بالسلطان المملوكي « الظاهر برقوق طالباً الدخول تحت حكمه والخطبة باسمه فاجيب سؤاله وكتب له بذلك تقليداً » (٤) والملاحظة المثيرة للتأمل اشارة المصادر الى ازدهار الحياة الاقتصادية في تكريت واطرافها مثل حربي ودجيل (٥) هذه المناطق التي امتازت بوفرة انتاجها الزراعي وجودة صناعة الزجاج في المدينة (٦) وكذلك دفع التجار الضرائب والرسوم لحاكم المدينة (٧) غير ان هذا الاستقرار لم يستمر طويلاً فقد تعرضت المدينة سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م الى غزو مدمر على يد تيمورلنك حاكم ما وراء النهر في فترة غزوه للاراضي العراقية غير ان المدينة قررت الصمود وتحدي الحصار المفروض عليها رغم مرارته وقساوته، بعد ان قطع تيمورلنك جميع الطرق الموصلة اليها، وازاء تحدي السكان للحصار امر تيمورلنك باستخدام العرادات (٨) في قصف بيوت القلعة بهدف النيل من عزيمة المدافعين، فاستمر القصف ثلاثة ايام فدمر بعض البيوت تدميراً كاملا وازاء استمرار الحصار والقصف الشديد قرر حاكم المدينة حسن يولتيمور الاستسلام، غير ان السكان استمروا في الدفاع عن مدينتهم، فسلحوا انفسهم بدروع خشبية كبيرة لصد التوغل التيموري داخل القلعة، حيث وقعت معركة رهيبة بين الطرفين، الحق السكان خلالها بالغزاة خسائر فادحة واخيراً تمكن الغزاة من انهاء المقاومة في ٢٥ محرم ٧٩٦هـ/ ٣١ تشرين الثاني ١٣٩٣م (٩) واستباحة المدينة لمدة معلومة . على اية حال فإن الحكم التيموري لم يستمر طويلاً، فقد تمكن السلطان احمد الجلائري من طرد التيموريين من العراق سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٤م غير ان الحكم الجلائري هو الاخر قد انحسر عن العراق الذي وقع في قبضة قبيلة القرة قويتلي (١٤١١- ١٤٧٢م) (١٠) ثم قبيلة الاق قوينلو (١٤٧٢- ١٥٠٨م) (١١) ويقدر تعلق الامر بتكريت في ظل حكم هاتين القبيلتين فليست لدينا اية معلومات عن اوضاعها السياسية، غير اننا نستطيع القول، ان المدينة قد عانت كثيراً من الويلات والكوارث خلال هذه الحقبة التاريخية المضطربة، فالعراق كله كان مسرحاً للتطاحن بين الامراء المتنافسين من الاسرة الحاكمة القرة قوينلوية أو الاق قوينلوية، فقد ترك هذا التطاحن حالة مريعة من الفوضى والاضطراب، كان من ابرز مظاهرها انتشار الامراض والاوبئة وحدوث المجاعات . على اية حال فقد انطوت

صفحة الاق قوينلوى عن العراق سنة ١٥٠٨م ، وبدأت فترة الاحتلال الصفوي للبلاد وبقدر تعلق الامر بتكريت فلم نجد في المصادر المتيسرة لدينا الى خضوع المدينة للمحتلين الجدد بل يبدو من سياق الاحداث وظروف احتلال الشاه اسماعيل الصفوي لبغداد واطرافها العربية سنة ١٥٠٨م ومقاومه البغداديين للاحتلال الصفوي [١٣] ان مدينة تكريت ظلت بعيداً عن التسلط الفارسي حتى سنة ١٥١٧م حيث دخلت في الفضاء العثماني .

٢ـ تكريت في العهد العثماني ١٥١٧ـ ١٧٣٣م

١ـ دخول تكريت في المجال العثماني : شهد مطلع القرن السادس عشر الميلادي صراعاً عنيفاً بين الدولتين العثمانية والصفوية وكانتا في اوج قوتهما ، وعنفوان شبابهما ، والصراع العثماني ـ الصفوي هو المسؤول عن تولي سليم الاول ١٥١٢ـ ١٥٢٠ العرش ، فقد ارغم والده بايزيد الثاني ١٤٨١ـ ١٥١٢ على التنازل عن العرش ، وباشر على الفور بتعبئة امكانات الدولة العثمانية لمواجهة الصفويين ومنازلتهم في معركة جالديران ٢٣ آب ١٥١٤م ودخول العاصمة الصفوية تبريز ، غير انه لم يتوغل في العمق الايراني فقفل راجعاً الى بلاده على امل ان يعود في العام القادم لاستكمال احتلال ايران [١٢] وقد وفر بذلك للشاه اسماعيل الصفوي ١٥٠٢ـ ١٥٢٤م فرصة جيدة لاعادة تنظيم قواته . والعمل على استرداد الاراضي التي خرجت من دائرة نفوذه في جهات ديار بكر والجهات الشمالية الشرقية من العراق ، الامر الذي دفع سليم الاول الى منازلته مرة اخرى فكانت معركة قرة غين دده بعد مايس ١٥١٦م جنوبي ماردين التي حسمت جميع الاضطرابات والمواقف المتذبذبة بين الطرفين لصالح العثمانيين الذين سقطت اثر المعركة المذكورة بايديهم مناطق كثيرة ، اذ دخلت منطقة شمال العراق تحت المظلة العثمانية هذه المنطقة ذات الاهمية الاستراتيجية البالغة الخطورة ، بوصفها مفتاح الاتصال بالمسالك التجارية البرية والنهرية ، اضافة الى بمثابة العقدة العسكرية التي تتحكم في بلاد الشام من جهات الفرات الاعلى . فكانت حملة سليم الاول على بلاد الشام ١٥١٦م نتيجة منطقية لافرازات السيطرة العثمانية على شمال العراق في خط يتحدد محوره الجغرافي على النحو الآتي : خوى/ كركوك/ اربيل/ الموصل/ سنجار ، اضافة الى ما يعلو هذا الامتداد او يتدانى عنه ، وقد دخلت هذه المناطق تحت السيطرة العثمانية كمناطق مكتسبة عسكرياً ، في حين دخلت مدينة تكريت كمنطقة تابعة [١٤]

على الرغم من دخول تكريت تحت السيطرة العثمانية سنة ١٥١٦م غير ان هذه السيطرة ظلت اسمية حتى حملة السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ـ ١٥٦٦) على بغداد وطرده الفرس منها فقد قرر السلطان سليمان القانوني في اثناء مكوثه في بغداد اسس الادارة العثمانية في العراق ، هذه الاسس التي اتخذت طريقها الى التطبيق في السنوات العشر التالية ، فاخذت تكريت سمة سنجق ضمن ولاية الموصل .

٣ـ سنجق بكية تكريت .

تشير الوثائق العثمانية الخاصة بايالة (ولاية) الموصل ، التي يعود تاريخها الى ٩٥١/ ٩٥٦هـ/ ١٥٤٤ـ ١٥٤٩ الى تقسيم الايالة الى خمسة سناجق وهي : اسكي موصل ، تكريت ، زاخو ، عانة ، كشاف ، موصل [١٥] ويؤكد الرحالة التركي اوليا جلبي بتبعية تكريت لايالة الموصل.والادارة العثمانية في سنجق تكريت هي تجسيد لفلسفة الدولة العثمانية المالية في اعتبار النظام الاداري ، نظاماً حربيا ، وهناك مسألة جوهرية مهمة ، وهي ان سنجق تكريت هو أبعد سناجق ولاية الموصل ، كما انه اقرب سنجق الى ولاية بغداد من جهة الشمال ، الامر الذي ترتب عليه انتقال تكريت في التبعية الادارية بين ولايتي الموصل وبغداد حتى القرن الثامن عشر ، حيث اصبح تابعاً لولاية بغداد .

لقد برزت اهمية تكريت في القرن السابع عشر الميلادي من الناحيتين العسكرية والسياسية بسبب تطور الاحداث في بغداد لغير صالح العثمانيين ، بعد تمرد بكر صوباشي احد قواد الانكشارية على سيده العثماني يوسف باشا والي بغداد سنة ١٦٢٣م [١٦] واستثمار الفرس هذا التمرد لاحتلال بغداد . فجهزت الدولة العثمانية عدة حملات استرجاعية لاسترداد بغداد دائل مدن اسباء فأهمية تكريت برزت من الناحية العسكرية بكونها اقرب منطقة ادارية عثمانية في شمال بغداد ثم هي عقدة عسكرية ذات طبيعة مزدوجة فهي الخط الدفاعي الشمالي اولا ، كما انها تشكل مصدر تموين لاية حملة عسكرية تتجه الى بغداد فخلال حملة الصدر الاعظم خسرو باشا سنة ١٦٢٩م/ ١٠٣٨ لاسترجاع بغداد ارسلت المعدات والتجهيزات العسكرية عن طريق النهر (دجلة) الى تكريت [١٧] . ويبدو لي ان قلعتها استخدمت في خلال هذه الفترة كمستودع للاعتدة والمواد الغذائية كما برزت اهمية سنجق تكريت في اثناء حملة السلطان مراد الرابع ١٦٢٣ـ ١٦٤٠ على بغداد ، اذ بادر الصدر الاعظم مصطفى باشا المرافق للحملة الى منح الشيخ درويش من شيوخ آل العزة تيمار في اطراف تكريت مخمنا بستة الاف اقجة ، على ان يتعهد بتزويد (البارود خانة في بغداد بخمسمائة كلك من الاحطاب سنويا وذلك لصناعة البارود ، كما كان السلطان مراد الرابع في اثناء وجوده في الموصل ، قد امر بارسال تسعة مدافع عن طريق نهر دجلة الى بغداد وذلك لان حيوانات الخدمة التي كانت تسحب هذه المدافع قد انهكها طول الطريق وقسوته ولم يبق بمعية السلطان سوى عشرين مدفعاً [١٨] ويعتقد احد الباحثين [١٩] انه ربما يكون احد هذه المدافع ، ما اصطلح عليه في العراق باسم (طوب ابو خزامة) والذي حيكت

حوله حكايات كثيره .

على اية حال فبعد نجاح السلطان العثماني مراد باشا في طرد الفرس من بغداد تم التوقيع على معاهدة زهاب ١٦٣٩م ، قامت الدولة العثمانية باعادة النظر في الهيكل الاداري في العراق وبقدر تعلق الامر بتكريت فقد ارتبطت بولاية بغداد ، بدلا من ولاية الموصل وكان ذلك سنة ١٦٤٣م [٢٠] اكثر هذه الغزوات خطورة اذ اصبح العراق خلال النصف الاول من القرن الثامن عشر خاصة مسرحاً للصراع بين العثمانيين والفرس ، تجرع العراقيون خلالها انواع المآسي الاقتصادية والاجتماعية وهم لا ناقة لهم ولا جمل فيما يدور بين الطرفين ، ففي سنة ١٧٢٣م شن نادر شاه حاكم ايران [٢١] هجوما واسعا على العراق ، ومن مختلف الجهات ، وكانت ضخامة الحملة تؤكد نوايا المحتل في احتواء كامل التراب العراقي في المرحلة الاولى ، ثم الزحف الى الاراضي العربية الاخرى ، وقد جوبهت الحملة الفارسية في الاراضي العراقية بمقاومة نادرة كشفت عن الوعي المبكر لمخاطر الاحتلال الفارسي الذي يستهدف الهوية والقومية للعراقيين . ومن بين المدن العراقية التي تصدت لنادر شاه مدينة تكريت التاريخية ، ولكي تتوضح ابعاد المقاومة التكريتية في الاطار العثماني علينا ان نقف عند الخطة العسكرية الفارسية في احتلال بغداد والاراضي العراقية الاخرى ففي مطلع سنة ١٧٣٢م زحف نادر شاه عن طريق درنة نحو الاراضي العراقية حتى وصل الى طوزخورماتو ، وهناك عقد اجتماعاً حربياً مع قادة جيشه ، والاتفاق على خطة الهجوم على المدن العراقية ، وبقدر تعلق الامر بخطة المحتل نادر شاه الخاصة بولاية بغداد ، فقد تضمنت احتلال كافة المدن الرئيسة في اطرافها ، والتحكم كذلك بالمسالك الحربية المؤدية الى بغداد مثل المسلك البري شرقي دجلة ، وهو المعروف بالطريق السلطاني ، كذلك المسلك النهري غربي دجلة هكذا هاجمت القوات الفارسية مناطق كركوك والموصل وداقوق وكفرى وقرەتبه [٢٢] كما تقرر في الاجتماع نفسه ان تتحرك قوات فارسية اخرى لاحتلال الحلة وتكريت وهما من مراكز تموين بغداد ، الاول في جنوب بغداد والثانية الى شمالها اما نادر شاه فقد زحف نحو بغداد وفرض عليها حصارا قاسيا لقد نجحت القوات الفارسية في احتلال المناطق في ضوء الخطة العسكرية ، فاحتلت كركوك وداقوق وكفرى وقرەتبه [٢٣] كما نجحت القوات الفارسية في احتلال مدينة الحلة «وقامت بقطع الطرق وقوافل الحبوب والاغذية الى بغداد وبقيت القوة الايرانية في الحلة» [٢٤] اما القوة الفارسية التي زحفت نحو تكريت ، فقد جوبهت بمقاومة باسلة قل نظيرها . يقول المؤرخ الشيخ رسول حاوى الكركولي : فتصدى لها مصطفى باشا (حاكم المدينة) بجنوده يشاركهم السكان الغيارى على اعراضهم ودينهم ودارت بينهما حرب ضروس تمكن اخيراً من دحر الاعداء ، ولكنهم عادوا والتحموا ثانية وابدى كل منهما من الضراوة ما اثار الاعجاب ، وبسبب ثبات الجيوش العثمانية والاهلين لم يرَ الاعداء مفرا من التراجع في وجوههم وعادوا من حيث اتوا [٢٥] وللباحث ان يتساءل ماهي ابعاد مقاومة تكريت للقوات الفارسية ، خاصة واننا نعتقد ان العبء الاكثر في التصدي للغزاة ، قد وقع على السكان [٢٦] وان مصطفى باشا كان يستند الى ارضية صلبة ، هي سكان المدينة .

في الواقع ان ابعاد مقاومة تكريت للقوات الغازية قد تجاوزت اطار الالتزامات التي فرضتها التبعية السياسية للعثمانيين [٢٧] الى الادراك الواعي لطبيعة الصراع العثماني الفارسي لذا لم يكن رد هذه المقاومة الولاء العراقي للحكم العثماني ، بقدر ما كان تعبيرا عن الشعور الوطني والقومي للسكان ضمن الاطار العثماني ، اولا ولان هذا الاحتلال يعبر في جانب منه عن العداء التاريخي الفارسي للعرب ، [٢٨] ومن جانب اخر فان فشل الفرس في احتلال مدينة تكريت قد رفع معنويات البغداديين ، وقوت عزائمهم في التصدي ومقاومة الحصار ، بانتظار وصول قوات عثمانية اليهم كما جعل هذا الانتظار سكان اطراف بغداد يعيشون في حالة التحفز وترقب ، مما اضطر المحتل نادر شاه الى الزحف نحو غرب بغداد ، بعد ان ترك لحصار بغداد اثنى عشر الف جندي كما امر بزحف قوات فارسية نحو الكاظمية وسامراء ويبدو لي ان القتل كان نصيب هذه القوات ، وان مقاومة قد حصلت فيها ، لان المصادر الفارسية [٢٩] تلزم الصمت بشأنها ، كعادتها في التعتيم على اية مقاومة عراقية للقوات الفارسية .

كلفت الدولة العثمانية احد المع القواد العسكريين البارزين وهو طوپال عثمان

(الاعرج) [٣٠] القيادة عسكرية لمعالجة الموقف غير الاعتيادي في بغداد ، وتقدر المصادر عدد افراد الحملة باكثر من ثمانين الف مقاتل وقد ذكر بان معظم الوحدات المشتركة في الحملة كانت سورية وعراقية واناضولية . قضى عثمان الاعرج نصف عام في اعدائه [٣١] وعند الحملة العسكرية الى كركوك عقد القائد العثماني اجتماعاً حربياً للوقوف على اخر اخبار الموقف الاستخباري [٣٢] فاستقر رأى القائد العثماني على مواجهة نادر شاه في اطراف بغداد ، وتحديداً في اطراف تكريت . واذا كانت الاعتبارات الطوبوغرافية مثل وجود السهل وتوفر المياه ، قد املت على القيادة العثمانية اختيار ساحة القتال ، فان المقاومة الشجاعة لتكريت للقوات الفارسية لم تكن غائبة عن اذهان عثمان الاعرج هكذا شهدت صبيحة التاسع عشر من تموز ١٧٣٣ معركة عنيفة بالقرب من سامراء ، تعد من اعنف المعارك ضراوة في التاريخ واكثرها قسوة بسبب الظروف الجوية الصعبة فمن حرارة مرتفعة الى تصاعد غبار كثيف من اجواء القتال . وبعد تسع ساعات من القتال الشرس دارت الدائرة على القوات الفارسية فهرب نادر شاه من ساحة القتال تاركا جثث قتلاه [٣٣] يتبعه من حالفه الحظ في الفرار ومن اخطأته السيوف ، وما ان سمعت بغداد بالهزيمة الفارسية حتى خرجت ومعها احمد باشا واليها ١٧٢٤-١٧٤٧م لمهاجمة القوات

الفارسية التي كانت تحاصر بغداد فقتل عدد كبير منهم وفر الباقون والخيبة تسبقهم[24].

الهوامش

١ـ عن فترة التسلط الايلخاني المغولي انظر : د . محمد صالح داود القزاز . الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية (النجف الاشرف ١٩٧٠)

٢ـ لمزيد من التفاصيل عن خطط المماليك لتحرير العراق انظر : دراسة سالم يونس محمد المولى . العراق في السياسة المملوكية ٦٥٦ـ ٧٨٤هـ . رسالة ماجستير غير منشورة / قسم التاريخ / كلية الاداب / جامعة الموصل ٩٨٩ص ص٦٦ـ ٩٦

٣ـ نوري عبد الحميد العاني . العراق في العهد الجلائري ٧٣٨ـ ٨١٤هـ/ ١٣٣٧ـ ١٤١١م دراسة في اوضاعه الادارية والاقتصادية . دار الحرية للطباعة / بغداد ٩٨٦ص ٤٩

٤ـ ابن حجر العسقلاني . انباء الغمر بابناء العمر . تحقيق حسن حبشي . القاهرة ١٩٦٩ ج١ـ ص٢٧٦

٥ـ حربي : مدينة متوسطة الحجم في اعلى دجيل بين بغداد وتكريت . اشتهرت في العهد الجلائري بكثرة بساتينها وكانت وارداتها منها تقدر بـ ٢٥ الف دينار وقد اتخذها تيمورلنك مقرا لعملياته الحربية سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م وذلك لوفرة العلف والاحراش للخيل انظر : نوري العاني . المرجع السابق الصفحات ٤٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١

٦ـ تشير الباحثة هناء عبد الخالق الى ان تكريت وواسط كانتا من مراكز صناعة الزجاج في العهد الجلائري وفي مديرية الاثار العامة ببغداد نماذج من زجاج الشبابيك وقناني ومحابر ودوارق من الزجاج صنع هاتين المدينتين . انظر : الزجاج الاسلامي في مخازن ومتاحف الاثار في العراق رسالة ماجستير في الاثار الاسلامية . جامعة بغداد ٩٦٩ص١٩٢ـ ٢١٧ كذلك : نوري العاني . المرجع السابق .ص ٢٥.

٧ـ ابو العباس احمد بن علي القلقشندي . قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان . حققه وقدم له ابراهيم الابياري (بيروت ١٩٨٢) ص ١٣٠

٨ـ العرادة : الة خشبية اصغر من المنجنيق تستخدم لرمي الاهداف بعيدة المدى . انظر عبد الله البستاني اللبناني . البستان . معجم لغوي (المطبعة الامريكية . بيروت ١٩٣٠) ج٢ .ص١٥٤٧

٩ـ للوقوف على تفاصيل حصار تيمورلنك لقلعة تكريت ومجرياته واستباحته للمدينة واسرافه في القتل بحيث اقام منارتين وثلاث قباب من جماجم القتلى . وهدمه اسوار القلعة عدا سورا واحد ترك كذكرى لمناعة القلعة وحصانتها وقوة جيشه الذي تمكن من اقتحامها . انظر : جاسم مهاوي حسين . تاريخ الغزو التيموري للعراق والشام واثاره السياسية ١٣٨٥ـ ١٤٠٥ . رسالة ماجستير في التاريخ الحديث (غير منشورة) قسم التاريخ / كلية الاداب / جامعة بغداد ٩٧٦ص ص١٥٣ـ ١٦٣

١٠ـ عن الحكم القره قوينلي انظر : علي شاكر علي . العراق والغزو القرة قوينلو في القرن الخامس عشر الميلادي . مجلة المؤرخ العربي .العدد ٢٨ لسنة ٩٨٦

١١ـ عن حكم الاق قوينلو في العراق انظر : علي شاكر علي . دولة الاق قوينلو في العراق والاناضول بحث مقدم الى قسم التاريخ / كلية الاداب / جامعة الموصل لسنة١٩٨٦م

١٢ـ عن مقاومة بغداد والمدن العراقية الاخرى انظر : د . عماد البواهري . العراق والتوسع الصفوي ١٥٠٢ـ ١٥٣٠ مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد العشرون / تشرين الاول / ٩٧٩ الكويت ص ص٦٨ـ ٧٤

١٣ـ لمزيد من المعلومات عن معركة جالديران ١٥١٤م انظر : حسين محمد القهواتي العراق بين الاحتلالين العثماني الاول والثاني ١٥٢٤ـ ١٦٣٨ دراسة في احواله السياسية والاقتصادية رسالة ماجستير في التاريخ الحديث كلية الاداب / جامعة بغداد ١٩٧٥ص ص٢٤ـ ٨٤ كذلك د . احمد عبد الرحيم مصطفى . في اصول التاريخ العثماني . دار الشروق / بيروت ٩٨٢ص٨٠

١٤ـ للوقوف على تفاصيل اكثر انظر : د . سيار كوكب الجميل . استراتيجية العراق واثرها في نشوء الصراع العثماني ـ الايراني . مجلة افاق عربية السنة السادسة . العدد العاشر . حزيران ٩٨١ وزارة الثقافة والاعلام بغداد / ص ص١٤ـ ٢١

١٥ـ Ba,e vakolete Arsir Dairies . ozal No . 97 .

ومنها نسخة مصورة في مكتبة الدراسات العليا / كلية الاداب / جامعة بغداد . سجلات الدولة العثمانية ولاية الموصل ١٢٥٣

١٦ـ عن حادثة بكر صوباشي في بغداد ١٦٢٣ انظر : علي شاكر علي . تاريخ العراق في العهد العثماني دراسة في احواله السياسية . بغداد ١٩٨٥ص ص ٣١ـ ٣٦

١٧ـ محمد مراد . تاريخ ابو الفاروق . مطبعة اسدي ١٣٢٩ . طبع اول ج/ ٥ص٣١٦

١٨ـ ابراهيم بجسوي : تاريخ بجسوي / ايتكانبول ١٢٨٣هـ/ ج٢ص٤٤٦

١٩ـ حسين محمد القهواتي . المرجع السابق ص٢٦٢

٢٠ـ خليل علي مراد . المرجع السابق ص٤٩

٢١ـ نادر شاه : ولد نادر شاه في كيكان في ٢٢ تشرين الاول ١٦٨٨ ونشأ في خراسان وامتهن في حداثته رعي الاغنام . ثم وقع في الاسر على يد قبائل الاوزبك . غير انه تمكن من الفرار . وبدأ يعيش كقاطع طريق . وفي سنة ١٧٢٦م التحق بخدمة الاسرة الصفوية غير انه خان سيده فقضى على العائلة الصفوية لينصب نفسه حاكماً مطلقاً على ايران انظر : Laurence, lokhart . Nadir shah . London 1938

٢٢ـ من خطة نادر شاه انظر : ميرزا مهدي خان الاسترابادي . جهانكشاي نادري اهتمام سيد عبد الله انوار . تهران . ١٣٣١هـ ص ص١٩٢ـ ١٩٤

٢٣ـ لمزيد من التفاصيل انظر : علي شاكر علي . تاريخ العراق ص١٨٤ وما بعدها

٢٤ـ يوسف كركوش الحلي . تاريخ الحلة القسم الاول في الحياة السياسية . الطبعة الاولى (النجف الاشرف ١٩٦٥ص١٢٢)

٢٥ـ الشيخ رسول حاوي الكركوكلي . دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء . نقله عن التركية موسى كاظم نورس . بيروت ٩٦٣ .ص ٣٠

٢٦ـ للوقوف على ابعاد المواجهة العراقية للغزاة الفرس انظر : د . عماد الجواهري ، العراق ومواجهة التوسع الفارسي ١٧٢٣/ ١٧٤٣ مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية . العدد ٢٠ لسنة ١٩٧٩

٢٧ـ د . ابراهيم خليل احمد ، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦ـ١٩١٦ ، الموصل ١٩٨٦ ، ص٩٠

٢٨ـ عبد الرحمن شرف ، خلاصة تاريخ دولة عثمانية ، قريت ، مطبعة س ، استانبول ١٣٢٥هـ ص١٣٦

٢٩ـ انظر على سبيل المثال ، محمد حسين قدوسي ، نادر نامه ، خراسان ١٣٣٩هـ ، ميرزا مهدي خان الاسترابادي ، المرجع السابق ص١٣٢ـ ١٤٤

٣٠ـ طوبال عثمان : اي عثمان الاعرج ولد في موره عام ١٦٩٢ وتلقى تعليمه في مدرسة سرايلي غير انه عزل بعد سنة واصبح والياً على طرابزون وتفليس ، وفي سنة ١٧٢٣م كلفته الدولة العثمانية لقيادة الحملة العسكرية وقد التصق به لقب الاعرج بعد اصابته في رجله وهو يحارب الاسبان انظر : ترجمته محمد ثريا سجل عثماني ، يا خود تذكرة مشاهير عثمانية . ستانبول ١٣١١هـ ج٣/ ص٤٢٨

٣١ـ رضا نور ، تورك تاريخي رسملي وخريطة لي ، استانبول ١٩٢٤ج٥ص١٣٧

٣٢ـ عماد الجواهري ، العراق ومواجهة التوسع الفارسي ص١١٧

٣٣ـ ستيفن همسلي لونكريك . اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر خياط ، الطبعة الرابعة بغداد ، ١٩٦٨ ، ص١٧٥

٣٤ـ هناك مصادر كثيرة عالجت الصراع بين عثمان الاعرج ونادر شاه سنة ١٧٣٣م ، غير ان دراسة الدكتور لوكهارت الالماني من احسن الدراسات ; انظر Laurence lockhart, The fall of the safavi Dynasty and the Afghan occupation of Persia (Cambridge 1958). PP .27 .39 .

• • •



حصار النجف

قصاص المحتلين من ثورة التحرر سنة ١٩١٨

بقلم الباحث

علي كاشف الغطاء

النجف قلعة العروبة الصامدة في ثغر الصحراء ، فقد عُرفت بالتطلع الى الحرية والنزوع الى الاستقلال على مدى العصور ، فلم تطأطيء رأسها للغزاة ولم تستكين للمحتلين ، فتهبّ للجهاد هبة رجلٍ واحد ، كلما دهمتها دواهيهم وخيّم على سمائها شرورهم ، على الرغم من كونها مهبط العلم ومدينة العلماء ، ولذا نجد أنها إسترعت ، بهذه الطباع إهتمام مُعظم دول العالم المتحضر وشعوبه خاصةً تلك الدول ذات المطامع الاستعمارية التي تخطط للاستيلاء على دول المنطقة العربية وفي طليعتها العراق وتأتي في مقدمة تلك الدول دولة بريطانيا . التي أولى كثير من سياسيها وساستها المعنيين بشؤون العراق في فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى ، عناية خاصة ، للاسباب ذاتها فضلاً عن منزلتها الدينية والروحية . الامر الذي أدى أن يشد بعضهم الرحال اليها ، ليطلع على أوضاعها الاجتماعية ، ويدرس ما كان سائداً فيها من إتجاهات سياسية وفكرية ، إذ كانت النجف في تلك الفترة على مستوى عالٍ من النهضة العلمية والفكرية ، وعلى إتصال بأفكار التحرر والاستقلال التي ظهرت عند المثقفين العرب في أعقاب اعلان الدستور العثماني في سنة ١٩٠٨ ، لذا لم غريباً أن تزور النجف المس جيرترودبيل في ٧ آذار سنة ١٩١١ تمهيداً للاطلاع عليها والتعرف على مجتمعها ، كجزء من إهتمام الساسة البريطانية .

وهكذا لم يمضِ وقت طويل على وقوع بغداد في قبضة الجيش البريطاني في ١١ آذار عام ١٩١٧ ، حتى بدأ أعوان الاحتلال ينصاب الى مدن العراق الواحدة بعد الاخرى ، وسرعان ما عنيت سلطة الاحتلال الكابتن بلفور ، الذي كان يحسن اللغة العربية ، حاكماً سياسياً ، لمنطقة الشامية والنجف ، وعندما وصل بصحبة الميجر بولي حاكم الحلة ، وقعت له مشادة وجدل مع رئيسين من رؤساء المحلات في البلدة هما ، عطية أبو كلل وكاظم صبيّ ، حول الاتاوه التي كان يفرضها عطية أبو كلل ، على القوافل التي كانت تتموّن بالحبوب من النجف .

ولما كانت النجف في تلك الفترة خالية من القوات العسكرية ، شعرت سلطات الاحتلال ، على أثر ذلك الخلاف ، بضرورة وضع حاميات عسكرية في مواقع مميزة من منطقة الكابتن بلفور ، وقام برسي كوكس الحاكم السياسي في العراق مع ثلةٍ من الضباط في أوائل كانون لاول ١٩١٧ بجولة إستطلاعية لتلك الغرض(١) .

وقد وُزعت تلك الحاميات في أوائل عام ١٩١٨ على مناطق الفرات الاوسط ، ووضعت إحداها في « خريبة أم التبن » في مدينة الكوفة التي تبعد سبعة أميال عن النجف ، تحاشياً من وضعها في داخل المدينة المقدسة ، لئلا يسبب ذلك ردود فعل في الاقطار الاسلامية(٢) . وأخذت الحامية تجري تماريها العسكرية في الصحراء بين الكوفة والنجف .

وفي صباح ١٢ كانون الثاني ١٩١٨ إقتربت مفرزة من ثلثمائة من الخيالة الهنود من الجيش البريطاني ، من سور النجف ، تصدى لها النجفيون فجرت معها معركة أسفرت عن قتل أحد الجنود الهنود وجرح الجندي آخر ، فولت المفرزة الادبار وعادت من حيث أتت .

ولم تمضِ إلا ساعات قليلة حتى ظهرت في السماء طائرة إنكليزية لم يتوان بعض المسلحين النجفيين عن رشقها بنيران أسلحتهم بينما إنطلق بعضهم الاخر مهاجماً سراي الحكومة ، مما حمل معاون الحاكم السياسي حميد خان أن يُخليه ويغادر النجف مع موظفيه الى الكوفة(٣) .

ونتيجةً لهذه الحوادث قرر الانكليز تعيين الكابتن مرشال الذي كان معاوناً للحاكم السياسي في الكاظمية ، الذي إعتبرته المس بيل ، « فريداً في لياقته للمهمة الصعبة التي كُلف بها » في النجف(٤) .

وقد وصل الكابتن مارشال الى النجف في اليوم الاول من شباط سنة ١٩١٨ ، واتخذ مقر عمله وسكناه في خان عطيه أبو كلل ، خارج البلدة ، الذي سبق أن أستولى الجيش البريطاني عليه .

وكانت باكورة أعمال مارشال إعادة تشكيل جهاز الشرطة الذي

كان مُعظم أفراده من أبناء النجف نفسها وأبدلهم بآخرين من خارجها ، لاعتقاده بأن الشرطة من أبناء المدينة كانوا ضالعين مع الثوار ويساعدونهم ، ثم شرع في القيام ببعض الإجراءات في الادارة المحلية ، كجباية رسوم البلدية والبدء بتنظيف البلدة التي كانت مهملة وفي حالة مزرية .

لقد تصور الانكليز أنهم بتلك الاجراءات الادارية يستطيعون أن يمتصوا نقمة النجفيين الذين سلبوهم حريتهم واستقلالهم ، وينسوهم قضية بلدهم ، وبذلك يحلون مشكلة الثورة فتتم لهم السيطرة على النجف وما جاورها من مناطق الفرات ، ولكن هيهات فدون ذلك خرط القتاد ، إذ لم يرضخ النجفيون ولم يستسلموا الى إرادة المحتلين فتنادى الرجال الى حمل السلاح وإشهاره في وجه المحتلين الغزاة .

يعزوا بعض الكتاب ، العداء للانكليز في النجف الى أن : « هناك تيار عدائي ـ قائم على أساس الدين ومستمد من حركة الجهاد ، وهو تيار كان يضم عدداً كبيراً من الملالية (رجال الدين) والعوام . فقد ظل هؤلاء ينظرون الى الانكليز نظرتهم الى كافر يجب محاربته ، وكان الكثير من هؤلاء بالاضافة الى ذلك ، يؤمنون بحتمية إنتصار الاتراك وحلفائهم الالمان في الحرب ـ»(*) ويذكر ولسن الحاكم السياسي في العراق في مذكراته قائلاً : « إن الاشاعات أخذت منذ أوائل آذار ١٩١٨ تتتابع باستمرار وفيها الكثير من التفاصيل عن قرب حلول هزيمتنا وعودة الاتراك الى العراق » ، ويمضي ولسن في وهمه هذا فيقول : « إن ثورة النجف ما كانت لتقع لو أنها تأخرت عن موعدها أياماً قليلة ، ففي ٢٦ آذار تم أسر القوات التركية بأسرها في الفرات الاعلى »(٦)

إن الزعم بأن ثورة النجف كانت تعوّل على إنتصار الاتراك في الحرب وتحسب له حساباً ، ولولا ذلك لما قامت الثورة ضد الانكليز ، زعمٌ يفتقد الى الدليل ، بل على العكس ، إذ من المعلوم أن النجف ثارت مراتٍ عديدة ضد الاتراك وطردت موظفيهم وكان آخرها ثورة ٨ رجب ١٣٣٣هـ ـ ١٩١٥ م ، وأخذت تحكم نفسها لبضع سنوات قبل الاحتلال(٧)

ثم توالت الاحداث مسرعةً حين ظهرت جماعة من أبطال النجف الاشداء على رأسهم الحاج نجم البقال(٨) ، الذين خططوا لتفجير الثورة ، بمهاجمة مقر الحاكم السياسي في خان عطية في خارج البلدة .

وكان في رأيهم أن الاستيلاء على المقر سيؤدي حتماً الى إنتشار الثورة في النجف ، وعندئذٍ ستلبي العشائر المجاورة ، نداء الثورة وتنضم اليها .

وفي فجر يوم ١٩ آذار ١٩١٨ إنطلق الحاج نجم مع جماعة من أصحابه نحو المقر ، « وعند شروق الشمس تقدم نحو باب الخان إثنان من المهاجمين هما الحاج نجم البقال ومحسن أبو غنيم ، وكانا متنكرين بزي الشبانة (الشرطة) للتضليل وعندما طرق الحاج نجم الباب سأله الحارس ، من أنت ؟ فاجابه الحاج نجم بأنه حامل البريد « حسن الكصراوي » ، وقدم له مظروفاً كان يحمله معه فلما تسلمه الحارس عاجله محسن أبو غنيم بطعنة خنجر أردته قتيلاً في الحال ، فاسرع الرجلان يتبعهما الآخرون الى الدخول الى الخان وبدأت معركة حامية الوطيس ، اشتد فيها تبادل إطلاق النار بين المهاجرين والحراس ، أسفرت عن قتل أحد المهاجرين وجرح ثلاثة منهم ، وعلى الرغم من مقاومة الحرس الشديدة تمكن المهاجمون من قتل الكابتن مارشال وجرح ضابط آخر كان معه .

وحينما سلط الحراس النيران الكثيفة على المهاجمين من برج الخان قرروا الانسحاب بجرحاهم الثلاثة ، وفي طريق عودتهم الى البلدة ، تصدى لهم أحد الشبانة وأطلق عليهم النار التي أصابت صادق الاديب منهم الذي توفي بعد ثلاثة أيام من إصابته(٩) .

وما أن علم الكابتن بلفور الحاكم السياسي بمصرع مارشال حتى أسرع متوجهاً الى النجف على رأس قوة عسكرية من الجنود ، نشرها داخل المدينة وخارجها .

وعندما وقعت عينا القائد العسكري على جثة مارشال ملطخةً بالدماء ، لم يتمالك نفسه وإنفجر قائلاً : « إن كل قطرة من هذا الدم الغالي تساوي أربعمائة نجفي »(١٠) .

كما فقد الكابتن بلفور هدوءه وإتزانه وراح يكيل السباب واتهم رؤساء المحلات في النجف ؛ الذين حضروا لمقابلته ، وعلى الاثر تجمع عدد من النجفيين المسلحين (المشاهدة) وطفقوا يجوبون الشوارع للبحث عن الجنود والشرطة ويستحوذون على أسلحتهم ويحتجزون بعضهم ويطلقون سراح بعضهم الاخر . ثم هجموا على سراي الحكومة القديم الذي كان مقراً للحرس فولى الحرس الادبار ، تاركين المهاجمين يقلعون أبوابه ويشعلون فيه النيران لتأتي على ما فيه من أثاث وأوراق(١١) ، فكان ذلك إيذاناً باعلان الحرب بين الانكليز والنجف .

وبعد يومين من مقتل مارشال إقتربت كتيبة من الخيالة الانكليز من سور النجف فخرج اليها جمع من النجفيين المسلحين وأخذوا يصلونها بوابل من الرصاص ، وأستمروا يطاردونها ، حتى أجبروها على الانسحاب ، وقد قوت هذه الحادثة عزيمة النجفيين وزادت من تصميمهم على الثورة ، وأثارت فيهم النخوة والحمية ، متناسين خلافاتهم وصار بعضهم يحمس بعضاً ويحثه على القتال ، وقد أشار الشيخ محمد رضا الشبيبي ، الذي عاصر الثورة ، الى ذلك قائلاً .

« إن النجفيين كانوا قبل ذلك مختلفين في كلمتهم وآرائهم ، فلما وقعت واقعة الخالية ، رق بعضهم على بعض وتعاطفوا ونبذوا الخلاف ، فعمد فتيان المحلات الاربع الى حمل سلاحهم وهم يقطرون حماسة ونخوة ، وصرت لا تسمع إلا قولهم : إن الضرورة تقضي بالاتفاق »(١٢) .

وفي اليوم الرابع من الثورة في ٢٢ آذار ١٩١٨ ، وصلت الى

علماء ورؤساء النجف ، رسالة من بلفور ، تطلب اليهم الاجتماع به لاجل المفاوضة فتألف وفد المفاوضة من عدد علماء النجف ووجهائها[١٣] . فاستقبلهم الكابتن بلفور في مقره خارج المدينة ، وقد قدم الوفد اليه طلب النجفيين أن يتخلى الانكليز عن حكم النجف ويتركوها لاهلها ليحكموها بأنفسهم[١٤] .

فكان جواب بلفور : « إن الحكومة الانكليزية تحترم النجف وعلماءها وأهاليها كل الاحترام ، وهي تريد كل الخير لهم (!!) ولكن هناك جماعة من المفسدين هم الذين سببوا الفتنة وأخلوا بأمن البقعة المباركة الشريفة وسلامة العلماء الاعلام المجاورين لهذا البلد الطاهر ، وليس لدى الحكومة سوى مطلب يسير هو تسليم هؤلاء المفسدين اليها لينالوا جزاءهم ـ » فكان رد الوفد ، بأن الوفد جاء لاصلاح ذات البين وتذليل العقبات التي تقف حجر عثرة في سبيل الصلح بين الفريقين ، أما هذا الطلب الذي قدمتموه ، فهو لا يساعد على الصلح ، فقال بلفور « إن هذه هي إرادة القائد العام ، وهي لا تُرد » ، فلما طلب اليه الوفد التساهل وعدم التصلب ، أجاب بأنه سيخابر القائد العام ويبلغ الوفد الجواب في اليوم التالي .

وفي اليوم التالي حسب الوقت المحدد سلم بلفور عشرين من أعضاء الوفد الشروط التالية :

أولاً : تسليم القتلة ومن أشترك معهم بالفتنة بلا قيد أو شرط .

ثانياً : غرامة ألف بندقية وخمسين الف روبيه ، يجمعها الشيوخ المخلصون من محلات البلدة التي كانت لها يد في الفتنة .

ثالثاً : تسليم مائة شخص من المحلات الثائرة الى الحكومة البريطانية لسوقهم من النجف كأسرى حرب[١٥] .

وعند تقديم هذه الشروط للوفد صرح قائلاً : « إن النجف ستبقى تحت الحصار الشديد فيمنع عنها الطعام والماء الى أن تستجيب للشروط وتنفذها بحذافيرها[١٦] .

وهنا لا بد لنا من الإيضاح أن بريطانيا العظمى ذات السطوة والقوة قد لجأت الى وسيلة الحصار الذي هو من وسائل الإكراه التي تتكون من أعمال غير مشروعة ، يحرمها القانون الدولي العام بصورة عامة وأن علماء القانون يرون أن الحصار بهذه الوسيلة مدعاة للشك والريبة في مشروعيته[١٧] ، ويذهب علماء القانون الدولي الى أن القانون ، قد يجيز القيام بها إستثناءً على أن يكون ذلك رداً على عمل غير مشروع يكون قد وقع قبل الدولة من الدولة الاخرى التي تستعمل هذه الوسائل ضدها ، وذلك بشروط منها :

١ ـ أن تكون قد فشلت جميع الوسائل الودية في فض النزاع القائم .

٢ ـ أن لا يكون هناك عدم تناسب غير عادل بين العمل الذي فرضت من أجله أعمال الاكراه ، وبين أعمال الإكراه نفسها .

وإن عدم التناسب هذا هو ما حدث فعلاً في فرض الحصار على النجف عقاباً لها على ثورتها المشروعة من أجل التحرر من الاحتلال الاجنبي ، فأن قتل بضعة أفراد عساكر السلطة المحتلة لا يبرر مطلقاً فرض الحصار على المدينة بأكملها وحرمان سكانها من مقومات الحياة ، الغذاء والماء ، هذا فضلاً عن إجراءات التشدد لتضييق طوق الحصار وإعلان الرغبة في الامتصاص والثأر من النجف ، فقد جاء في برقية القائد العام ، جواباً على برقية علماء النجف التي قالوا فيها « إن النجف زاوية دينية لا ميدان حرب » قوله : « إن التصميم لهو تصميم بريطانيا ، وإن قصاص البلدة لم يبتدىء بعد وأنهم (أي الانكليز) لن يرفعوا الحصار حتى يثأروا بالمشانق ونسف البيوت والمنافي وتثقيل الغرامات »[١٨] .

لقد رفض النجفيون الشروط جملةً وتفصيلاً ، وصمموا على مواصلة الثورة والوقوف صفاً واحداً في وجه المحتلين حاملين أسلحتهم استعداداً للقتال .

أما الانكليز فقد حشدوا قوات كبيرة في الكوفة ، بقيادة الجنرال ساندرز وتمركزت طلائع تلك القوات في مقام كميت بن زياد الذي يبعد كيلومترين عن سور النجف ، وشرعت بحفر الخنادق ووضع المتاريس ونصب الاسلاك الشائكة حول سور المدينة ، فاحكمت طوق الحصار على النجف فانقطع كل إتصال لها مع الخارج ، فلم يعد بالامكان أن يدخل اليها أو يخرج منها أي أحد .

كان نطاق الحصار المضروب حول السور في بداية الامر على بعد ألف يارد تقريباً ثم تقلصت هذه المسافة وجرى تقريبه لمسافة أقصر بكثير وعزز بنطاق آخر من الاسلاك الشائكة .

وللإمعان في تشديد الحصار قام الانكليز بسد جدول « السنية » الذي يأخذ مياهه من نهر « جحات » في مدينة أبي صخير ويمر بالقرب من سور النجف ، حيث كان الناس يستسقون منه ، ولم يدخر الانكليز وسعاً في إتخاذ شتى الوسائل لمنع وصول أية كمية من الاطعمة أو الحبوب أو الماء العذب الى النجف من الخارج .

لقد إستمر الحصار مدةً تزيد على الاربعين يوماً لاقى خلالها الاهالي الامرّين وكابدوا أقسى حالات الحرمان وندرة الماء وقلة الغذاء ، وأضطر الناس الى الاعتماد في مشربهم على مياه الآبار المالحة التي لا تستساغ والتي تمجها الافواه وتعافها النفوس وقد وصف الشيخ محمد رضا الشبيبي ، ذلك بقوله : الذي كان يعيش في النجف أثناء الحصار .

« وأفظع آثاره ـ يقصد آثار الحصار ـ إنقطاع الماء ، فقد التجأ المحهوز الى مياه الآبار الملح الزعاق وهم يدعونه (ماء المدينة والدلو) . وماء هذه الآبار من الاقنية القديمة ... وقد بيع حمل الماء العذب بليره ومجيدي (بالعملة العثمانية) هذا اليوم ـ يقصده ٢٥ آذار ١٩١٨ »[١٩] .

في مساء يوم ٣١ آذار ١٩١٨ أمطرت السماء وابلاً غزيراً لم تشهده المدينة منذ سنين ، فاسرع الناس لجمع ما أنعم الله عليهم من الماء العذب الذي حُرموا منه من جراء الحصار ، بعد أن يأسوا من الحصول عليه ، مهما حاولوا ، حتى أن عوائل كاملة

لاقت حتفها برصاص الجنود الحرس، عند محاولتها عبور السور، سعياً وراء صفيحة من الماء العذب.

ولقد جاء في عريضة الإحتجاج على الحصار التي وجهها عدد من كبار علماء النجف الى القائد العام للجيوش البريطانية في العراق، قولهم:

« وأشد البلاء قطع الماء فإنه من العقوبات التي لا تُسوّغ في جميع الاديان البشرية، فإن لم تكن رحمةٌ للرجال فالرأفة على النساء والاطفال ... وقد أشرفت النفوس على التلف والهلاك من الجوع والعطش وتعطيل الاسباب. وهذه المعاملة ضربة على جملة العالم الاسلامي، جارحة لعواطف عامة المسلمين ... »[30]

ولكن القائد العام لم يكترث بإحتجاج العلماء ولم يُعط بالاً الى النواحي الانسانية التي أشاروا اليها وبدلاً عن ذلك، طلب اليهم أن يساعدوه في إنزال العقاب بالثوار. قائلاً:

« في إستطاعة النجف الاشرف أن تخرج سالمة من مأزقها الحالي إذا خضعت للشروط التي سبقت وعرضناها. ففي إمكان حضرات المجتهدين والعلماء الاعلام حكام النجف المسلمين، لا بل الاحرى عليهم أن يطهروا بلدتهم من مفسديها. كما وعليهم مساعدتنا على إيقاع العقاب(!!) بأولئك اللذين إقترفوا تلك الجريمة[31] وعلى من حرضوا على إرتكابها ...»[32].

لقد كان البرقية القائد العام، أثرها السيء في نفوس النجفيين بمختلف طبقاتهم وأستنكرها العلماء فبادرت جماعة منهم الى الرد التالي بتاريخ ٣٠ آذار ١٩١٨.

« لحضور حضرة القائد العام للجيوش البريطانية في العراق تلقينا تلغرافكم نمره ٢٨٠٢ بتاريخ ٢٦ آذار ١٩١٨ وأخذنا ما فيه بنظر التدقيق، تذكرون أنكم لم توقعوا العقاب بالاهالي الذين لم يخالفوا القانون. ونحن نفصح بالصراحة، أن البلاء والعقاب ما وقع ولن يقع إلا على الابرياء والضعفاء الذين لا جناية لهم ولا تقصير وقد نشرنا لعدالتكم ـ طالبين رفع الحصار والأسر عن الابرياء والضعفاء بإصدار العفو العام وعسى أن لا يكون خفيٌ عليكم عجز العلماء وعامة الاهالي عما تقدر عليه دولة معظمة كالدولة البريطانية التي وعدت بحفظ حرمات الاسلام ورعاية المسلمين، كما أعلن القائد الفاتح مود في أوائل فتح بغداد، وأكده الحاكم الملكي العام، بحفظ نواميس معابدنا التي صارت منذ اكثر من عشرة ايام هدفاً لرصاص المتراليوز، وشؤون العلماء مهتوكة بهذا الحصار الشديد. وبالنهاية نقول بكل صراحة بدافع النصيحة للدولة الفخيمة أن هذا الحصار الذي أوجب تلف عدة من نفوس الابرياء من الغرباء والمجاورين كل يوم بالقتل والجوع والعطش، كل هذا فضلاً عن مغايرته للرأفة والعدالة، ومخالف للنواميس الانسانية وحفظ حقوق البشرية وموجب هتك الحرمات الاسلامية، وهو ضد المصلحة المرعية لمثل هذه الدولة الوحيدة بالسياسة التي لا يعجزها مثل هذه المسألة الطفيفة. أما العلماء فلم يقصروا ولا يقصرون بالقيام بوظيفتهم في الوعظ والنصح والإرشاد، وكيف وهو من واجباتهم الدينية. ولكن لا تكاد تنحسم المادة بصرف الوعظ والنصح فقط حتى تنضم اليها مساعدتكم بالعفو والسياسة اللازمة في مثل هذا الوقت ولذلك الامل فيكم أكيد باصلاح هذه الغائلة بالتدابير الحازمة بالقريب العاجل إنشاء الله »[33].

لقد أغضبت هذه البرقية القائد العام أيما إغضاب وحملته على التعسف والتشدد في منع وصول أية كمية من المؤمن الى النجف فندرت الاطعمة وارتفعت أسعارها الى درجة تفوق الخيال، فاصبح القوت في تمنيات الناس وأحلامهم كالياقوت، ونفذ جميع ما كان مخزوناً لديهم من حبوب وتمور، وصار الناس يقتاتون بلحوم حيوانات، ليست من الماشية ولا من الطائرة التي إعتادوا على أكلها.

وفي صباح يوم ٥ نيسان ١٩١٨ أذاع قائد جيوش النجف والكوفة المنشور التالي:

١ ـ إن اطلاق النيران المستمرة من الاشقياء على العساكر البريطانية لا يمكن أن يحتمل اكثر.

٢ ـ وبالنظر الى هذا ستتخذ الاجراءات التي أجدها ضرورية، غير أن هذه الاجراءات ستسري في بادىء الامر على بعض المحلات الخارجة عن البلدة. فعلى الاهالي أن يبتعدوا عن الاسوار وعن نواحي البلدة كي يسلموا من الضرر، وأنصحهم أن يختبؤا داخل السراديب بينما المدافع (الطواب) تطلق نيرانها.

٣ ـ وليتأكد حضرات العلماء الاعلام والاهالي الخاضعون أنه لا يحصل أي ضرر للمحلات المقدسة داخل البلدة[34].

قائد جيوش
النجف والكوفة

وفي أعقاب إذاعة المنشور في أعلاه، بدا للجيش الانكليزي أن الحصار قد فعل فعله الذي كانوا يستهدفونه في إنهاك أهالي النجف وثوارها من جراء الجوع والعطش، وإضعاف قوتهم في المقاومة وقدرتهم على القتال. فقرروا الهجوم على المدينة، بدءً بالاستيلاء على تل « العقلاب » ذي الموقع الستراتيجي في الجهة الغربية بالقرب من محلة الحويش في المدينة فلم يمض فجر يوم ٧ نيسان سنة ١٩١٨، حتى أمطروا التل بوابل من القنابل والرصاص الكثيف حتى تمكنوا من التل فاحتلوه وأخذوا يتغلغلون في المدينة تحت من نيران مظلة مدافعهم ثم شرعوا في هدم البيوت كما قرروا هدم السور في الجهة الغربية بقصفه بالقنابل لارهاب الثوار وإجبارهم على الاستسلام.

وبعد أن تسنى للجيش الانكليزي الاستيلاء على أحياء المدينة المهمة وبث عملائهم لكي يتتبعوا أخبار رجال الثورة وأماكن وجودهم، بقصد القاء القبض عليهم، وقد تمكنوا من ذلك وتم تنفيذ حكم الاعدام بأحد عشر من أبطال الثورة، في الكوفة في التاسع عشر من شعبان ١٣٣٦ هـ (٣٠ أيار ١٩١٨ م) وهم ١ ـ كريم حاج سعد ٢ ـ أحمد حاج سعد ٣ ـ محسن الحاج سعد

٤ - سعيد صلوك الحاج سعد ٥ - كاظم صبي ٦ - محسن أبو غنيم ٧ - عباس علي الرماحي ٨ - علوان علي الرماحي ٩ - الحاج نجم البقال ١٠ - جودي ناجي ١١ - عبدالحاج نعميل، ونفي مائة وخمسة وعشرين شخصاً الى الهند، اثنان منهم استلمهم الشيخ خزعل امير عربستان.

وعلى أي حال بدأ الانكليز فك الحصار عن النجف منذ اليوم الثاني عشر من نيسان ١٩١٨ فشرعوا يسمحون لبعض الاسر والاشخاص بالخروج من المدينة بعد الحصول على رخصة منهم، وقد إستنكر أهالي النجف الطريقة التي إتبعها الانكليز في التمييز بين الناس في السماح بالخروج.

وفي اليوم الاول من آيار ١٩١٨ أذن لسادن الروضة الحيدرية بفتح أبواب الحرم العلوي التي كانت مغلقة طيلة أيام الحصار.

ثم بدأ الانكليز في صبيحة اليوم الرابع من أيار من نفس السنة يزيلون الاسلاك الشائكة من حول النجف، وجاء بلفور بنفسه في عصر ذلك اليوم فازال بيده الحاجز الذي كان يسد مدخل النجف باتجاه الكوفة. إيذاناً بفك الحصار نهائياً عن النجف، وهكذا أزيلت الغمة عن المدينة التي ناضلت وضحت بالغالي والنفيس وبذلت الكثير في سبيل الحرية ومقاومة المحتلين.

الهوامش

(١) حسن الاسدي، «ثورة النجف» دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧٥، ص ١٦٧، ١٦٨ راجع كذلك، الدكتور علي الوردي، «لمحات إجتماعية من تاريخ العراق الحديث» مطبعة الاديب - بغداد، ١٩٧٨، المجلد ٣ ص ٢١١

(٢) عبدالرزاق الحسني، «ثورة النجف» دار الكتب - بيروت ١٩٧٨، ص ٢١.

(3) Wilson, « loyalties » london, 1936, Vol, 2 P. 78

(٤) المس بيل «فصول من تاريخ العراق القريب» ترجمة، جعفر الخياط، دار الكتب - بيروت، ١٩٧١، ص ١٢٢.

(٥) الوردي، المصدر السابق، ص ٢١٣، ٢١٤

(٦) ولسن المصدر السابق، م ٢ ص ٧٤ Wilson (op . cit) vol, 2, p. 74 P. 74

(٧) حسن الاسدي، «ثورة النجف» المصدر السابق، ص ٥ ثم ص ١٦٦،

(٨) هاجرت عائلته الى النجف من الدليم

(٩) الوردي، «لمحات من تاريخ العراق الحديث» المصدر السابق ص ٢٢٠

(١٠) علي الشرقي «موسوعة الشيخ علي الشرقي النثرية - الاحلام» القسم الرابع، مطبعة العمال - ١٩٩١، ص ٣٢٠

(١١) محمد رضا الشبيبي، (ثورة النجف) مجلة الثقافة الجديدة - عدد خاص تموز ١٩٦٩ - ٢٩٤٠.

(١٢) محمد رضا الشبيبي، «ثورة النجف» المصدر السابق، ص ٢٩٥، ٢٩٦.

(١٣) هم الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء والشيخ محمد جواد الجواهري والشيخ جعفر الشيخ راضي، والشيخ محمود آغا الهندي، والسيد عباس الكليدار والسيد هادي الرفيعي النقيب والسيد مهدي السيد سلمان، راجع، الوردي، المصدر السابق ص ٢٢٤، وأورد عبدالرزاق الحسني في «ثورة النجف» في الصفحة ٩٥، أسماء الوفد مع بعض الاختلاف.

(١٤) محمد رضا الشبيبي، المصدر السابق، ص ٢٩٧، وعلي الوردي، المصدر السابق، ص ٢٢٤.

(١٥) حسن الاسدي «ثورة النجف» المصدر السابق، ص ٢٦٧ راجع كذلك : الوردي، «لمحات من تاريخ العراق الحديث» المصدر السابق ص ٢٢٥

(١٦) الوردي «اللمحات» المصدر السابق، ص ٢٢٥

(١٧) الدكتور محمود سامي جنينة، «القانون الدولي العام» مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية ١٩٣٨ ص ٦٠٦، ٦٠٧.

(١٨) علي الشرقي «الاحلام» المصدر السابق، ص ٣٢٠.

(١٩) محمد رضا الشبيبي، المصدر السابق، ص ٢٩٨

(٢٠) راجع نص العريضة في : الوردي، المصدر السابق ص ٢٣٤

(٢١) يقصد قتل الكابتن مارشال معاون الحاكم السياسي في النجف.

(٢٢) نص برقية القائد العام في الوردي، المصدر السابق ص ٢٣٥.

(٢٣) محمد رضا الشبيبي، «ثورة النجف» المصدر السابق، ص ٣٠٢.

(٢٤) الوردي، المصدر السابق، ص ٢٣٩.

نادر شاه، طهماسب، الموصل مناطق العبور الموصل ١١٥٦ هـ، ١٧٤٣ م



الغذاء ايام المحن والحصار في التراث العربي

بقلم :

الباحث د . عماد محمد ذياب الحفيظ

عضو اتحاد المؤرخين العرب

والباحث عادل محمد علي الشيخ حسين

عضو اتحاد المؤرخين العرب

المقدمة :

ان النظرة الفاحصة في التراث العربي هي عملية للانتقاء والابداع حصيلتها عملية تخرج مفاهيم علمية ما زال البعض يجهل عنها الكثير، ومن اهم هذه المفاهيم التي أدت الى نشوء حضارات ما زال التاريخ الانساني يفخر بمفاهيم نموها وتطورها نحو الغذاء وكيفية تأمينه وتوفيره لتلك الشعوب . وخاصة خلال الحضارات التي سادت في الوطن العربي الا وهي حضارة وادي الرافدين وحضارة وادي النيل .

لقد كان الغذاء هو العنصر الاساس في بناء الحضارة ولتوفير غذاء شعب - يجب ان تتوفر مصادر الغذاء الرئيسية وبنوعيها النباتي والحيواني[1] .

ولذلك نجد ان انحسار الغذاء ومصادره كان هو السبب الرئيسي في هجرة القبائل العربية قبل آلاف السنين والذي كان سببه حصول التغيير الكبير في طبيعة بلاد العرب وعلى وجه التحديد الجزيرة العربية . وهذا التغير هو السبب الأول والرئيسي في هجرة هذه الاقوام وانتشارها في ارض المعمورة ، وان ما حصل على اطراف هذه الارض وتصحرها كان له الدور الكبير في ذلك .

ان المؤرخين لا ينكرون اثر التدهور الاقليمي من الخصب الى الجفاف في هذا التحول الخطير . وهذا ما أكده موسكاتي[2] فقد قال : لو تتبعنا تاريخ الموجات البشرية التي انطلقت في هجرات تاريخية معروفة بيقين نحو ما نسميه الآن بالشرق العربي لوجدنا ان هذه الهجرات كانت دائماً وأبداً تنطلق من شبه الجزيرة العربية .

وكانت للعرب اثناء هجراتهم هذه افضل وسيلة من الحفاظ على البقاء والحياة هي الحبوب والتمور وحيواناتهم المستأنسة لضمان معاشهم .

فالغذاء يعتبر من اهم الاحتياجات في استمرارية الحياة اذ يأتي بعد الهواء والماء وهو حق اساس من حقوق الانسان ، وان عدم توفره يؤدي الى المجاعات وعدم الاستقرار بكافة انواعه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي[3] . ولذلك ظل العرب معروفين بكونهم شعب حضارة ورقي على اختلاف المراحل الزمنية التي مروا بها ابتداءً من انسان ما قبل التاريخ حيث بداية الاستيطان وتدجين الحيوانات وتأسيس القرى الزراعية ووصولاً الى قيام حضارات عريقة بدأت من الحقبة السومرية فالبابلية فالاشورية وانتهاءً بالحقبة العباسية حيث كانت اكبر امبراطورية عربية اسلامية عرفها التاريخ وعاصمتها بغداد .

تطرقنا في بحثنا هذا الى الغذاء ودوره ايام المحن والحصار في التراث العربي ، وذلك بما توفر من مصادر ومراجع قديمة وما تيسر لنا من معلومات ، خاصة وان هذا الموضوع يكاد ان نقول انه لم يكتب عنه الا النزر اليسير ومن الله التوفيق .

الغذاء وحضارات العرب القديمة .

لم تسعفنا المصادر في التعرف على الغذاء الشائع لدى سكان بلاد الرافدين ووادي النيل وانماط الطعام السائد لدى شعوب المنطقة خلال الحقب السومرية والبابلية والاشورية والمصرية . وانما المؤكد ان مصادر الغذاء في تلك الفترة كانت نباتية وحيوانية فلقد عرفوا انواع مختلفة من الحبوب كالقمح والشعير والذرة والبقوليات فضلاً عن معرفتهم بصنع الخبز من هذه الحبوب فذاعت شهرة العراقيين في معرفتهم بفنون

الزراعة وتربية المحاصيل الزراعية وتحسينها . فنجد هيرودوتس (مؤرخ اغريقي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد) يتحدث عن عظمة المحاصيل الزراعية في بلاد الرافدين وغزارة انتاجها وتنوع منتجاتها . ولقد عرف سكان بلاد الرافدين ايضاً الفاكهة والخضراوات فكانوا يأكلون الرمان ويكثرون من أكله معتقدين ان الرمان يزيد من كمية الدم في جسم الانسان . كما كانوا يقدسون النخلة وعدّوها شجرة الحياة لان منها مسكنهم ومأكلهم وملبسهم . فبلغ مجموع منتجات النخلة أيام البابليين ٣٦٥ فائدة اي ان فوائدها بعدد ايام السنة . لذلك نجد ان لها عيداً في ايام البابليين والذي كان يعرف بعيد قطاف التمر[٤] . كما واعتبروا النخلة هو الخزين الستراتيجي لغذاء المجتمع وقد ترك ابن بابل اخباراً منقوشة عن تدمير الاعداء لبساتين نخيل بابل عند الحروب والحصار . ويتضح ذلك من خلال النقوش الاثارية التي تصور جنود الاعداء وهم يقطعون اشجار النخيل المثمرة بواسطة الفؤوس . ولاغرابة اذا عرفنا ان البابليين تمكنوا من صناعة الخبز من لب النخيل (الجمّار) ايام المحن والحصار تعويضاً لمادة الخبز التي تصنع من الحبوب والتي ينحسر انتاجها ايام العدوان والحصار[٥] .

اما عن اساليب اهل الرافدين في تحضير الطعام والغذاء وهل كانوا يتبعون طرقاً صحيحة وصحية في تحضير الغذاء وحفظه فهذا مالم يمكن معرفته من خلال المصادر المتوفرة لدينا . باستثناء قصة يوسف (ع) التي ذكرها القرآن الكريم والتي جرت احداثها ايام حكم فراعنة مصر اي قبل عدة قرون من ميلاد نبي الله عيسى المسيح (ع) . فلقد أوتي يوسف (ع) العقل والحكمة قبل النبوة فقد اجتباه ربه وعلمه من تأويل الاحاديث « وكذلك مكنا ليوسف في الارض ولنعلمه من تأويل الاحاديث »[٦] . « ولما بلغ اشده اتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين »[٧] «يوسف ايها الصديق افتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات »[٨]

فجاء قوله تعالى على لسان يوسف :

« قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلاً مما تأكلون . ثم يأتي بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلاً مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون »[٩] .

فأجاب النبي يوسف (ع) في تفسير الرؤيا . بأن السبع بقرات السمان والسبع سنبلات الخضر هي سبع سنين من الخصب والنماء وخير وفير . اما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فهي سبع سنين من الجدب والقحط ثم يتلوها عام ينزل فيها المطر الغزير وينبت الزرع وتعصر فيها الاعناب والزيوت والزيتون فيكثر الغذاء والزيت وينمو الضرع ليزداد عطاء الحليب[١٠] .

ولذلك اشار يوسف (ع) على حاكم مصر ان يجمع مصادر الغذاء من الحبوب لزيادة انتاجها خلال سنين النماء بالاضافة الى اشارته ببناء الاهرام والمخازن لخزن الحبوب بسنبله والطعام ليكون الحب لغذاء الناس والقش والتبن لغذاء الحيوان فضلاً عن خزن الحبوب في سنبله سيحفظه من الفساد والتلف والتسوس وقد اثبت العلم ان هذا الاسلوب في خزن الحبوب هو كفيل في حفظها من الاصابات بالاعفان والسوس وغيرها من حشرات الحبوب . وبذلك تمكن يوسف (ع) من وضع خطة ستراتيجية لتأمين الغذاء لشعب مصر وما جاورها من بلاد العرب لمدة اربعة عشر عام وبأسلوب عملي شامل ادى الى الحفاظ على حياة الشعب خلال سنين المحن والجدب العجاف .

اي يمكن القول ان يوسف (ع) يمكن ان نعتبره المخطط الاول للامن الغذائي في تاريخ البشرية . وقد حفظ لنا القرآن الكريم هذه القصة ذات الحكمة والعلم كي يتعلم منها العرب والمسلمين مايمكن ان يهيؤه لايام القحط والحصار

والتي يمكن ان نلخصها بنقطتين :

١ – زيادة الانتاج الزراعي تحقيقاً للاكتفاء الذاتي .

٢ – توفير خزين ستراتيجي يضمن استمرار الاستقرار والنمو الحضاري .

ان اهمية الغذاء وسبل توفيره أيام المحن والحصار ظل متوارثاً عبر الاجيال في بلاد العرب وقد تجسد ذلك من خلال كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية والذي تحدث فيه عن انواع الغذاء وسبل توفيرها والحفاظ عليها عند ترجمته لكتاب بابني قديم مكتوب بالنبطية عن غذاء اهل بابل وكيف اعتمدوا الزرع والضرع غذاءً ودواءً على اختلاف مراحل التطور وظروف العدوان والحصار .

اي ان هذه المعرفة تناقلها العرب عبر اجيالهم حفظاً عن ظهر قلب او مكتوبة وتناقلوها مشافهةً خلال مراحل النمو العربي وحتى في المرحلة التي سبقت ظهور الاسلام والتي سميت من قبل البعض بالفترة الجاهلية .

الغذاء والحقبة العربية الاسلامية .

بعد نزول القرآن الكريم الذي اشار الى العديد من انواع الغذاء من لحوم الماشية والاسماك والحبوب والخضراوات والفاكهة والتي جاء ذكرها في العديد من السور والايات القرآنية الكريمة فنجد ذكر العديد من الاشارات التي تتحدث عن طيبات مارزقناكم) اي الغذاء الجيد النافع والمفيد لصحة الانسان ونموه من اصناف اللحوم والمزروعات وعسل النحل الذي فيه شفاء للناس . كما حرّم الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه السيء من الطعام كالميتة والدم ولحم الخنزير والمريضة والنطيحة وغير ذلك من سيء الغذاء الذي قد يضر بالانسان ويؤثر على صحته سلباً .

في هذه الفترة من الزمن والاسلام ما زال في مرحلة نشوئه الاولى نجد ان محمد (صلعم) واهله واصحابه يتعرضون لمرحلة جديدة من مراحل الحصار في التاريخ العربي الا وهو حصار المسلمين في شعب أبي طالب . والذي حدث على اثر اتفاق كفار قريش على صحيفة الحصار والتي جاء فيها :

« ان لايجالسوهم . ولايخالطوهم . ولايبايعوهم . وفي رواية لايبايعونهم ولايبتاعون منهم . ولا يدخلوا بيوتهم . وان لايقبلوا من بني هاشم ابداً صلحاً . ولاتأخذهم بهم رأفة ولا رحمة ولا هوادة حتى يسلموا رسول الله محمد (صلعم) للقتل . والا يناكحوهم ولا ينكحوا اليهم . ولا يدخلوا بيوتهم »[١١]

ولقد اتخذ المشركون عدة اجراءات لانجاح حصارهم على

محمد (صلعم) وقومه والتي تمثلت بالاعتداء على من اسلم ، وضربهم في كل طريق وقطعوا عليهم الاسواق والغذاء ، فكانوا لايتركون طعاماً او بيعاً الا بادروا اليه فيشترون الغلة ويمنعون بني هاشم عنها ، ولم يدعوا احداً يدخل على شعب ابي طالب ، ولم يصل الى محمد (صلعم) وقومه شيئاً من الغذاء الا سراً او مستخفياً وسمعت اصوات صبية بني هاشم من وراء الشعب يتضاغون من الجوع وقد استمر هذا الحصار ثلاث سنوات الا انه باء بالفشل بفعل تكافل القيم وتعاطفهم وتعاونهم وصبرهم حتى جاءهم النصر من عند الله .

ولعل افضل غذاء تناوله محمد (صلعم) وقومه في هذا الحصار التمر لما كان له من منزلة كبيرة ، فقد قال رسول الله (صلعم) : كلوا البلح بالتمر : فإن الشيطان اذا نظر الى ابن ادم ياكل البلح بالتمر يقول ، بقي ابن ادم حتى اكل الحديث بالعتيق (١٢) .

والحديث النبوي الشريف هذا دلالة واضحة عن اهمية التمر كغذاء في الحفاظ على بني آدم واستمرار بقائهم من خلال مايحققه التمر من غذاء على مدار السنة .

وكان صحابة رسول الله (صلعم) ايام المحن ياتي كل واحد من اصحاب النخيل بقنو (اي عذق) عند جذاذه ثم يعلقه على باب المسجد ياكل منه من يشاء(١٣) . وهذه ممارسة تبين اهتمام العرب المسلمين في القضاء على اية فجوة غذائية في المجتمع وهو ما يعرف اليوم بالتكافل الاجتماعي لحماية المجتمع من اخطر آفة عرفتها البشرية وهي آفة الجوع والحاجة .

كما واوجز ابن قيم الجوزية اهمية نخلة التمر في توفير الغذاء وانها بمنزلة محاصيل الحبوب في أهميتها عند العرب فقال (١٤) وهو من افضل الاغذية في البلاد الباردة والحارة واما اهل المدينة فالتمر لهم يكون بمنزلة الحنطة لغيرهم ، وهو قوتهم ومادتهم ، وقال الطائي وربما قطعت النخلة فاكل جمارها ، او انهم يصنعون منه انواع مختلفة من الماكولات والخبز ، فقيل : وربما جذّوا الجذع بعد ما يجد الجمار فيشقق ثم يضرب جوفه فيتفقق كهيئة الدقيق ، فاذا أسنت الناس صنعوا منه عصيدة او خبزاً ، ويسمى النبهة(١٥) .

وان دل ذلك على شيء فانما يدل على مقدار المعرفة التي توصل اليها العرب في تامين غذائهم ايام المحن والحصار وفي تطويع المحاصيل الزراعية كبدائل للحبوب في صناعة الخبز ، والذي يعتبر من الركائز الاساسية في ستراتيجية الامن الغذائي في وقتنا الحاضر .

وهكذا تمكن المهاجرين والانصار من مواجهة حصار الكفار بالتكافل حيث تقاسموا المسكن والماكل وأعان غنيهم فقيرهم فكان الفتح .

وفي حقب الحكم العربي الاسلامي اللاحقة نجد ان العديد من مؤلفات العرب ايام الدولة العربية الاسلامية تحدثت عن اهمية الغذاء . ومن اول هؤلاء الذين تحدثوا في هذا المجال الحرث بن كلدة الثقفي ايام الرسول محمد (صلعم) وغيره كثيرون نذكر هنا اهم من برع منهم ومؤلفاتهم التي كتبوها في مجال الغذاء والتغذية وصحة الانسان والذين عاشوا خلال القرون الخمسة الاولى من التاريخ الهجري ، اي منذ حوالي الف عام وهم :

١ – جبرائيل بن بختيشوع وله رسالة الى المامون في المطعم والمشرب .
٢ – سابور بن سهل وله كتاب قوى الاطعمة ومضارها ومنافعها .
٣ – يوحنا بن ماسويه وله كتاب في الاغذية وكتاب دفع مضار الاغذية .
٤ – حنين بن اسحق وله كتاب في طبائع الاغذية وتدبير الابدان .
٥ – عيسى بن ماسة وله كتاب قوى الاغذية .
٦ – يعقوب بن اسحق الكندي وله رسالة في تدبير الاطعمة .
٧ – ابن ربن الطبري وله كتاب منافع الاطعمة والاشربة والعقاقير .
٨ – ابو بكر الرازي وله كتاب منافع الاغذية ودفع مضارها .
٩ – ابو الحجاج يوسف وله رسالة في ترتيب الاغذية اللطيفة والكثيفة .
١٠ – سديد الدين بن رقيقة وله كتاب الغرض المطلوب في تدبير الماكول والمشروب .

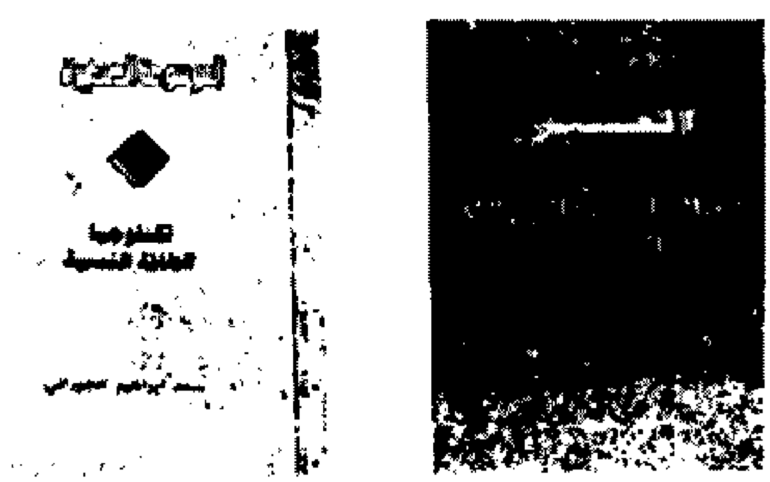
هؤلاء العلماء العرب هم بعض من كتب في اهمية الغذاء وغيرهم كثيرون اغنوا المكتبة العربية والانسانية بمؤلفاتهم ، وبذلك اثبت العرب انهم اول من وضع اسس الغذاء والتغذية الصحيحة ودورها في حفظ صحة الانسان في مختلف الظروف سواء كانت أوقات رخاء او محن وحصار .

وبذلك يكون العرب هم اول من اعتمد اسلوب التخطيط الستراتيجي في مواجهة العدوان والحصار ، واول شعب استخدم اسلوب التكافل الاجتماعي ايام المحن والحصار فاصبح له المجد والنصر المبين عبر المراحل التاريخية المتعاقبة .

الهوامش والمصادر

١- الحلبي، عماد محمد ذياب وحسين السعدي ١٩٩٢ . البيئة والغذاء في ظل السنوان والعصار على العراق . دار الشؤون الثقافية ، بغداد .
٢ - Moscati , S . 1956 . Histoire Des Peuples Semitiques . Paris , P. 32 -330
٣ - التكريتي ، عيلان حمادي ١٩٨٧ . الامن الغذائي وعلاقته بانتاج وتصنيع وتجارة الغذاء . مجلة الاجيال ، العدد ١٢ .
٤ - Dowson , V . H . W . 1921 . Dates And Date Cultivation Of The Iraq . Cambridge P .83 .
٥ - الحلبي، عماد محمد ذياب ١٩٨٩ . نخلة التمر في التراث العربي . مركز احياء التراث العلمي العربي ، جامعة بغداد .
٦ - القرآن الكريم ، سورة يوسف ، الاية ٢١ .
٧ - نفس المصدر ، الاية ٢٢ .
٨ - نفس المصدر ، الاية ٤٦ .
٩ - نفس المصدر ، الايات ٤٧ -٤٩ .
١٠ - ابن كثير ١٩٣٢ . البداية والنهاية . ج ١ -٢ ، ص ٢١٠ .
١١ - ابن كثير ١٩٧٨ . السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى عبد الواحد . دار الفكر ، بيروت .
١٢ - ابن قيم الجوزية ١٩٨٥ . الطب النبوي ، تعليق وتصحيح عبد الغني عبد الخالق . دار العلوم الحديثة ، بيروت ، ص ٢٢١ .
١٣ - السباعي ، مصطفى ١٩٥٩ . الزراعة في مصر الاسلامية ، وزارة الزراعة ، القاهرة ، ص ٤٦ .
١٤ - ابن قيم الجوزية ص ٧٦ -٧٧
١٥ - ابو حاتم السجستاني ١٩٨٥ . كتاب النخلة ، تحقيق حاتم الضامن . مجلة المورد ، مجلد ١٤ عدد ٣ ص ١٦٧ .

*****



صور من مقاومة العراقيين لقوات الاحتلال البريطاني في الحرب العالمية الاولى

ترجمة وتقديم : كاظم سعد الدين

مجلة التراث الشعبي ـ بغداد

تقديم

[تكشف هذه الوثائق التي ترجمناها من مجموعة ملحق قوانين مناطق العراق المحتلة] الارقام من ١ ـ ٦ من عام ١٩١٥ حتى ١٩١٨ التي اصدرتها باللغة الانكليزية قوات الاحتلال البريطاني وطبعتها في البصرة وبومبي في الاعوام ١٩١٧ ، ١٩١٨ ، ١٩١٩ ، تكشف صوراً كثيرة من مقاومة العراقيين ومجابهتهم لقوات الغزو البريطاني في اثناء الحرب العالمية الاولى على الرغم من احكام الاعدام التي اصدرتها على ابناء الشعب العراقي ونفذتها في قادتهم شنقاً ورمياً بالرصاص ونفياً الى خارج البلاد .

نجد في هذه الوثائق ان حكم الاعدام ينال اي شخص يقوم باخفاء الحيوانات والمركبات والمؤونة والوقود وغير ذلك ، والتقاط الصور الفوتوغرافية وتمزيق او طمس او تشويه البلاغات والاعلانات واللافتات الصادرة عن سلطات الاحتلال وحتى تقديم الشكاوى ضد الجند كما يطال الحكم كل ما يُعدُّ إشاعة او تقريراً من طبيعته إثارة الامن العام .

وسنجد ان هذه الوثائق تستعمل كلمة « اجازة » ومعلوم ان منح الاجازات ، مهما كان نوعها ، كان يعطى الى عملاء القوات البريطانية وكانت تعرف بـ « الپاصات » ؛ كانت تمنح الى الجواسيس والمتعاونين مع قوات الاحتلال كي تستطيع هذه القوات الغازية ارباك صفوف القوات الوطنية والسيطرة على المناطق المحتلة وضمان وصول المواد الغذائية وغيرها الى قواتها . وهذه الاجازات ليست من قبيل تنظيم التجارة اطلاقاً ولا المحافظة على ثروات البلاد بل السعي الى حيازتها وسرقتها بهذه الذريعة كما نرى في البلاغ المسمى بامر الحفاظ على الاثار وهو في حقيقته سرقة آثار العراق واعتبار جميع الاثار والنصب القديمة وغيرها من العاديات المنقولة وغير المنقولة او التي ستكتشف فيما بعد ملكاً لادارة المناطق المحتلة .

ولكن على الرغم من كل تلك الاحكام الرهيبة مُنيت قوات الاحتلال بالهزيمة في ثورة العشرين وتكبدت خسائر جسيمة بالارواح والاموال .]

احكام الاعدام

بلاغ من قائد الجيش
« الى شعب العراق »

ان العراق كله من شرق كتيبة عند ملتقى جدول الصقلاوية بنهر الفرات وجنوب العاشق على بعد خمسة أميال شمال نهر دجلة في سامراء يكون تحت الاحتلال الفعلي لقوات بريطانيا العظمى المسلحة ، وان سلطة الحكومة التركية في تلك المنطقة يتوقف سريان مفعولها وقد حل محلها سلطة القائد العام لجيش الاحتلال .

ان سياسة قائد الجيش ورغباته اصبحت معروفة لدى شعب العراق في الانظمة والبلاغات والبيانات الصادرة عنه او سلطته بين حين وآخر .

وقد بلغ علم قائد الجيش انه ما زال بين ابناء شعب العراق وبخاصة اهل ولاية بغداد شيء من الجهل وسوء الفهم في ما يتعلق ببعض القضايا التي لا تقل اهمية في صالحهم من ذلك الذي [يجدونه] في جيش الاحتلال .

لذا فليكن معلوماً لدى كل من يهمه الامر :

اولًا : ان سكان البلاد المسالمين لهم مطلق الحرية في ممارسة اعمالهم الاعتيادية بقدر انسجامها مع رغبات جيش الاحتلال والمطلوب منهم فعلًا العمل بذلك . وبناء على المعاملة الممنوحة لهم التي تراعي مشاعرهم فانه يتوقع منهم مقابل ذلك تقديم فروض الطاعة للموظفين البريطانيين ، وعدم الاشتراك في الاعمال العدائية والإحجام عن جميع الافعال التي تعد ضارة بسلامة جيش الاحتلال وعملياته .

ثانياً : ان جميع الاعمال الاجرامية او الناجمة عن الاعمال المبينة في ادناه تشكل جرائم ضد القائد العام لجيش الاحتلال ويعاقب عليها عند ادانة مرتكبها من محكمة خاصة بعقوبة الاعدام او عقوبة اقل كما ترى محكمة التجريم او قائد الجيش اينما ومتى ما اقترفت تلك الافعال حتى ولو كان الاشخاص ابرياء من اي قصد شرير . وانقاذاً له من الموت او المأساة نتيجة افعال طائشة جاء الغرض من اعادة هذا البيان في شكل مناسب للجرائم التي تعد عدائية في حق جيش الاحتلال وهي :

(١) حمل السلاح او حيازة السلاح او العتاد .

(٦) قرب قطعات الجيش داخل اي منطقة حيث تجري عمليات عسكرية إلا باجازة تحريرية من ضابط برتبة عميد او رتبة اعلى ، او اي ضابط لايقل رتبة عن رائد في امرته رتل .

(ب) في اي ظروف تدعو الى الشك وسوء الفهم .

(جـ) في مدن وقصبات ولاية بغداد التي تحت الاحتلال البريطاني .

(د) في مدن وقصبات ولاية البصرة التي تحت الاحتلال البريطاني الا باجازة تحريرية من آمر اداري او آمر قاعدة او في الناصرية من القائد العام .

(٢) اعطاء او حمل معلومات مهما كان نوعها الى العدو أو حمل وسائل بين العدو واشخاص يسكنون في المنطقة المحتلة .

(٣) تدمير المواد العسكرية او السكك الحديد او التلغراف او وسائل المواصلات الأخرى باي طريقة كانت .

(٤) مساعدة أسرى الحرب على الهرب او الاتصال بهم .

(٥) التآمر ضد جيش الاحتلال او اي عضو فيه او ضد الحكومة البريطانية .

(٦) تضليل قطعات الجيش عن عمد عند الاشتغال أدلاء او مترجمين .

(٧) مساعدة العدو كتسهيل عملياته بالعمل أدلاء او بتقديم المأوى .

(٨) اغراء او السعي لاغراء اي عضو من جيش الاحتلال لاعطاء معلومات ذات فائدة للعدو .

(٩) اغراء او السعي لاغراء اومساعدة اعضاء جيش الاحتلال للهروب او الاستسلام الحصول عليها

(١٠) ارشاء او السعي لارشاء او تقديم اي اغراء الى اعضاء جيش الاحتلال للقيام بعمل من الاعمال او الامتناع عن القيام به .

(١١) تدمير او طمس او تغيير البلاغات والاعلانات الصادرة عن السلطة المختصة وتدمير اللافتات وغيرها التي تنصبها السلطات البريطانية .

(١٢) تلويث مخزون المياه او التدخل فيه باي شكل من الاشكال .

(١٣) اخفاء اسلحة الحرب والحيوانات والمركبات والمؤونة والوقود ، الخ ـ

(١٤) مساعدة تقدم او تراجع قوات العدو عن علم .

(١٥) نشر الاعلانات والبلاغات ، الخ ـ لمصلحة العدو .

(١٦) التسبب او المحاولة في التسبب في الغمر والاغراق عن عمد .

(١٧) تدمير او إجناح ، عن عمد الوسائل النهرية من اي نوع كانت .

(١٨) تدمير ممتلكات الآخرين عن عمد .

(١٩) حيازة اي ممتلكات حكومية مهما كانت كالمخازن والاسلحة والملابس والتجهيزات (المعدات) بأي طريقة وفي اي وقت يجري الحصول عليها

(٢٠) النهب والسلب بالقوة ، تدنيس الموتى او القبور .

(٢١) انتهاك اي اجراءات لاي تعليمات او بلاغات او بيانات او اعلانات او اوامر السلطة المختصة التي تفرض بين حين وحين في أي منطقة خاصة او عامة وما يأتي جرائم ايضاً يعاقب عليها عقوبات اعتيادية عند الادانة بالحبس او باي عقوبة اقل .

(٢٢) عدم اطفاء او اظهار الانوار كما تفرض اوامر السلطة المختصة من وقت لاخر .

(٢٣) عدم استحصال جوازات كما هو مفروض او تقديم تقرير في الوقت والمكان المفروضين او بدون رخصة تحريرية لمغادرة أي منطقة تفرض الاقامة فيها .

(٢٤) بيع أي سلعة باسعار تزيد عن الاسعار المفروضة من السلطة المختصة بين حين وحين .

(٢٥) تقديم المشروبات الكحولية للجند .

(٢٦) طمس او محاولة طمس تعليمات الرقابة .

(٢٧) تقديم شكاوى مبالغ فيها او كاذبة ضد الجند .

(٢٨) تقديم ادعاءات مبالغ فيها او كاذبة بخصوص تعويضات عن اضرار حاصلة .

ملاحظة (١) :

يطبق هذا البلاغ ويكون نافذ المفعول في جميع انحاء المنطقة المحتلة دون استثناء ويعد ساري المفعول من تاريخ نشره .

وسوف يمتد تنفيذه الى اي منطقة تدخل فيما بعد تحت نفوذ احتلال القوات المسلحة لبريطانية العظمى في العراق .

ملاحظة (٢) :

سوف تجري محاكمة الجرائم المذكورة آنفاً في المقام الاول في محاكم عسكرية ومن قبل حكام عسكريين ونواب حكام عسكريين وجميع الضباط المخولين تخويلاً عاماً او خاصاً سلطات حكام عسكريين ونواب حكام عسكريين ولكن اذا كان اي عمل اجرامي او ناجم عن الاعمال مدرج في الخلاصة الانفة الذكر على انه جريمة ضد سلطة القائد العام لجيش الاحتلال فانه يعد جريمة منافية للقانون الجنائي الاعتيادي المطلق في بعض اقسام المنطقة المحتلة بتعليمات قائد الجيش او غيره ، فانه سيكون ضمن اختصاص المحاكم الجنائية الاعتيادية المشكلة لمتابعة مثل هذه التعليمات التي لها صلاحية النظر بذلك واجراء محاكمة مثل هذه الجرائم ان لم يكن اعتراض عسكري على عملها ذلك .

مؤرخ في الاول من ايلول ١٩١٧

بلاغ من قائد الجيش
(عن التقاط الصور)

تقتضي الضرورة للمصالح العسكرية لجيش الاحتلال البريطاني في العراق الى وضع القيود على التقاط الصور الفوتوغرافية ضمن حدود المناطق المحتلة من قبل اشخاص غير مجازين ـ

لذا فانني الفريق سير ستانلي مود ، كي . سي . بي ، سي . ام . جي ، دي . اس . او ، بناء على السلطة المخولة لي قائداً عاماً لجيش الاحتلال في العراق ، اعلن بهذا لاعلام كل من يهمه الامر ما يأتي :

١ ـ ان التقاط الصور الفوتوغرافية من أي نوع أو صفة مهما كانت ، عدا الخاضعة للشروط ادناه ضمن حدود المناطق المحتلة ، من قبل اي شخص ليس عضواً في جيش الاحتلال البريطاني ، يشكل جريمة ضد سلطة الحكومة العسكرية البريطانية ويمنع .

٢ ـ ان اي شخص ليس عضواً في جيش الاحتلال يلتقط صوراً فوتوغرافية مهما كان نوعها او صنعها وفق شروط ضمن حدود المناطق المحتلة ، عند ادانته امام محكمة الحاكم العسكرية او اي محكمة عسكرية تعقد بامر سلطة مختصة يكون عرضة لعقوبة الموت او أي عقوبة اقل كالحبس او الغرامة كما تراه مثل هذه المحكمة مناسباً .

بشرط ان :

لا شيء مذكوراً آنفاً يطبق على التقاط الصور الشخصية ضمن حدود مبانيهم او مكان عملهم الاعتيادي من قبل مصورين فوتوغرافيين محترفين مجازين بهذا الخصوص من الاركان العامة وفرع الاستخبارات ، في المقر العام ، بغداد .

مؤرخ ببغداد في ١٢ أيلول ١٩١٧

ترويج الاشاعات

بلاغ من قائد الجيش

اني الفريق وليم وين مارشال ، كي سي جي ، بناء على السلطة المخولة لي قائداً اعلى لقوات صاحب الجلالة البريطاني في العراق اعلن بهذا ما يأتي :

كل من يروج او ينشر اي بيان او اشاعة او تقرير من طبيعته اثارة الامن العام او يؤدي الى خوف او فزع الجمهور فانه يعاقب عند ادانته بالموت او اي عقوبة أقل اذا ارتأت محكمة قائد الجيش ذلك .

تنطبق احكام المادة (١) والمادة (٢) من البلاغ المرقم (١٢) في الاول من ايلول ١٩١٧ على هذه الجريمة .

كتب ببغداد في ٢٥ نيسان ١٩١٨

الفريق د . ر . مارشال
القائد العام لجيش الاحتلال

• • •

دراسة

حصار المشركين لأهل الايمان

بين الأمس واليوم

بقلم د . محيي هلال السرحان

كلية العلوم الاسلامية جامعة بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله . والصلاة والسلام على رسول الله . سيدنا محمد وعلى آله وصحبه . ومن سار على هداه .

اما بعد :

فحين شاءت حكمة الله سبحانه وتعالى بان يختتم رسالاته السماوية . برسالة خاتم رسله الكرام . سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة واتم السلام . فانزل عليه قرآنه العزيز . بدأ الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الى هذا الدين القويم سراً . فخص بها أقاربه وأصدقاءه والمقربين اليه ...

ولما اقتضت حكمته سبحانه وتعالى بان يجهر الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة واتم التسليم . بتلك الدعوة ؛ بقوله تعالى (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن الجاهلين • إنا كفيناك المستهزئين)(١) سارع صلى الله عليه وسلم الى تنفيذ الامر . فعم بدعوته الناس ولم يخص .

ولما كان الرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم برسالته مصدقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل (يا أيها الذين أوتوالكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم)(٢) ويدعو الى الخير والفضيلة . تنبه كثير من الناس الى ماهم فيه من الابتعاد عن التوحيد الذي هو دين الفطرة التي فطروا عليها . ووقوعهم في الضلال والشرك الذي حاربته الاديان كلها . فانصت كثير منهم الى دعوته صلى الله عليه وسلم . وما تحتوي عليه من الهداية والرشاد . وما يتطلب تنفيذ ذلك من تغيير مناهج الحياة وسبلها في العبادة . والمعاملة . والكسب . والحكم . والعادات الاجتماعية والاعراف السائدة ...

فاسرع كثير منهم الى الايمان بهذه الدعوة ؛ لانهم رأوا فيها نجاحهم في الدنيا . وفلاحهم في الاخرة .

موقف المشركين من أهل الايمان

وعاند بعض الناس ؛ لانه رأى أن في الدعوة الجديدة تسفي لاحلام القوم . وابطالاً لعقائدهم . وقضاءاً على مركزه الاجتماعي والديني . ونفوذهم القبلي . وضياعاً لمصالحه الاقتصادية ... فناصب الرسول الكريم صلى الله عليه وس العداء الشديد . منذ بعثته . وسعى الى ابطال دعوته . وص الناس عنها . بمختلف الحجج والاعذار ..

ولكن الناس حين استمعوا الى آيات القرآن وقوة بيانها . وه أهل الفصاحة والبيان . تحيروا في أمرها وفي أمر صاحبها . فما يقولون لمن يريدون أن يصدوه عنها ويصرفوه عن اتباع هذا النبي أيقولون : إنه مجنون ؟ وكلامه في غاية الاستقامة ؟ !

أم يقولون : إنه شاعر؟ وهم أهل البيان ؟ !

أم يقولون : إنه كاهن ... وليس هو بكاهن ؟ !

ووجدوا أن خير ما يصدون به الناس أن يقولوا : إنه ساح كذاب ! (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساح كذاب)(٣) ولكن كثيراً من الناس ما لبثوا أن وزنوا هذا القول وتبينوه . وعرفوا انه ليس سحراً ولا كذبا ؛ بل عرفوا أنه الحق ، ربهم . فآمن به كثير منهم .

فلم يجد المتجبرون المعاندون بعد أن استنفدوا كل سبلهم ف القول إلا أن يعمدوا الى القوة . فبدأ كثير منهم بمعاملة المؤمني بالشدة والقسوة . والتضييق عليهم . وحرمانهم . وتعدى الامر الى تعذيبهم جسديا . ولا سيما اذا كان هؤلاء المؤمنون اتباعاً ا عبيداً . فاذاقوهم صنوف الاذى . بتقييد بعضهم . ووضعه ف الرمال الحارة تحت وهج الشمس المحرقة . ووضع الصخور عل

بعضهم ...

وشواهد ذلك كثيرة لا نطيل فيها الكلام[٤]

وتطور الامر الى قتل بعضهم بصنوف القتل البشعة ، كالذى عومل به آل ياسر[٥] وهاجر بعض المسلمين الى الحبشة[٦] ، لشدة نكاية المشركين .

ولما رأى طغاة المشركين ومتجبروهم أن كل ذلك لم يعد مانعاً من انتشار هذه الدعوة ، عمدوا الى طريقة اخرى ، فاخذوا يهمزون الرسول صلى الله عليه وسلم بالقول[٧].

وتطور ذلك الى النيل منه بالفعل ، فاستهزؤوا به[٨] ، وألقوا الفرث على بابه[٩] ، وسلا الجزور على ظهره وهو يصلى[١٠] ..

بل وثب اليه جمع منهم وأحاطوا به ، وأخذ احدهم بمجامع ردائه ، حتى قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه : « اتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله »[١١]

ولم يشف صدورهم ذلك ، فقرروا قتل النبي صلى الله عليه وسلم[١٢] ليتخلصوا منه ومن دعوته .

وأبدوا لبني عبد المطلب الجفاء ، وقالوا لهم : « يابني عبد المطلب لا صلح بيننا وبينكم ، ولا رحم إلا على قتل هذا الصبي السفيه »[١٣]

حصار الشعب :

فقام عمه أبو طالب فجمع بني عبد المطلب لدراسة الامر فاتفقوا على أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعبه (شعب ابي طالب ، وهو شعب من شعاب مكة) وتعاهدوا على أن يمنعوه ممن ارادوا قتله .

وانحاز بنو هاشم ، وبنو المطلب الى أبي طالب بن عبد المطلب ، فدخلوا في شعبه ، واجتمعوا اليه مؤمنهم وكافرهم ، ولم يتخلف عن ذلك إلا عمه أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب ، اذ خرج الى قريش وظاهرهم على أمرهم .

فلما رأى المشركون اجتماع آل النبي صلى الله عليه وسلم على مناصرته اجتمعوا ، ووضعوا خطة من أبشع الخطط في التعامل الانساني ، مما سمي في كتب السيرة بالمقاطعة العامة ، أو خبر الصحيفة فكتبوا صحيفة بذلك وعلقوها في جوف الكعبة ، واخذوا على أنفسهم العهود والمواثيق لتنفيذها .

وكان ذلك سنة سبع من البعثة الشريفة على ما قال جمهور المؤرخين[١٤] .

وتزايدت الخشية من مقتل النبي صلى الله عليه وسلم واتخذت التدابير الامنية[١٥]

وبذلك حاصروهم في هذا الشعب ، وقطعوا عنهم الغذاء والمادة وامتنعوا من معاملتهم ، فلم يدعوا احداً من الناس يدخل اليهم طعاماً ، ولا شيئاً مما يرفق بهم ، قال ابن سعد : « وقطعوا عنهم الميرة والمادة »[١٦]

وكانوا لا يخرجون من الشعب الا الى الموسم ، فاذا خرجوا بادرهم المشركون الى الأسواق فاشتروا ما فيها ، ونادى منادي الوليد بن المغيرة : ايما رجل وجدتموه عند طعام يشتريه فزيدوا عليه ، وحولوا بينهم وبينه ، ومن لم يكن عنده نقد فليشتر وعلي النقد ، ففعلوا ذلك حتى بلغ القوم الجهد الشديد ، وحتى سمعوا اصوات صبيانهم يتضاغون من وراء الشعب[١٧]

وأقاموا على ذلك ثلاث سنين لم يصل اليهم شيء إلا سراً مستخفيا .

ولما بلغ الامر مداه ، وبدأ الشعور بالذنب يتمالى في نفوس أهل مكة ، وبدأ الهمس يدور بين الناس ويصبح كلاماً ومن ثم خصاماً ، تناخى بعض أهل الحجى والحمية والغيرة لنقض الصحيفة الظالمة ، وفك هذا الحصار الاليم .

حصار الخندق :

واستأنف المؤمنون جهادهم ودعوتهم ، ولم يكف المشركون أذاهم عنهم : بل زادوا في التضييق عليهم ، وملاحقتهم ، والتنكيل بهم حتى أذن الله لهم بالهجرة الى المدينة فهاجروا ــ ولكن المشركين لاحقوهم بالاذى ــ فلم يدعوهم يأخذون حريتهم في المقام ونشر الدعوة بين الناس ، اذ تعاون المشركون مع اليهود لمحاصرة المؤمنين في المدينة بعد الهجرة ، وذلك في غزوة الخندق (او غزوة الاحزاب) سنة خمس من الهجرة ، للقضاء على هذه الدعوة الخطيرة ، واستئصالها ...

فتجمعت القبائل بتجمع ضخم أخاف كثيرا من القبائل ، ومنعها من الدخول في الاسلام ، بل أثار الرعب في قلوب القبائل التي كانت على وشك أن توالي المسلمين .

وضربت الجيوش اطنابها حول المدينة ، واشتد البلاء ، وغدر اليهود[١٨] فخانوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتسلل المنافقون لواذا[١٩] من صف المؤمنين ، واخذوا يختلقون الاعذار الواهية للهروب من الجبهة[٢٠] ، واخذ فريق منهم يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم يقولون ان بيوتنا عورة قال تعالى حاكياً حالهم : (ويستأذن فريق منهم النبي يقولون ان بيوتنا عورة وما هيَ بعورة إن يريدون الا فرارا)[٢١]

وهذا هو شأن المنافقين في كل عصر ... !

وارجف المرجفون ، وبلغت القلوب الحناجر ، وصبر المؤمنون صبراً كريماً ، وعظمت الشدة ، وزلزلوا زلزالاً عظيماً ، ولكنهم ثبتوا ، ولم يعطوا ذلة ، ولا استسلاماً ، مع قلتهم وسوء حالتهم وقلة عتادهم .

قال تعالى :

(ولما راى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم الا ايماناً وتسليماً)[٢٢]

ومرت الساعات ثقيلة مرعبة ... وكتب الله حكمه وتقديره ...

فكف ايدي المشركين عنهم ، اذ أرسل عليهم الريح العاصفة التي اكفات قدورهم ، واطفات نيرانهم ، وقلعت خيامهم ، حتى انصرفوا مخذولين[٣٣] . قال الله سبحانه وتعالى حاكيا حالهم :

(ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا)[٣٤]

وحقت كلمة ربك في هزيمة اعدائه ، ونصر دينه ونبيه والمؤمنين ، بعد أن حاصرتهم ملة الكفر كلها .

الوان اخرى من الحصار :

وقاسى المؤمنون على مر التاريخ ألوانا من الحصار ، وذاقوا صنوفاً من الاذى ، وهم ثابتون على عقيدتهم ومبادئهم يقاومون الشر والعدوان في ساحات واسعة وعديدة في الشرق والغرب : في الحروب الصليبية في الشام ومصر ، وفي هجمات المغول في مشرق الارض حتى بلاد الشام ، وفي اسبانيا ومحاكم التفتيش ، وفي العهد العثماني ولاسيما في العراق مع العجم والمجوس ، وفي الحربين العالميتين ، وفي القادسية الثانية قادسية صدام المجيدة ...

حتى اذا تقضى كل ذلك وولى هو وشروره طلع الكفرة على المؤمنين بحصار من نوع جديد :

الحصار الجديد :

فقد اجتمعت كلمة دول الكفر وقواتها على محاصرة المؤمنين وفي عقر دارهم ، أينما سكنوا : في العراق ، وفي الصومال ، وفي السودان ، وفي اليمن ، وفي البوسنة ، وفي فلسطين وفي كل قطر يدافع عن الايمان ...

لقد شددت ، دول الكفر على المؤمنين الخناق وقطعت أنفاسهم وأذاقتهم الوانا من العنف والاذى والحرمان والجبروت والظلم ، واشتدت في محاصرتهم وامتصاص خيراتهم ...

وازداد الوضع سوءاً بمعاونة المنافقين لدول الكفر ، فسهلوا لها الطرق ، ويسروا لها الامر لدخول بلاد الايمان ، وتكنيسها ، فكان اذى المنافقين اشد ضررا بالمؤمنين من الكفرة ...

وهذا هو شانهم في كل بلد ، اذ تجدهم في كل وقت يسارعون الى مافيه مصالحهم ، ولو ادى ذلك الى الاضرار ببلادهم .

فوجد الكفرة فيهم خير معين لتنفيذ مآربهم ومخططاتهم فسخروهم للسير في اتجاه ضرب المؤمنين ، وقتل الايمان في نفوسهم ، وضرب بلدانهم وامتصاص خيراتها لاضعافهم ، وابقائهم تحت مطرقتهم ...

وهذه الحملة على بلاد الايمان مسخرة بعنف وبقوة وتشتد أكثر على قطر العراق الابي المؤمن الذي رفع راية (الله اكبر) بصدق وايمان على يد قائده الرئيس المجاهد صدام حسين حفظه الله .

والسبب في ذلك كما قال سماحة الشيخ على الفقير في كلمته عن الوفود العربية في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الاسلامي الشعبي المنعقد في قصر المؤتمرات في بغداد العز ودار السلام والايمان صباح يوم الاثنين ٩ ربيع الثاني ١٤١٦هـ / ٤ أيلول ١٩٩٥ م ، أن العالم كانت تتصارع فيه قوتان رئيستان ، فلما قضت حكمة الله بان ينهار الاتحاد السوفياتي ، وصفا الجو للنظام العالمي الجديد الذي تتزعمه الولايات المتحدة الامريكية والذي هو أيل الى الانهيار بعون الله وتوفيقه ، ظهرت على السطح قوة عظيمة هي المرشحة للسيادة في الاساط العالمية ، بدأت تهز كيان النظام يحسب لها ألف حساب ، ويسعى جاهدا الى القضاء عليها بكل ما يملك من وسائل خبيثة ومدمرة سرية وعلنية ، تلك هي قوى الايمان في مشارق الارض ومغاربها ... في العراق المؤمن الذي رفع راية (الله اكبر) وفي غير ذلك من البلاد الاسلامية ، فقرر ذلك النظام أن يضرب كل من ينادي باسم (الاسلام) ويرفع راية (الله اكبر)[٣٥] .

ولذلك اشتدت وطأة الكفرة على عراقنا الحبيب يعاونهم المنافقون في ذلك وتجار الحروب والانقساميون والمخربون والحركات الهدامة - لتمزيق العراق ، وتحطيمه نهائياً ..

وتدل الشواهد على أن البنى التحتية لقطرنا العزيز هي مقصودة بالتدمير : لان الهدف وهو القضاء على هذا الاتجاه الايماني يتحقق بذلك ، لذلك صرح احد مديري ماكنة الحرب ضد العراق ان العراقيين لتاييدهم القائد صدام حسين أصبحوا ارهابيين يستحقون كل الشدة والقسوة ، فلا رحمة لهم ، ولا عون .

ومهما قدم العراق من التنازلات فلن يرفعوا هذا الحصار مادام الاتجاه الايماني هو السائد وهو المسير لمشاعر الناس في هذا القطر الابي .

ضرب الحصار الاثم على العراق

والان ، وبعد كل ما قام به الاشرار من العدوان الاثم على العراق بدولهم الثلاثين بل الاربعين ...

وبعد كل ماخربوه من المنشآت الحيوية ، ودور العلم ، ودور العبادة ، والمستشفيات ، والطرق والجسور ...

وبعد كل ماخربوه من مستلزمات الحياة الاساسية من مكائن تجهيز الماء والكهرباء والمعامل الانتاجية وتعطيل عملها طيلة شهور عديدة .

وبعد كل ما فعلوه من قتل المئات بل الالوف من الافراد العزل واطفال المدارس ...

بعد كل ذلك جاءوا بخطة ملعونة خبيثة يظهر أنها صممت قبل هذه الحوادث باصرار واحكام ، ارادوا بها أن يمعنوا في تخريب العراق بكل ما تحتمله كلمة التخريب من معان ، ففرضوا عليه (حصارا) قاتلا لم يشهده احد على مر التاريخ : إذ تفننوا في

تطبيقه ، فشملوا به جميع جوانب الحياة الخاصة بالفرد العراقي العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والفكرية ...

(حصاراً) زادت اضراره بهذا القطر الابي على اضرار الحرب الفعلية التي شنت عليه ، وذلك بتسببه في وفاة الالاف من اطفال العراق ومرضاه لعدم توفر الحليب والغذاء والدواء ، وتسببه في تدهور صحة الفرد العراقي ، للنقص الحاصل في تكوين غذائه الذي أثر (الحصار) في نوعيته وفي كميته ، وفي غلاء اسعاره ، الغلاء الفاحش الذي فرضه تجار الحروب على المواطنين ، بحيث اصبح الفرد الاعتيادي لايجد ما يقيم به أوده ، ولا أود عائلته ، ولذلك أخذ كثير من الناس يتركون هذا البلد ذي الخيرات الوافرة ، وينزحون الى بلاد العالم الواسعة ، وفيهم المثقفون والكسبة والمتخصصون بالعلوم الدقيقة ، وأهل الصناعات المهمة ، بسبب الحصار الذي قد فرض عليهم .

وعمد بعضهم لشدة الحاجة الى اقتراف الجرائم بالقيام بالسرقات والقتل والرشوة .

وفسدت ذمة آخرين فتحكموا باقوات الناس ، فغالوا في الاسعار واحتكروا البضائع ، وغشوا في تركيبها ونوعيتها وكميتها ، وبذلك يخدمون مخططات الاعداء .

وانهار بعضهم للضغط الاقتصادي والعوز الذي يعانيه ، او لمرض في نفسه ، فباع ضميره فسقط في مستنقعات الخيانة ... !

ولا شيء اضر على المجتمع من فساد الذمم والخيانة ...

آثار الحصار الاخرى

لقد أدى الحصار الاثم المفروض على قطرنا الحبيب الى اضرار دخلت في جميع مرافق الحياة ومنها ميادين الحركة العلمية في العراق التي تعد المنفذ المهم للنهضة والتقدم : لان « الحصار الثقافي يعطل تقدم الامة » كما يقول استاذنا الدكتور صالح أحمد العلي[26]

قال احد المتخصصين :

« ان الحصار العلمي والتقني على التعليم العالي والمؤسسات العلمية له آثار خطيرة على مستقبل الحركة العلمية في العراق ما لم نواجهه بعمل فعال . إن الاخطار لا تمكن فقط في قطع المنابع الضرورية لرفد الحركة العلمية العراقية بمستلزماتها المادية والبشرية المتمثلة بالبعثات والزمالات والاشتراك في المؤتمرات ، والحصول على المجلات والكتب والمصادر العلمية والاجهزة المختبرية والوسائل التعليمية المتقدمة ، بل هناك خطر آخر ، ألا وهو هجرة العقول العلمية الموجودة في داخل العراقي ؛ نتيجة للمعاناة الاقتصادية ، بسبب الحصار الاقتصادي ، والخلل بسبب ظروف الحرب والحصار »[27]

واخذت آفاق الاضرار تتسع وتتعاظم نتيجة لاطالة أمد الحصار وبدأت تشمل ابعاداً خطيرة إذ « أن الحصار الثقافي المفروض على العراق يجر معه الحصار على التنمية بكل ابعادها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وهو يمس مستقبله بقدر ما يمس حاضره ، ولم يبق لهذا الحصار من معنى الا أن يكون عقاباً للشعب العراقي والفرد العراقي ، وليس في اي من قواعد القانون الدولي او مبادئه ، ولا في روح العصر أو ضميره ما يبيح مثل هذا العقاب »[28]

ما على المؤمنين في هذا الحصار :

لقد أدى الحصار الى أضرار كثيرة اجتماعية واقتصادية وعلمية وفنية بمجتمع الايمان .

ولما كانت قوى الكفر تهدف الى عقاب الشعب العراقي كل الشعب ؛ لايمانه ؛ والتفافه حول قائده ، ففي ظل الحصار الجائر نجد على المؤمنين لزاماً ان يتحد مسعاهم ، وتتوحد جهودهم لمواجهة هذا الخطر من جهة .. وأن يشمروا عن سواعد الجد للوصول الى الاكتفاء الذاتي ، وذلك بتوسيع نطاق الزراعة وتحديث نطاق الصناعة ، واستغلال مواردهم الطبيعية الفنية ، دون الاعتماد على الاستيراد الخارجي ، وأن يعتبروا بما كان عليه نبيهم الكريم صلى الله عليه وسلم من الصبر والجلد ، وما كان يتحمله صحابته المؤمنون رضوان الله عليهم ، في الثبات على الطريق الذي اختاره الله لهم ، ولم يعطوا الدنية ولم يفلوا ، فلنا فيهم أسوة حسنة : (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة)[29] ، فنمضي في تحقيق أهدافنا ، وأن لا نسمح لانفسنا بان نقع في مهاوي الجزع ، وفقدان الصبر والامل ، فاننا حتى الآن لم نصبر كما صبروا ... وأن نسد آذاننا عما تبثه أبواق الدعاية الاستعمارية من سموم الفتنة والخيانة .

ولا ندع بيننا مجالاً للخونة الغادرين ، ولا مجالاً للمتلاعبين باقوات الشعب ، ولا مكانا للمخربين والفاسدين .

وأن نقبل على الحياة بروح التفاؤل والامل ، ونجعل التضامن سبيلنا ، فان الله يبتلي عباده بالمحن والشدائد ، وان الشدائد والمحن لتصقل النفوس وتهذبها ، وتطهرها ، وتبين للناس معدنها ، والحصار بلا شك شدة شديدة كشفت عن حقائق كثير من الناس ، فقد توضح للناس حقيقة المنافقين والمدعين للاخلاص والوطنية ، فكشفت عن زيفهم ، وهتكت عنهم الاستار التي كانوا يتبرقعون بها : من ادعاء التضحية ، والغيرة على الوطن ، فتجدهم في مثل هذه الأيام الشديدة يحتكرون المواد الغذائية ، ويغالون في اسعارها ، ويسرقون اقوات الشعب ، ويسعون الى الحصول على الاثراء السريع بالطرق الخبيثة والوسائل المحرمة ، ولذلك تجدهم لا يمدون يد العون الى فقير ولا محتاج ، ولا يسعفون ذا الحاجة الملهوف ، ولوكان من أقاربهم وذوي ارحامهم ، فهم ضعاف الايمان ، فاقدو الاخلاص لهذا الوطن ، يضعون ايديهم في أيدي المستعمر الكافر ، وقد استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ... فلن ينظر الله الى حالهم يوم تتجه الانظار الى بارئها ولن تغني عنهم

اموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ، وهم في النار خالدون .

وعلى العكس من ذلك تجلو الشدائد والمحن صفات المؤمنين وتبرز أصالتهم وعزيمتهم وطيب معدنهم ، فنجدهم في مثل هذه الشدائد يتفقدون الفقراء ، ويمدونهم بما يحتاجون اليه من المال والطعام والدواء والكساء ، يحدوهم الايمان الى فعل الخير ، واثقين بنصر الله ورضاه ، لان الله وعدهم بالفلاح والنصر ان نصروه ، واستقاموا ، وثبتوا على طاعته ...

ونختتم بحثنا هذا بآيات كريمة حكمت حال هذين الفريقين تماماً ، اذ يقول الله سبحانه وتعالى وهو اصدق القائلين : (ألم تر الى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ماهم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون • أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ماكانوا يعملون • اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين • لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون • يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شئ الا إنهم هم الكاذبون • استحوذ عليهم الشيطان فانساهم ذكر الله اولئك حزب الشيطان الا إن حزب الشيطان هم الخاسرون • إن الذين يحادّون الله ورسوله أولئك في الاذلين • كتب الله لاغلبنّ أنا ورسلي إن الله قوي عزيز • لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا اباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون)[30]

صدق الله العظيم

الهوامش

(١)الحجر : ٩٤ - ٩٥ .
(٢)النساء : ٤٧ .
(٣)سورة (ص) الاية : ٤ .
(٤)انظر سيرة ابن هشام : ١ /٢٦٨ .
(٥)الاصابة : ٤ /٣٢٧ في ترجمة (سمية) ام عمار الترجمة ٥٨٥ من تراجم النساء .
(٦)تاريخ الطبري : ٢ / ٣٢٥ .
(٧)سيرة ابن هشام : ١ /٢٩٠ ، تاريخ الطبري : ٢ / ٣٣٢ .
(٨)الكامل : ٢ / ٤٧ ، السيرة الحلبية : ١ / ٣٢١ ، الدر المنثور : ٤ /١٠٧ وذكر فيه عدد المستهزئين .
(٩)طبقات ابن سعد : ١ /١ /١٣٤ .
(١٠)مسند احمد : ١ /١٧ وهو في صحيح مسلم ٣ /١٤١٩ .
(١١)سيرة ابن هشام : ١ /٢٩٠ ، تاريخ الطبري : ٢ /٣٣٢ .
(١٢)مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم لعروة : ١١٤ ، طبقات ابن سعد : ١ /١ /١٣٩ ، دلائل النبوة لابي نعيم : ١ /٢٥٨ ، دلائل النبوة للبيهقي ٢ /٣١١ ، المواهب اللدنية : ١ / ٥١ شرح الزرقاني على المواهب : ١ /٢٧٨ .
(١٣)السير والمغازي لابن اسحاق : ١٥٨ - ١٥٩ .
(١٤)زاد المعاد : ٣ /٣٠ ، المواهب اللدنية : ١ /٥٢ ، السيرة الحلبية : ١ /٣٣٧ وقال ابن عبد البر : انها بعد المبعث بست سنين الاستيعاب : ١ /١٦ ، وقال بعضهم : بعده بثماني سنين انظر شرح الزرقاني على المواهب : ١ /٢٧٨ .
(١٥)انظر بحثنا : الحصار الاقتصادي الذي ضربه المشركون على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى قومه في شعب أبي طالب مجلة الرسالة الاسلامية العدد ٢٤٩ السنة ٢٥ رجب ١٤١٢ كانون الثاني ١٩٩٢ ص ٩٨
(١٦)طبقات ابن سعد : ١ /١ /١٤٠
(١٧)السير والمغازي لابن اسحاق : ١٥٩
(١٨)تاريخ الطبري : ٢ /٥٧١ .
(١٩)الدرر في اختصار المغازي والسير : ١٨٠ .
(٢٠)الخطاط وليد الاعظمي : لنا في حصار الخندق اسوة حسنة بحث في مجلة الرسالة الاسلامية العدد ٢٤٩ السنة ٢٥ رجب ١٤١٢ كانون الثاني ١٩٩٢ ص ١٥٧
(٢١)الاحزاب : ١٣ .
(٢٢)الاحزاب : ٢٢ .
(٢٣)تاريخ الطبري : ٢ / ٥٨٠ .
(٢٤)الاحزاب : ٢٥ .
(٢٥) جريدة الثورة ٨٨١٧ الجمعة ٢٠ ربيع الثاني ١٤١٦هـ / ١٥ أيلول ١٩٩٥ م الصفحة السابعة .
(٢٦)د . صالح أحمد العلي ، الحصار الثقافي خطر يهدد كيان الامة الثقافي ويحرم الانسانية من مساهمتها ، بحث في ندوة (الحصار وآثاره السيئة في حياتنا الثقافية) التي اقامها المجمع العلمي العراقي في رجب ١٤١٣هـ / كانون الثاني ١٩٩٣ م مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤١٣هـ / ١٩٩٣ م ص ١٥
(٢٧)د . جوامير سليم ، آثار الحصار الاقتصادي على الجامعات والحركة العلمية منها ، بحث في ندوة (الحصار وآثاره السيئة في حياتنا الثقافية) مصدر سابق : ص ٢٥ .
(٢٨) د . صالح جواد الكاظم : ملاحظات في حقوق الانسان الثقافية بحث في ندوة (الحصار وآثاره السيئة في حياتنا الثقافية) مصدر سابق ص : ٣٨
(٢٩) الاحزاب : ٢١
(٣٠)المجادلة : ١٤ - ٢٢

• • •

دراسة

صمود البصرة ومقاومتها للغزو الاجنبي

١٢٥٨ - ١٥٠٨

د . نوري عبد الحميد خليل

كلية التربية الاولى – جامعة بغداد

١ـ تمهيد :ـ

من خلال النصوص القليلة التي وصلتنا عن البصرة ، سنحاول في البداية ، اعطاء لمحة تأريخية موجزة عن احوال المدينة والمناطق المحيطة بها ، من النواحي الادارية والاقتصادية والاجتماعية ، منذ سقوط الحكم العربي في بغداد سنة ١٢٥٨ ، حتى الاحتلال الصفوي . وهي فترة طويلة تعرض فيها العراق لغزوات اقوام أجنبية متخلفة . اشاعوا في البلاد الفوضى والدمار باضطراب حبل الامن ، ونشبت الحروب بين الطامعين بالحكم ، فتردت اوضاع البلاد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

وفي ظل تلك الاوضاع الشاذة كان من الطبيعي ان تفقد البصرة مكانتها في التجارة الدولية ، بعد اكتساح المغول لمعظم قارة اسيا واوربا الشرقية . وبعد ان احكموا سيطرتهم على طرق التجارة البرية بين الشرق والغرب ، وذللوا الصعوبات التي تعترض التجار ، وذلك بهدف الحصول على موارد مالية لامبراطوريتهم الواسعة ، مما ادى الى ازدهار التجارة البرية بين الصين واوربا [١] على طريق الحرير العظيم المار عبر آسيا ، واهمال الطرق البحرية ، لعدم دراية المغول بالبحر وصناعة السفن . ومع ان التجارة البحرية ظلت بيد العرب ، حتى مجئ البرتغاليين في بداية القرن السادس عشر ، الا ان البصرة فقدت اهميتها في التجارة الدولية ، ولم تعد لها سوى اهميتها في نقل البضائع الى العراق ، وما تتمتع به من موقع سوقي على راس الخليج العربي ، واحاطتها بمنطقة الاهوار والمستنقعات (البطائح) الممتدة بينها وبين واسط والكوفة ، والتي هي مجمع مياه دجلة والفرات التي يصعب اجتيازها . مما جعل البصرة تتمتع بشئ من العزلة وجعلها في مأمن من الغزوات المدمرة ، مثل الغزوات التي تعرضت لها بغداد والمدن القريبة منها في تلك الفترة .

ان هذا لايعني ان الاقوام الاجنبية لم تحاول احتلال البصرة فموقع المدينة على راس الخليج العربي ، ورخاؤها الاقتصادي كان يغري هذه الاقوام بمهاجمتها ، وبسط سيطرتهم عليها بين حين وآخر خاصة وانها ظلت تستقبل السفن التجارية المحملة بالبضائع الهندية والصينية لسد حاجة اسواق العراق .

وقد ادت هجمات تلك الاقوام الى تناقص سكان المدينة وهجرة الكثير منهم الى الاقطار الاخرى ، وتعرض اجزاؤها للخراب ، فبعد سنة واحدة من احتلال المغول للعراق حوكم سراج الدين بن الحلي حاكم البصرة وواسط بتهمة تخريبهما واهمال مصالحهما فثبتت التهمة عليه وقتل [٢] وتعرضت الحياة الفكرية فيها للانحسار وانكمش دورها الثقافي بعد ان قام المغول بمصادرة مكتباتها الشهيرة ونقلها [٣] الى عاصمتهم .

وقد اشار الى ذلك الرحالة العربي ابن بطوطة عند زيارته للمدينة عام ١٣٢٦ ، فذكر ان البصرة كانت من السعة بحيث كان مسجد علي بن ابي طالب (رض) في وسطها في العصور السابقة ، اما في زمانه « فقد كان بينه وبينها ميلان ، وكذلك بينه وبين السور الاول المحيط بها نحو ذلك » وكانت المدينة حسبما يذكر مقسومة الى ثلاث محلات يحيط بها سوران . اما مدينة الابلة القريبة منها ، والتي كانت مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وغيرهم فقد خربت هي الاخرى ولم تكن عند زيارة ابن بطوطة لها [٤] « سوى قرية بها اثار قصور وغيرها تدل على عظمتها »

ويؤيد ذلك ايضاً ابن العراق [٥] في منتصف القرن السادس عشر ويذكر ان البصرة الجديدة كانت في زمانه تبعد عن البصرة القديمة مسافة اربعة اميال ، ويحيط بها سور له اربعة ابواب ، هي باب المشراق والباب البحري وباب السيفي ، وباب الجبل (الزبير) ، وهو الباب البري الذي يدخل منه القادمون الى البصرة من البر .

وكانت ادارة المدينة تمتد لمسافة بعيدة في العهد الايلخاني كما يذكر المستوفي القزويني الذي كان مسؤولاً عن الشؤون المالية في العراق في النصف الاول من القرن الرابع عشر . ويذكر ان هذه الادارة كانت تمتد الى منطقة واسط شمالاً ، فتتبعها كل من منطقة بلاس والزكية (الزجية) قرب العزير وميسان وجميعها تقع بين البصرة وواسط . اما في الجانب الشرقي من شط العرب فكانت تتبعها كل من عبادان [٦] وقبان .

وكانت البصرة في اواخر ايام الخلافة تدار هي وواسط ضمن منطقة ادارية واحدة يقال لها (الاعمال الواسطية والبصرية)

واستمرت الحال كذلك طيلة العهد الايلخاني (المغولي) . ثم صارت لكل منهما ادارة خاصة منذ بداية العهد الجلائري .[7]

اما الحياة الاقتصادية فيها فان تعثر نشاطها التجاري لم يمنع من تمتع المدينة بشئ من الرخاء النسبي قياساً الى المدن العراقية الاخرى . بفضل استمرار النشاط الزراعي فيها . فابن بطوطة اثنى على بساتينها الكثيرة وفواكهها الاتية . وقال ليس في الدنيا اكثر نخلاً منها واسعار تمرها رخيصة وبساتين نخلها متصلة بينها وبين الابلة لمسافة عشرة اميال .[8] ووصف الرحالة الايطالي ماركو بولو غابات النخيل المحيطة بها بأنها تنتج اجود انواع التمور في العالم .[9] واضاف المستوفي القزويني الى ذلك قوله أن بساتينها كثيرة تروى بواسطة المد وتمتد لمسافة ثلاثين فرسخاً (تسعون ميلاً) طولاً وفرسخين (ستة اميال) عرضاً وتنتج اجود انواع التمور التي تصدر الى الهند والصين .[10] ويصف ابن فضل الله العمري في بداية العهد الجلائري « بلاد عرب البحرين » الممتدة بين العراق والحجاز انها « بلاد زرع وضرع وبر وبحر ولهم متاجر مربحة ووصلهم الى الهند لاينقطع ولهم قصور مبنية وأطام علية وريف غير متسع ونعم كثيرة »[11] ومعروف ان مصطلح عرب البحرين كان المقصود به آل عقيل الذين امتدت منازلهم بين البصرة والبحرين . وقد ظلت منطقة البصرة تنتج محاصيل مختلفة حتى اواخر العهد الجلائري على مايذكر الرحالة الالماني شلتبركر[12] Schiltberger الذي مر بالعراق بعد وفاة تيمورلنك سنة ١٤٠٤ .

غير ان اضطراب الاوضاع السياسية وهجمات القبائل والاقوام المتخلفة على المنطقة ادت الى تناقص مواردها المالية . ثم تدهور الاوضاع المعاشية للسكان . فقد كانت مواردها في اواخر العهد الايلخاني اربعمائة وواحد واربعون الف دينار . تراجعت في بداية العهد الجلائري الى ثلاثمائة وثلاثين الف دينار . ثم انخفضت عام ١٣٦٣ الى مئة وعشرين الف دينار فقط .[14] وظلت تتراجع حتى بداية العهد العثماني .

وعانت تجارة البصرة الداخلية والتجارة الاجنبية المنقولة منها الى بقية مدن العراق صعوبات بالغة بسبب انعدام الامن من منطقة البطائح . فكانت السفن القادمة من البحر والمتجهة من البصرة الى بغداد في نهر دجلة تتعرض غالباً الى هجمات سلطات الاحتلال والقبائل البدوية .[15] ولم يكن بالامكان السفر في تلك المناطق براً الا في صحبة القوافل التي يقودها عرب خفاجة وبني اسد اللذين كانوا يبسطون سيطرتهم على المنطقة .[16] وقد ازداد تعرض التجارة للنهب في فترة الاحتلال التيموري للعراق فأراد تيمور السيطرة على منافذ التجارة وايجاد موارد مالية لامبراطوريته الواسعة فأنفذ حملة على الخليج العربي بهدف اخضاع سواحله حتى جزيرة هرمز[17] الى سيطرته وظلت تجارة البصرة في تدهور مستمر حتى الاحتلال العثماني للعراق .

ومن الناحية الاجتماعية كان معظم سكان البصرة من العرب . ذلك ان المدينة لم تتعرض للاحتلال الاجنبي لفترات طويلة كما هي الحال في بغداد والمدن العراقية الاخرى . وظلت القبائل العربية تحكمها بصورة مستقلة منذ سقوط الحكم العربي ببغداد .

وقد استقرت في المدينة واطرافها تجمعات قبلية كثيرة منهم بنو عقيل وهم من ربيعة من العدنانية الذين بسطوا نفوذهم على البطائح بين البصرة والكوفة وبطونهم بنو المنتفق بن عامر بن عقيل وبنو عبادة وخفاجة وتطلق عليهم جميعاً المصادر المعاصرة اسم عرب البحرين اذ كان نفوذهم يمتد الى الاحساء والبحرين التي خرجوا منها فيما مضى . وكانت الامرة منهم في اولاد مانع [18] بن شبيب بن فضل جدهم الاكبر واستقلوا بحكم المدينة منذ بداية القرن الخامس عشر .[19] ومن التجمعات الاخرى التي استوطنت البصرة آل فضل وهم من طي وبطونهم آل عيسى الذين امتدت منازلهم في بادية الشام وعلى جانبي الفرات حتى البصرة[20] .

٢ـ الفترة الايلخانية (المغولية) ١٢٥٨ـ ١٣٣٥

اتضحت اهمية البصرة السوقية في نظر العراقيين في اثناء حصار المغول لبغداد سنة ١٢٥٨ ، اذ درس قادة الجيش العراقي امكان تهريب الخليفة المستعصم بالله وعائلته الى البصرة ليقيم في احدى الجزر القريبة منها . بحكم حصانة المنطقة وسيطرة العرب عليها حيث يتمكن الخليفة من جمع الانصار والمعارضين للاحتلال والعودة الى بغداد ، وتحريرها حالما تتهيأ الامكانات والظروف المناسبة ، غير ان الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي اقنع الخليفة بان مهد طريق الصلح مع المغول واقنعه بالخروج [21] لمقابلة هولاكو بكان لرأي قلة الجيش ما يبرره . فالقبائل العربية رفضت الاستسلام للغزاة ، وقادت حركة المقاومة ضدهم ، وخاصة قبيلة خفاجة التي استوطنت المناطق الممتدة بين دجلة والفرات ومن هيت والانبار شمالاً حتى الحلة وحول الكوفة والبصرة جنوبياً ، وكانت برئاسة الامير حسين بن فلاح الذي آوى الكثير من الفارين من بغداد وفي مقدمتهم افراد الاسرة العباسية ومنهم احمد بن الظاهر عم الخليفة المستعصم بالله واحمد بن ابي علي ، فقام حسين بن فلاح بتهريبهم الى الشام [22] ومنها الى مصر .

ويذكر مؤرخ عراقي مجهول عاصر تلك الاحداث ان منطقة البصرة صارت بعد الاحتلال المغولي للعراق ملاذاً وملجأ للذين رفضوا الخضوع للمغول . فأضطر الكثير من سكان بغداد وواسط والحلة والكوفة الى اللجوء اليها والاعتصام في البطائح متحصنين فيها ، ولجأ اليها الولاة والنقباء والقضاة واعيان هذه المدن بأهلهم واموالهم .[23] واحتشد فيها ايضاً الكثير من جند الخلافة العراقيين ممن رفضوا الخضوع للمغول [24] واخذوا يتهيأون للانقضاض عليهم بقيادة سيف الدين سلار .

واخذ هؤلاء يتعاونون مع الحكومة المصرية التي وقفت هي الاخرى بوجه المغول ، وشاركت العراقيين في حربهم التحررية ضد الغزاة وفي محاولاتهم الرامية لتحرير العراق وقام عرب خفاجة بالتنسيق بين العراقيين والسلطات المصرية لتنفيذ الخطط العسكرية في الحرب ضد المغول فيذكر المقريزي [25] وهو مؤرخ اطلع على وثائق الحكومة المملوكية ، اذ كان كاتباً في ديوان الانشاء

الجركمي ، في احداث سنة ١٢٦١ ان سيف الدين سلار الذي كان في اواخر ايام الخلافة والياً على واسط والكوفة والحلة ، اعتصم في جنوب العراق بعد دخول المغول بغداد . واراد محاربتهم بالتعاون مع والي تستر ، فجمع جيشاً من اعوانه ومن سكان المنطقة ومن جند الخلافة المتحصنين بالبطائح لاجل هذه المهمة ، لكنه لم يتمكن من احراز نصر حاسم فلجأ الى الحجاز ، وبذل هولاكو محاولات عديدة لاستمالته واغرائه بالتعاون معه ، باذلاً له الوعود باعادته الى ولاياته السابقة في العراق ، لكن سلار رفض ذلك . وبناء على طلب السلطان المصري الظاهر بيبرس الذي اراد الاستفادة من خبرته في حرب المغول توجه سلار الى القاهرة ، حيث عينه السلطان اميراً في الجيش المصري . ومن القاهرة كتب سلار الى اعوانه بالعراق من شيوخ عبادة وخفاجة يدعوهم للحضور ويذكرهم بما ناله من احسان من السلطان المصري . وكان اعوان سلار قد انضموا الى القوات التي قادها احمد بن الظاهر (الخليفة المستنصر بالله) والتي تقدمت من الشام لتحرير العراق بمساعدة المصريين .

ولما فشل هذا الجيش في تحقيق مهمته وقتل الخليفة العباسي التحق هؤلاء بقائدهم سلار في القاهرة . وكان على راسهم خضر بن بدران العبادي وشهري بن احمد الخفاجي ومقبل بن سالم ووشاح التاجي وغيرهم كثيرون . واضاف المقريزي ان هؤلاء « كانوا عيناً (استخبارات عسكرية) للسلطان المصري على المغول »[٣٥] وفي السنة التالية وصلت القاهرة مجموعات اخرى على راسها حسين بن فلاح امير عرب العراق ومعه الكثير من امراء خفاجة »[٣٦]

وقام عرب خفاجة بدور الاتصال بين زعماء العراق وقادته المتحصنين في الجنوب وبين السلطان المصري فكانوا يرصدون حركات المغول وينقلون اليه كل ماكان يقع في دولتهم من احداث ، ويتولون ايضاً نقل الخطط والعمليات العسكرية التي يرسمها السلطان المصري لتنفيذها من قبل قادة العراق ، الذين كان السلطان يكاتبهم باستمرار ويحثهم على قتال المغول .[٣٧] فيذكر المقريزي نفسه في احداث ١٢٦٢ ان السلطان المصري جهز عرب خفاجة بالخلع الى اكابر اهل العراق وكتب اليهم والى صاحب شيراز يحثهم على الثورة على هولاكو ، وانه البس عدة من امراء خفاجة الفتوة ، وارسل معهم قائداً عسكرياً مصرياً كبيراً ليتولى تنظيم وقيادة حركة مقاومة واسعة للمغول من جنوب العراق والاحواز وشيراز .

وفي السنة التالية عاد الى القاهرة مبعوثون من تلك الديار وهم جماعة من عرب خفاجة يحملون كتباً من جماعتهم الى السلطان تفيد انهم اغاروا على المغول حتى وصلت غاراتهم ابواب مدينة بغداد . . ويخبرون السلطان بتطورات الموقف في شيراز ، ثم عاد بعدها القائد المصري من العراق الى القاهرة ، ومعه عدد من زعماء العراق منهم مظهر الدين وشاح ابن شهري والامير حسام بن حسين ابن فلاح امير العراق وكثيرون من امراء خفاجة . بعد ان نفذوا مهمتهم على اكمل وجه فتلقاهم السلطان بنفسه [٣٨] واكرمهم .

وهكذا ظلت منطقة البصرة في مواجهة دائمة مع المغول ومصدر تهديد وقلق للسلطات الايلخانية في بغداد . يلجأ اليها الثائرون على تلك السلطات ويتم فيها تنظيم حركات المقاومة وقيادة الانتفاضات لمشاغلة الغزاة ، واجبارهم على مغادرة العراق ، ففي سنة ١٢٩٣ انتفض العرب في البطائح جنوبي واسط فسير اليهم السلطان المغولي احد قادته لكنه لم يتمكن من الوصول اليهم لبسالتهم وحصانة المنطقة فعاد خائباً . ولتبرير هذا الفشل اخذ ينتقم من السكان الامنين في طريق عودته فنهب القرى والدواب وسفن التجار القادمين من البصرة في دجلة ، واسر الكثير من الاطفال والنساء . وبلغت وحشيته حداً اثارت سخط السلطان المغولي نفسه فحمل القائد على تقريعه ، وامر بحبسه بضعة ايام واطلاق سراح الاسرى [٣٩] واعادتهم الى منازلهم .

وعلى الرغم من وجود حامية مغولية احياناً في مدينة البصرة لكنها كانت عاجزة عن حماية الادارة فيها ، ويظهر ضعف تلك الادارة من خلال كثرة الانتفاضات المحلية ، وسرعة تبدل ولاة المدينة وتعرض معظمهم للمحاكمة والقتل [٤٠] وهو ما تؤكده المصادر المعاصرة .

كانت اكبر الانتفاضات التي عرفتها المدينة ، واكثرها شمولاً وتنظيماً ، قد وقعت في اواخر الحكم الايلخاني سنة ١٣١٦ . اذ صادف ذلك الوقت هرب صاحب مكة المكرمة الامير حميضة بن ابي نمي بعد خلاف مع اخوانه حول السلطة ، وتوجهه الى العراق ، مستنجداً بالمغول لنصرته والحصول على مساعدتهم لاعادته الى السلطة . فأستغل المغول الفرصة لبسط سيطرتهم على مكة والمدينة والخطبة فيهما باسم السلطان المغولي فجهزوا جيشاً كثيفاً من خراسان ، بلغ تعداده نحو عشرة الاف مقاتل ، قاده الدلقندي حاكم البصرة المغولي في صحبة الامير حميضة . وما ان اجتازت تلك القوات البصرة حتى علموا بوفاة السلطان المغولي فارتبكوا . اما سكان البصرة والقبائل المحيطة بالمدينة فقد استغلوا فرصة خروج الدلقندي واتباعه من المدينة فقاموا بانتفاضة كبيرة خلعوا منها الحاكم المغولي ونصبوا (ابن السوايكي) حاكماً عليهم .

وقام الحاكم الجديد بتحشيد الفرسان والاستعداد للدفاع عن المدينة .ومهاجمة القوات المغولية فأستنفر القبائل المحيطة بالبصرة . وقام محمد ابن عيسى الطائي شقيق مهنا امير آل فضل وكان في العراق آنذ بجميع عربه من خفاجة وعرب اخوته واولاد اخوته ، وسار الى الدلقندي واشتبك معه في معركة حامية عند اطراف البصرة في اواخر ذلك العام فانهزم الدلقندي وحميضة ومن معهم بعد ان قتل الكثير من اتباعهم وتشتت الباقون ، واخذ الثوار كل ما كان مع الجيش المغولي من مال

واسلحة ودواب (٢٦)وانفردوا بحكم المدينة .

جعلت هذه الانتفاضة السلطان المغولي الاخير يدرك جيداً انه لن يتمكن من حكم البصرة حكماً مباشراً ففضل ابقاء حكمها بيد العرب والعمل على استرضائهم وكسب ودهم حتى انه فوض حكمها بعد سنتين من تلك الانتفاضة الى فضل بن عيسى شقيق مهنا امير العرب في الشام والعراق ، واقطعه اياها . وظلت تحت حكمه حتى تحالفت عليه عقيل عرب الاحساء والقطيف (٢٧)واخرجوه منها . ومع ذلك فقد ظل ابناؤه يملكون فيها املاكاً واسعة ويبسطون سلطتهم عليها حتى انتزعها منهم الشيخ مانع امير عرب (٢٨)المنتفق كما سنرى .

٣- في عهد الاحتلالين الجلائري والتيموري ١٣٣٩ - ١٤١٠

وقفت القبائل العربية في الطلائع منذ البداية ضد الغزو الجلائري فقد التف عرب ربيعة وخفاجة حول امير مكة احمد بن رميثة الذي قدم الى العراق في اواخر العهد الايلخاني . وما ان انتهى ذلك العهد حتى قاد احمد هذه القبائل سنة ١٣٣٥ وحرر الحلة من سيطرة المغول بعد ان طرد حاكمها وتحصن هو واتباعه فيها . وفشلت محاولات الجلائريين لاخراجهم من المدينة حتى اضطر حسن الكبير لتوجيه جيش قاده بنفسه نحو الحلة وظل احمد يقاتل داخل اسوار المدينة حتى استخرجه حسن عن طريق الحيلة فغدر به وقتله (٢٩)سنة ١٣٤١ .

اما مدينة البصرة نفسها فان الحامية المغولية التي ظلت ترابط فيها بعد سقوط الحكم الايلخاني في العراق لم تتمكن من حماية نفسها ، من هجمات سكان المدينة والقبائل المحيطة بها ، فقدمت ولاءها للجلائريين . غير ان ذلك لم يكن كفيلا بحمايتها اذ واجهت ضغطاً شديداً من سكان البصرة الذين حاصروا الحامية ، وتقدم عرب البحرين لمساعدة اخوانهم سكان البصرة ، وشنوا هجوماً شاملاً على المدينة بهدف اخراج الحامية المغولية منها سنة ١٣٥٤ . لكن حسن الكبير استغل الخلافات بين شيوخ القبائل فتمكن من إستمالة بعضهم اليه وارسل جيشاً كبيراً من بغداد قاده الامير فواز بن مهنا (ت ١٣٥٦) وكان في العراق انذاك فتمكن من السيطرة على المدينة .(٣٠)

وهكذا فأن الجلائريين لم يتمكنوا من حكم المدينة حكماً مباشراً ، بل استعانوا بالقبائل العربية لحكمها كما فعل المغول من قبل . وكانت هذه القبائل تستغل ضعف السلطة المركزية فتخلع ولاءها للجلائريين ففي عهد السلطان اويس تمكن الشيخ عثمان من بسط سلطته على المدينة . فحكمها بصورة مستقلة ولم يعد للجلائريين اي نفوذ فيها واخذ يأوي اليه كل ساخط على الحكم الجلائري ، بمن فيهم ابناء الاسرة الجلائرية نفسها ففي سنة ١٣٥٩ اختلف اسحق بن ابيكان مع عمه السلطان اويس وثار عليه فلجأ الى البصرة مستعيناً بحاكمها الشيخ عثمان (٣١)على عمه .
ولم يكن امام السلطات الجلائرية ان ارادت تعزيز سلطتها في العراق سوى استرضاء تلك القبائل وخاصة آل عيسى ، الذين امتدت منازلهم على جانبي الفرات حتى البصرة فقرب الجلائريون اميرهم صبار ابن مهنا الطائي وولوه امرة عرب العراق (٣٢)(١٣٤٨ - ١٣٧٤) وكانت البصرة اقطاعاً لعائلته منذ العهد الايلخاني وظل ولده نعير (محمد بن صبار) يتولى شؤونها بعد وفاة والده وبسبب تردي العلاقة بينه وبين السلطان المصري طلب الاخير من ثامر بن قشعم امير عرب البحرين الذي تحالف مع المصريين ان يهاجم نعير ويستولي على املاكه في البصرة فقاد ثامر هجوماً ناجحاً على المدينة سنة ١٣٩٢ وانتزع تلك الاملاك من يد نعير(٣٣) .

وفي العام نفسه كان تيمور قد احتل بغداد والمدن القريبة منها واخذ يطلع لاحتلال البصرة باعتبارها مفتاحاً للخليج العربي الذي وضعه ضمن مخططاته التوسعية بهدف احكام سيطرته على طرق التجارة البحرية (٣٤) وبعد ان احتلت قواته مدينة واسط وعين عليها حاكماً ووضع فيها حامية عسكرية ، ارسل جيشاً كبيراً الى البصرة قاده ابنه ميرانشاه وبساعده سلطان محمود اكفأ قادة تيمورلنك ، وانضمت الى الحملة قوات اخرى كانت ترابط في مدينة الحلة .(٣٥)

وكانت البصرة انذاك يحكمها الامير صالح بن حولان امير عرب المنتفق ، الذي بسط سلطته حتى البحرين ، فقرر الاستبسال في الدفاع عن المدينة والاستعداد للمواجهة . مهما كلف الامر ، واستنفر عربه بين عقيل وبطونهم وعرب البحرين والقبائل المحيطة بالبصرة فاجتمع لديه الكثير من الفرسان الذين احتشدوا داخل المدينة . وما ان اقتربت القوات الغازية حتى اشتبكوا معها في معركة حامية سنة ١٣٩٣ انتهت بانحدار الغزاة وقتل عدد كبير منهم واسر قائد الحملة ميرانشاه (٣٦) .

ولما علم تيمور بما حل بقواته على يد سكان البصرة بعث الى صالح ابن حولان يطلب منه اطلاق سراح ولده ومن معه من الاسرى . فأشترط امير البصرة على تيمور بالمقابل ان يطلق سراح الاسرى العراقيين وان يدفع مبلغاً كبيراً من المال . وقد تركت هذه الشروط اثراً عميقاً في نفس تيمور الذي لم يفرض عليه احد شروطاً من قبل فأنفذ حملة ثانية الى البصرة وضع على قيادتها اكفأ قواد جيشه وذلك في اواخر سنة ١٣٩٣ ، سار بعضها براً وبعضها الاخر في مراكب من دجلة . وقد ظفر العرب بالقوات المنحدرة في دجلة واباودها بعد ان اغرقوا المراكب ، اما القوات البرية فقد واصلت سيرها نحو المدينة . ويبدو ان سكان البصرة لم يتمكنوا من الصمود امام هذا الجيش الكبير الذي دخل المدينة ، وفي اثناء المواجهة قتل صالح بن حولان وتم اطلاق سراح ميرانشاه ووضع حامية تيمورية في المدينة .(٣٧)

ولمنع سكان البصرة من الثورة اتخذ تيمورلنك اجراءات عسكرية اخرى تهدف الى منع القبائل العربية شرقي شط العرب من مساعدة اخوانهم سكان البصرة فعبر الى الجانب الشرقي من الشط وسيطر على المناطق الممتدة بين البصرة وواسط .(٣٨)غير ان تلك الاجراءات لم تكن كافية لتثبيت حكم التيموريين في المدينة امام اصرار السكان واستبسالهم في طرد الغزاة فسرعان ما عادت القبائل العربية وحررتها من ايديهم (٣٩)ويبدو ان تيمورلنك لم يحاول الهجوم عليها مرة اخرى بسبب ما تكبدته قواته من خسائر ، فلم يتعرض للمدينة عند احتلاله الثاني للعراق سنة ١٤٠١ .

ومنذ بداية القرن الخامس عشر ترسخ الحكم العربي في المدينة خاصة بعد وفاة تيمورلنك سنة ١٤٠٥ وانشغال الجلائريين باستعادة حكمهم المنهار والقضاء على المؤامرات والدسائس بين قادة الجيش . فألتف سكان البصرة في مطلع ذلك القرن حول بعض الزعامات المحلية ، وامراء العرب ، منهم الامير ناصر والامير محمود القبائلي امير عرب قبان القريبة من المدينة ، فتمكن هؤلاء من الوثوب على البصرة وطرد اتباع تيمور

منها وضم القبائل المجاورة اليهم وبسطوا سيطرتهم على كل القسم الجنوبي من العراق حتى مدينة الحلة [45]

وبعد عودة السلطان احمد الجلائري الى بغداد سنة ١٤٠٢ سعى لاستعادة سيطرته على مدن العراق فقرر القضاء على الحكم العربي في البصرة واعد حملة كبيرة قادها بنفسه واشتبك مع سكان المدينة في معركة حامية . وعلى الرغم من الخسائر الجسيمة في الارواح التي تعرضت لها المدينة غير ان صمود المقاتلين وبسالتهم اجبرت القوات المهاجمة على التراجع وفي اثناء عودتها انتقمت من سكان المناطق القريبة من البصرة فنهبوا اموالهم ودوابهم وما وقعت عليه ايديهم من المواد الغذائية وعادوا الى بغداد خائبين .

ويضيف حافظ أبرو وهو مؤرخ معاصر واسع الاطلاع الى ذلك قوله : ان امراء البصرة ناصر ومحمود القباني ارادا الانتقام من السلطان احمد ، فجمعوا اتباعهم ولاحقوا القوات الجلائرية المهزومة حتى وصلوا الحلة ودخلوها بعد ان طردوا حاكمها الجلائري علي مكندر وبذلك تم تحرير الحلة من سيطرة الجلائريين . فأضطر السلطان احمد الى تجهز حملة اخرى قادها ولده طاهر وساعده علي مكندر نحو الحلة فأضطر امراء العرب الى التراجع عن الحلة والانسحاب الى البصرة [46]

٤ـ فترة الاحتلال التركماني ١٤١٠ـ ١٥٠٨

في سنة ١٤١٠ احتل التركمان (القرة قوينلو) المعروفين بأسم (الخروف الاسود) بغداد واستولوا على العراق ، وفر من بقي من الجلائريين الى واسط ومنها الى تستر ، حيث اقاموا دولة لهم هناك ، وبسطوا سيطرتهم على الاحواز ، ثم على الحلة [47] بسبب عدم ترسيخ سلطة القرة قوينلو في جنوب العراق ، واستمر الحكم العربي في البصرة ، وكان يحكمها عند سقوط الحكم الجلائري في بغداد الشيخ مانع امير عرب المنتفق بصورة مستقلة وتشير المصادر الى ان هذا الشيخ بذل محاولة لاخراج الجلائريين من بغداد قبل سقوط حكمهم منها بسنة واحدة اي عام ١٤٠٩ حين قدم دعمه لثورة كبيرة قادها في المدينة شخص اسمه اويس ضد السلطان احمد [48]

وبذل الجلائريون في تستر والحلة محاولات يائسة لاستعادة حكمهم في البصرة وذلك بالتحالف مع بعض القبائل العربية حتى انتزعوها من يد الشيخ مانع سنة ١٤١٧ [49] غير ان السكان رفضوا حكم الجلائريين واضطر حاكم البصرة الجلائري محمد بن شاه ولد الى مجاراة سكان المدينة واعلان الثورة سنة ١٤٢٢ ضد اخيه اويس حاكم الحلة [50]

ووجد الجلائريون انفسهم عاجزين عن الاحتفاظ بحكم البصرة ، بعد ان تشرذمت دولتهم ، وتشتتوا ، وتكاثرت عليهم الاخطار من التركمان القرة قوينلو في الشمال وبقايا التيموريين في ايران ومعارضة العرب لحكمهم . فأخذوا يذوبون في البصرة ويندمجون مع اهلها ، ودخلوا في مصاهرات مع شيوخها بهدف الحصول على دعمهم لمحاربة اعدائهم التركمان والتيموريين [51]

وفي السنوات التالية تعرضت البصرة لهجمات شديدة شنها ابراهيم سلطان بن شاه رخ (حفيد تيمورلنك) الحاكم في شيراز وكانت اشد تلك الهجمات هو الهجوم الذي شنه سنة ١٤٣٤ حيث دافع سكان البصرة ببسالة عن مدينتهم حتى اجبروا القوات الغازية على التراجع ، بعد ان كبدوها خسائر جسيمة في الارواح . وتوقع سكان البصرة عودة ابراهيم سلطان لمهاجمة المدينة مرة اخرى انتقاماً لما اصابه من خسائر فواصلوا استعدادهم غير ان الاخبار وصلت بعد قليل بموت ابراهيم سلطان حزناً على ما اصاب جيشه او نتيجة لاصابته في المعركة ، فأقام سكان البصرة الافراح ابتهاجاً بالنصر [52] وانقراض بقايا الدولة التيمورية في ايران .

ولم تمض سوى بضع سنوات حتى تعرضت البصرة لهجوم آخر شنه هذه المرة التركمان القره قوينلو سنة ١٤٤١ ، قاده اسبان ابن قرة يوسف حاكم العراق ، بعد ان استولى على الحويزة وعبر شط العرب الى الزكية قرب المزير . وكانت جموع كثيرة من العرب الساكنين في تلك المناطق قد تراجعوا امامه الى البصرة ، فتعاونت هذه الجموع مع سكان البصرة والقبائل المحيطة بها وحشدوا قوات كبيرة داخل المدينة استعداداً للدفاع عنها . وتجمعت قبائل عبادة وبنو ليث والبو حطيط وبنو سعد وبنو اسد القاطنين في الحويزة والاحواز للوقوف ضد اسبان ونصرة اشقائهم في البصرة ، وارسلوا رسولاً الى يحيى بن محمد امير قبيلة آل غزي وهي من المنتفق ايضاً ، وكان حاكماً على البصرة وبسط نفوذه شمالاً حتى مدينة الحلة ، يعرضون عليه التحالف ضد اسبان . غير ان الرسول وقع بيد قوات اسبان في الزكية فأكتشف امره وقتله اسبان .

وامام صمود اهل البصرة واستعدادهم للمواجهة لم يجد اسبان بداً من التراجع بعد ان تكبدت قواته خسائر جسيمة . وكانت هذه القوات تعاني من نقص في التموين ويفتك الجوع فيها ، وفي اثناء تراجعهم نحو بغداد لاحقتهم القبائل العربية واستولت على المراكب التي سيرها اسبان في دجلة من نواحي البصرة الى واسط وهي تحمل الاموال والمواد الغذائية وقتلوا من فيها من جند اسبان . [53] وبذل محمد بن فلاح المشعشع بعد هذه المعركة محاولات لضم البصرة اليه وسير جيشه نحوها ، وتمكن من قتل حاكمها محمد بن يحيى لكنه لم يتمكن من احتلال المدينة بل استولى على الرماحية [54]

ومنذ منتصف القرن الخامس عشر انقطعت اخبار البصرة عنا ، ويبدو ان آل المنتفق ظلوا يحكمونها ويبسطون سلطتهم على ما جاورها من المناطق . وان الاقوام الغازية من قرة قوينلو وآق قوينلو (الخروف الابيض) وصفويين انشغلوا بالصراع حول العراق واذربيجان . ومع ذلك فقد تعرضت البصرة للحصار مراراً عديدة وعانت هجمات المشعشعين والتركمان وتعرضت للنهب والتخريب [55]

وما ان ادرك القرن الخامس عشر نهايته حتى استعادت البصرة مركزها تحت الحكم العربي بعد ان تم اكتشاف طريق راس الرجاء الصالح والغزو الاوربي للخليج العربي فأخذت دورها في مطلع القرن السادس عشر في مقاومة البرتغاليين تحت قيادة الشيخ راشد بن مغامس الذي تلقب بسلطان الشرق وسلطان البصرة والاحساء والقطيف والذي استقل بحكم البصرة . وكان عرب الاحساء والقطيف قد استعانوا به لصد الخطر البرتغالي فتمكن الشيخ راشد من حكم تلك المناطق وولى حكم البصرة الى اخيه محمد [56]

الهوامش

١ـ نوري عبد الحميد العاني ، العراق في العهد الجلائري (بغداد ١٩٨٦)ص ٢٨٦ـ ٢٨٨ H.Howorth ,History of the Mongols part 111 (N.Y 1888)P.72-80

٢ـ ابن الفوطي (منسوب لـه) كتاب الحوادث الجامعة (بغداد ١٣٥١)ص٣٣٨

٣ـ نفسه ص ٣٥٠ وعباس العزاوي ، تأريخ العراق بين احتلالين جـ ١ (بغداد ١٩٣٥) ص ٢٤٧

٤ـ ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة (بيروت ١٩٦٠) ص ١٨٥ـ ١٨٩

٥ـ نعمان بن محمد ابن العراق ، معدن الجواهر بتأريخ البصرة والجزائر (اسلام اباد ١٩٧٣) ص ٧٢

٦ـ حمد الله المستوفي القزويني ، نزهة القلوب تحقيق كاي لسترانج (لندن ١٩١٣)ص ٣٩

٧ـ الحوادث الجامعة ص ٣٣٢ـ ٣٥٠ ، العاني ، المصدر السابق ص ٤٣ـ ٤٥

٨ـ ابن بطوطة ١٨٥ـ ١٨٩

٩ـ M . pole ,the travels of Marco polo (N.Y.1930) P30

١٠ـ نزهة القلوب ص ٣٨

١١ـ القاضي شهاب الدين العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف (مصر ١٣١٢)ص ٨١

١٢ـ C.R.Beazly ,the Dawn of Modern Geography (N.Y.1949) vol.111 ,p.306 .

١٣ـ العاني ، المصدر نفسه ص ٢١٨

١٤ـ الحوادث الجامعة ص ٤١٥ ، ٤٧٦ ، ٤٩٧

١٥ـ ابن بطوطة ص ١٨٢ـ ١٨٣

١٦ـ العاني ، المصدر السابق ص ٢٨٠ ، ٢٨٦

١٧ـ ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر (بيروت بلا) ٧/ ٩٨ ابن العراق ، معدن الجواهر ص ٣٤ .

١٨ـ احمد القلقشندي ، صبح الاعشى (القاهرة بلا) ٧/ ٣٧١ وقلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان (القاهرة ١٩٦٣)ص ١١٩ـ ١٢٣ وابن فضل الله العمري ، التعريف ص ٨٠ـ ٨١ ابن خلدون كتاب العبر (بيروت ١٩٥٩) ٦/ ٢٣ـ ٢٥

١٩ـ ابن العراق ، معدن الجواهر ص ٣٤ـ ٣٦

٢٠ـ ابن خلدون ، العبر ٦/ ٢٠ ، والعزاوي تأريخ العراق ١/ ٣٣٢ .

٢١ـ الجوزجاني ، طبقات ناصري ص ٤٢٧ نقلاً عن فؤاد عبد المعطي الصياد ، المغول في التأريخ (بيروت ١٩٨٠) ص ٢٦٣ ، نوري عبد الحميد خليل ، التحدي المغولي وموقف الامة العربية منه ، مجلة دراسات للاجيال ٣/ ١٩٨٦اص ٥٧

٢٢ـ احمد بن علي المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ،(القاهرة ١٩٣٦) ١/ ٤٤٨ ، ٤٦٣ ، ابن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية بيروت ١٩٧٧ (١٣/ ٢٣١) السيوطي تأريخ الخلفاء (القاهرة ١٩٦٤) ص ٤٧٧

٢٣ـ الحوادث الجامعة ص ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الاداب (دمشق ١٩٦٧)جـ ٤ ق ٢ ص٨٦٩ .

٢٤ـ رشيد الدين الهمداني ، جامع التواريخ م ٢ (القاهرة ١٩٦٠) ١/ ٢٩٦ العزاوي ، تأريخ العراق ١/ ٢٠٦ .

٢٥ـ كتاب السلوك ١/ ٤٦٨ـ ٤٧٦ مع الهوامش ، نوري عبد الحميد خليل العلاقات العراقية المصرية ١٢٥٨ـ ١٤١٠ (بحث غير منشور)ص ٧ـ ٨

٢٦ـ جمال الدين الشيال ، تأريخ مصر الاسلامية جـ ٢ العصران الايوبي والمملوكي (القاهرة ١٩٦٧) ص ١٩٦ .

٢٧ـ السلوك ١/ ٤٨١ ، ٥١٦ .

٢٨ـ نفسه ، ١/ ٥٠٢ ، ٥١٠ ، ٥١٢ .

٢٩ـ الحوادث الجامعة ص ٤٧٦ ، ٤٩٥

٣٠ـ نفسه ص ٣٣٨ ، ٣٧٢ ، ٤٥٩ ، ٤٨٢

٣١ـ ابو الفداء ، المختصر ٧/ ٩٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ١٤/ ٧٧ احمد بن علي الحسيني ، المعروف بابن عنبة ، عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب (بغداد ١٩٨٨) ص ١٤٤ ، العزاوي تأريخ ١/ ٤٤٩

٣٢ـ ابو الفداء المختصر ص ٩٨ ، ابن خلدون ، العبر ٥/ ٩٤١ـ ٩٤٢ العزاوي ، تأريخ ١/ ٤٥١ ، ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة (القاهرة ١٩٦٦) ٥/ ١٤٠ .

٣٣ـ ابن الفرات ، تأريخ ابن الفرات (بيروت ١٩٣٦) ٩/ ٣٤٢ ، العزاوي تأريخ ٢/ ٤٣

٣٤ـ ابن عنبة ، عمدة الطالب ص ١٤٦ ، ابن بطوطة ، ص ٢٢١ ، محمد بن احمد بن علي الحسيني ، بحر الانساب (القاهرة بلا)ص ١٩٥ .

٣٥ـ محمد بن احمد بن عثمان الذهبي ، ومحمد بن علي الحسيني ، من ذيول العبر (الكويت بلا) ص ٣٠٢ـ ٣١٢ .

٣٦ـ حافظ ابرو ، ذيل جامع التواريخ رشيدي (طهران ١٣١٧)ص ١٩١ ، ميرخوند تأريخ روضة الصفا (طهران ١٣٣٩) ٥/ ٥٧٢ .

٣٧ـ السلوك ٢/ ٤٤٥ .

٣٨ـ ابن الفرات المصدر السابق ٩/ ٣٤٢ .

٣٩ـ العاني ، العراق في العهد الجلائري ص ٢٨٦ .

٤٠ـ جاسم مهاوي حسّن ، تأريخ الغزو التيموري للعراق والشام رسالة ماجستير غير منشورة كلية الاداب (بغداد ١٩٤٦)ص ١٤٨ .

٤١ـ ابن الفرات ، المصدر السابق ٩/ ٣٤٧ ، ابن حجر العسقلاني ، ابناء الغمر بابناء العمر (القاهرة ١٩٦٩) ١/ ٤٥٣ ، السلوك ٣/ ٧٩٠ .

٤٢ـ ابن الفرات المصدر السابق ٩/ ٣٤٨ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة بلا)١٢/ ٢٦١ .

٤٣ـ حسين ، المصدر السابق ص ١٥٢ نوري عبد الحميد خليل ، صور من المقاومة العربية للسيطرة الاجنبية في العراق . مجلة دراسات للاجيال ٤/ ١٩٨١ .

٤٤ـ خليل ، صور من المقاومة ص ١١٤ .

٤٥ـ حافظ ابرو ، زبدة التواريخ بايسنقري ، الجزء الثاني من كتاب تأريخ فتوحات الامير تيمور المعروف بظفر نامة لنظام الدين شامي (براغ ١٩٥٦) ٢/ ١٦٥ ، خليل صور من المقاومة ص ١١٥ .

٤٦ـ زبدة التواريخ ص ١٦٥ ، العاني ، العراق في العهد الجلائري ص ٤٤ .

٤٧ـ التأريخ الغياثي ، دراسة وتحقيق طارق نافع الحمداني (بغداد ١٩٧٥) ص ١٣٦ ، ٢٤٩

٤٨ـ Howorth op cit p 678 مير خوند ، روضة الصفا ٦/ ٥٧٨

٤٩ـ ابناء الغمر ٣/ ١٤٦ ، ٢٠٦ السخاوي ، الضوء اللامع (بيروت بلا) ١٢/ ١٦ ؛ العزاوي بتأريخ ٣/ ٤٣

٥٠ـ الضوء اللامع ١٢/ ١٦ ؛ العزاوي ، تأريخ ٣/ ٥٥ ، ٧٤ .

٥١ـ النجوم الزاهرة ١٤/ ٢٢٢ ؛ العزاوي ، تاريخ ٣/ ٨٣ .

٥٢ـ ابن تغري بردي ، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (القاهرة ١٩٥٦) ١/ ٥٨ ، النجوم الزاهرة ١٥/ ١٩٥ ، الضوء اللامع ١/ ٢٥٣ـ ٥٣ مؤرخ شامي مجهول ، حوليات دمشقية ٨٢٤ـ ٨٢٩ (القاهرة ١٩٦٨)ص ١٢٨ ، العزاوي ، تاريخ ٣/ ٩٣ .

٥٣ـ التاريخ الغياثي ، ٢٧٥ـ ٢٧٦ ، العزاوي ، تاريخ ٣/ ١١٥ـ ١١٦ وجاسم حسن شبر تاريخ المشعشعين (النجف ١٩٦٥)ص ٨٠ـ ٨١

٥٤ـ العزاوي تاريخ ص ١١٦ ، شبر ، تاريخ المشعشعين ص ٨١ـ ٨٢ التاريخ الغياثي ص ٢٧٦ ، نور الله شوشتري مجالس المؤمنين (طهران ١٣٧٦) ٢/ ٣٩٩ ؛ ابن المراق ، معدن الجواهر ص ٣٦ـ ٣٧

٥٥ـ التأريخ الغياثي ص ٣٠٩ ، العزاوي ، تاريخ ٣/ ١٤٣ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣

٥٦ـ محمد بن عبد الله الاحسائي ، تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء القديم والجديد (الرياض ١٩٦٠) ص ١٢١ ، ابن المراق . معدن الجواهر ص ٧٣ .

• • •